أحمد مراد

لوكاندة بير الوطاويط



دار الشروق

لوكاندة بير الوطاويط

أحمد مراد

الطبعة الأولى ٢٠٢٠

تصنيف الكتاب: أدب / رواية

٧ شارع سيبويه المصري

مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر

www.shorouk.com

dar@shorouk.com

رقم الإيداع ٢٠٢٠/ ١٠٥٦٠

ISBN 978-977-09-3651-1

تصميم الغلاف: آدم عبد الغفار

خطوط الغلاف: خليل زيدان

اليومية الأخيرة / نمرة ٣٤

وصيتي/ وتتولى تنفيذها ست آريانا الطاليانية «أم بيدرو»؛ القاطنة بالدور التحتاني غرفة نمرة ٤.

هذه هي رسالتي الأخيرة للعالم المُظلم، كتبتها بحبر الزعفران الروحاني الطاهر وأنا في كامل الوعي والإدراك، بعد أيام من الامتناع عن تناول «عُشبة يوحنا» التي وصفها لي الحكيمباشي «ساسون»، فتلك العشبة خبيثة، تتركني هامدًا خامدًا، لا بريق في عينيَّ، ولا روح في أيري.

أكتب وصيتي هذه كي لا تتهموا مخلوقًا بقتلي، وبخاصة «بشماف جودت أنزور» مدير اللوكاندة الشركسي ـ رغم أنه يسرني حقًّا اتهام هذا الوغد زورًا، إلا أنه لا يستحق مثل ذلك الشرف ـ بعد محاولاته المُضنية المتكررة في التخلص مني بدس السم في طعامي، والتدليس في شأني لدى القواصة، لطردي من الغرفة التي أسكنها منذ سبع سنوات ـ رغم تسديدي الإيجار ـ وربما الزج بي ظُلمًا في غياهب السجون، لكن الله يرد كيد المُعتدي وهو خير الماكرين.

إن الحمد لله، ولا يُحمد على مكروه سواه، لقد تأكدت بالأمس وأيقنت أن الداء قد تمكّن مني، ولا مناص من المصير الأسود، فالأفاعي متناهية الصِّغر تعيث فسادًا في الأوردة وتتجول دون حُرمة أو هوادة في الشرايين، تسللتْ حتى الطبقة الثالثة من جلدي، وخرجت مع بولي. وقد استعنت بالأعشاب المدوَّنة في تذكرة داود، وأوراق اللبلاب، ولم أجد للشفاء سبيلًا، في الأيام التالية ستغشى الأفاعي عينيَّ، وتطل ذيولها من أذنيَّ، فيشمت بي الكارهون، ويعافني المارة في الطرقات، وقد رسمتْ فروع اللبلاب على الحائط الغربي كلمة «عُد»، فأدركت أن الأجل قد حان، وأن موتي قد آن، وأن الحزن الكامن في صدري القابض لأنفاسي منذ سنين طويلة، سينتهي إلى الأبد، وليس ذلك انتحارًا والعياذ بالله، بل هي تضحية واجبة، وخدمة لازمة، أقدمها بنفس راضية للإنسانية، حتى تتوقف العدوى عندي، ويصير الوباء ذِكرى.

إني راحل والأسف يملأ فؤادي، على الخلائق التي لم تُدرك بعد، سِر إعجاز نبتة اللبلاب، ففروعها المباركة المُتسلقة، هي التي حذّرتني من مؤامرات السلطان «عبد العزيز الأول» للنّيل مني، وأرشدتني لمعرفة سيرة الهجين، الزاحف الأعظم، ساكن القمر الذي هبط على الأرض منذ قرون سحيقة، يستولي على أجساد الخلق ويتجلى ليالي الاكتمال، هو مَن بث «الطاعون البقري» في الماشية بمصر العُليا حتى ازدحم النيل بالجِيَف، وتخطى ثمن رطل الزبدة ثلاثة قروش، وهو مَن أخرج الكوليرا من كوارنتينا الإسكندرية، ونشرها في القُطر، فتوالت الوفيات. لا عجب، فقد أتى إلينا بعد أن ناكح نسل حُكَّام الإنكليز والفرنصاوية وجنس الآريين، وتوغل بين الطبقات العليا في الكهانة، أجّج الحروب الصليبية، الحرب الروسية الفارسية، وحرب الأفيون، قبل أن يتسلل إلى المحروسة طلبًا للطقس الجاف الدافئ، ورغبة منه في التهام ذهب الفراعين، وشرب حيض الحريم ـ غِذاءه المُفضل المرتبط بدورة القمر ـ اللهم إني برسالتي هذه قد أبلغت السوقة والزعانف منكم وحذرت الحريم والأرستقراط كَانِزي الأموال من خطر الهجين القادم دون رادع، اللهم فاشهد.

وصيّتي التي لم يُسعفني الوقت لتنفيذها بسبب اكتمال وجه القمر وغمر ضوءه المسموم السككَ والحارات:

ـ تسليم الكاميرا وزجاجات الكولوديون «أرجو الحذر فهو سائل قابل للاشتعال يحتوي على قطن البارود والكحول» إلى الخواجة «كباسيكاليس» الكيميائي اليوناني بالأزبكية، وذلك لتسديد ديوني لديه والبالغة جُنيهين وخمسة وسبعين مليمًا.

ـ توصيل ألواح الفوتوغراف الزجاجية التي تحوي عفاريت التصويرات الشخصية، وكذا صور المتوفين الجنائزية إلى ذويهم بلا مقابل، ومكتوب خلف كل لوح اسم المتوفّى ونمرة بيته.

ـ يُباع العود، ساعة جيب «نوردمان فريرس طراز ١٨٥٥»، كتب التشريح والفقه، المنظار الفلكي، الأباريق، والسرير «بعد حرق المرتبة والملاءة»؛ وذلك لتسديد ديوني لناحوم المرابي بباب النصر، والبالغة ثلاثة جنيهات وستة عشر قرشًا، وكذا ثمانية ريالات أجرة الغرفة المتأخرة «مخصوم منها مصاريف إصلاح السقف، وشراء مزراب نحاسيّ لماء المطر» للتيس عديم المفهومية بشماف.

ـ مفاتيح أقفال الغرفة المغلقة «عدد سبعة» ستجدونها مُعلَّقة في رقبتي. قبل فتح الغرفة تستوجب قراءة دفتر اليوميات المُعلق في الأُكرة لتبيان طريقة التعامل مع «عنتر»، لقد أطعمته فأشبعته وأسقيته الكحول حتى خمد، والحذر واجب، إن تحرر من الجنازير أو اشتمّ الغدر فقوته تفوق عشرة رجال أشداء، أنصح بإطعامه لوجه الله حتى توافيه المنية، فما جرؤت على قتله مثلما تقتلون خيولكم المريضة بدماء باردة.

ـ أرجو تسديد ثلاثة ريالات لشكيب عبد الصمد عامل مشرحة قصر العيني مع احتفاظه بحقيبتي الجلدية وأدوات التشريح، وكذا تكليفه بدفن محتويات برطمانات الفورمالين الزجاجية.

ـ الخضراوات المزروعة في الأحواض بالسطح من نصيب ست آريانا، وكذا القراميط النيلية الحية في البرميل الأحمر الكبير.

ـ وأخيرًا، خاتمي الفضي ذو فص العقيق الأحمر، وغليوني، تُسلَّم للحُرمة «عزيزة راتب الشبكشي» زوجة السيد «أنور جودة أبو شمعة» القاطنة ببيت رقم ١٦ بدرب الجماميز، وأرجو أن يكون ذلك في السر.

ـ أما جثماني، وبعد أن تتأكدوا من وفاتي بتركي ثماني ساعات تحت المراقبة، وقياس درجة حرارة شرجي، على أن تكون القراءة أقل من ٢٩ درجة سلزيوس، فصلوا عليَّ جماعة ـ مع استثناء بشماف ـ واستعينوا بالكفن المفرود على سريري المكوَّن من سبع طبقات، واغمروني بالمِسك والعنبر، ثم ادفنوني بقرافة «الإمام» على مسافة متر من سفح الجبل، تحت شجرة اللبلاب التي زرعتها منذ سنين بحوش «السيوفي»، حتى لا تتسلل مني الأفاعي السوداء إلى الأرض فتنتشر وترعى في أجساد الخلائق.

ـ اكتبوا على شاهد قبري اسمي وتاريخ وفاتي، والآية الثالثة والسبعين من سورة الحج، مع الالتزام بالتشكيل المدوّن وبخط كوفيّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾. والسلام ختام.

سليمان جابر السيوفي أفندي

لوكاندة بير الوطاويط

٢٥ أمشير سنة ١٨٦٥م الساعة ٩ أفرنكي صباحًا



يوميات/ نمرة ٣٥

منذ سبع ليالٍ، وإتمامًا لما اعتزمت عليه من إنهاء حياتي للتخلص من الحزن والكآبة، والأفاعي التي تفيض في أوردتي، أسكرت بعرق البلح عنتر، وأحكمت غلق غرفته بالأقفال بعد وداعه، ثم فرشت اللبلاب على صدري وصعدت فوق الكرسي وأحكمت الحبل الغليظ حول رقبتي ثم تلوتُ الشهادة، لكن الطرقات المزعجة ما لبثت أن انهالت على الباب: «افتح يا سليمان أفندي، أعلم أنك بالداخل». «بشماف»، صاحب اللوكاندة النمرود، يُطالب بالإيجار وقتَ انتحاري! راودتني نفسي أن أدفع الكرسي من تحت قدميّ فتُزهق روحي؛ لكن الكريه ألحّ في الخبط والنداء وتمادى فأخرج سلسلة مفاتيحه وشرع في فتح الباب حين تأخرت استجابتي. إن دخل، فلن يكون الموت قد تمكّن مني بعد، روحي ستتسلق الحبل الغليظ من بعد الشنق في دقيقتين ـ قياسًا لوزن جسدي ـ ومن الوارد أن يتعلق ذلك الجاموس الشركسي بساقيّ، فيثقل الوزن على رقبتي فتنفصل لينال شرف قتلي، أو يكون له الفضل في إنقاذي فيُجرسني أمام الزعانف والسوقة، وذلك أشنع وأضل سبيلًا.

دعمت الباب بقدمي، وألقيت إليه أني مُسدّد الإيجار خلال يومين لعله ينقشع، لكنه أخبرني بأن هناك زائرًا في انتظاري. واربت الباب ورمقت وجهه الباهت وكرشه العتيقة، رفع ابن الكلب شفته امتعاضًا كأنه ينظر لفأر، ثم أشار إلى نهاية الطرقة حيث وقف شبح يستند عصاه. لم يسعفني القنديل الهزيل في استكشاف الملامح، اقترب الزائر بخطوات لها وقع، وتيبُّس في مفصل ركبته أدركت منه أن الساق اليُسرى خشبية. رمى بشماف بنظرة أقنعته بالانصراف، ثم دخل بؤرة المصباح. عجوز وسيم تخطى منتصف الستين، افترشت التجاعيد وجهه كورقة شجر خريفية، جبهة عالية، شعر مُسترسل، عينان غائرتان، أنف صقر مدبب، وفم رفيع يتوسط لحية مهذبة بعناية فوقها شنب مغرور، استطعت تمييز أصول أرمينية في قسماته منذ الطلة الأولى، بدون دعوة تخطاني ودلف، صديري خيوطه من الفضة، حذاء من الجلد الطبيعي، ماسورة الغدارة مزخرفة بالذهب، والمقبض منحوت من حجر اليشم، تصنيع فابريقة فرانكو جابريل الإيطالي.

وضع زائري المونوكل الذهبي أمام عينه اليمنى وتجول، فحص تصويراتي على الجدران، برطماناتي الزجاجية، وتوقف للحظات أمام برطمان الجنين «معدوم الملامح»، وحائط لبلابي، حتى ظننته يفقه لغته والسر المخفي وراء فروعه، ثم داعب حبل الشنق الغليظ المتدلي من السقف بمقبض عصاه العجيب الذي سرق انتباهي، لاحظ فابتسم ثم اقترب، وضع يده على كتفي وتكلم بصوت خفيض: «منذ خمس سنوات خضت رحلة صيد جنوبية قرب السودان، كان يومًا صحوًا ومشمسًا، اصطدت خمس غزلان «دوركاس» وأنثى تمساح تحمل في بطنها البيض، وفي غفلة مني، باغتني ذكر تمساح تخطى الثماني أذرع، أعتقد أنه الأب، عَض ساقي في لمح البصر وبدأ في سحبي نحو المياه، انتزعت غدارتي وسط الصدمة، أطلقت عليه رصاصة لم تُثنِه، دار حول نفسه مرة، فبتر فخذي بلا عناء، صوت العظام وهي تتكسر فتنفصل لا يمكن نسيانه، ثم غاص في النهر».

قالها وصمت، فتدحرجت عيناي حتى ساقه، وتزاحمت الصور في مُخيلتي، مياه النيل بللت قدميّ وتناثرت الدماء على صدري ووجهي، أشعل الزائر غليونه بقداحة ذهبية ثم أردف:

«بعد دقيقة طفا التمساح نافقًا وقد أقنعته الرصاصة، أوقفوا نزيفي بعد عناء وتم كيّ الجرح بالنار، بالكاد

أفلتّ من ملك الموت. حين أفقت، كان التمساح مستلقيًا بجانبي، فارجًا ذراعيه وساقيه للسماء وقد سحبه عبيدي من النهر وشقوا بطنه، تأملت ساقي التي استُخرجت، مسلوخة بسبب عصارة معدته شديدة التركيز، فأمرت الطاهي وسط دهشة العبيد بوضعها في إناء ماء مغلي استكمالا لسلقها، اتخذ الأمر عشر ساعات حتى صارت عظامي بيضاء كالشمع وذاب نسيج اللحم، أرسلتها لصائغ خصوصي فغمسها في ماء الذهب، ورصع المِفصل بالأحجار الكريمة ثم حفر خاتمي عليها بخط همايوني، فأصبحت عصاتي التي أتوكأ عليها، لا يدعم انتصابك خير من عظامك. ألا يقولون ذلك؟».

تأملت العصا التي رفعها أمام وجهه فضحك ثم عقب: «لا تخف؛ فالتماسيح إن هاجمتك يومًا؛ فلن تأكل إلا رجليك فقط»، ثم أشار لحذائه الجلدي: «كما أن لحومها ليست أفضل ما فيها».

نظرت إلى فروع اللبلاب على الحائط خلف كتفه عليّ أتلقى إشارة منها، لكنها آثرت الصمت الحكيم، وربما روَّعتها القصة المثيرة فلم تجرؤ الفروع على التلوّي. يا مغيث! هل يأتي الخير من كهل مبتور الورك التهم لحم التمساح الذي قضم ساقه؟ هل يكون أحدَ رجال السلطان «عبد العزيز الأول» المأمورين برصدي واغتيالي؟ مد يده لجيبه فتحسست سكِّيني الصغير تحفزًا، لكنه أخرج منديلًا سَعل فيه شأن كل مَن يزور غرفتي، فرائحة عنتر مهيِّجة لأغشية الضيوف، كان ذلك حين علا الطنين من الغرفة المغلقة. ارتجت الأقفال وارتعدت النوافذ بأزيز غير هين، التفت الزائر مفزوعًا فطمأنته بأن الباب مُغلق، وأن كلبي بالداخل مَحموم يُزمجر. رمقني بارتياب، وكاد الفضول أن يستوقفه، لكنه ابتلع السؤال في اللحظة الأخيرة وعرَّف نفسه: «داغر بك رستم؛ كبير مستشاري أفندينا»، ولما لمس الشك في عينيّ أكد سؤالي بهزة رأس: «نعم أقصد الباشا الكبير»، ثم أشار للكاميرا: «سمعت أنك ترسم صور الموتى الجنائزية بتلك الآلة، وسمعت أيضًا أنك تتحدث معهم». أجبته بفخر أستحقه: «وهم متعاونون جدًّا حين أطلب الثبات لالتقاط الصور». ابتسم ثم نظر في ساعة الجيب: «اجلب مُعداتك، فعلينا أن نتحرك خلال دقائق»، تأملت نور القمر المتسرب من النافذة إلى أرض الغرفة، ثم أخبرته بأني لن أستطيع الخروج الآن، وكأن لم يسمعني أجاب: «مَن قال إن الأمر قابل للتفاوض؟ سأنتظرك في العربة».

تسمّرت مكاني حتى تلاشى وقع عصاته على الأرض، ثم ضربتني موجات القلق، واندفعت الأفاعي الصغيرة تحت فروة رأسي وخلف عينيّ، تثير الهرش والقلق، كبير مستشاري أفندينا شأنه شأن العامة ممن لا يُدركون الخطر وراء نور القمر وقت اكتماله، ومما يزيد الطين بلّة أن المسافة بينه وبين أُذن أفندينا معدومة، مثل المسافة بين الهدهد وأذن سليمان، سيجعل من رفضي التعاون أمرًا مباشرًا بنفيي إلى مناجم «فازوغلي» بجنوب السودان، أشغالًا شاقة حتى الموت، أو تغريقي في النيل مثلما يحدث مع خصوم القصر! هذا إن كان مبتور الورك هو كبير مستشاري أفندينا بالفعل، وليس جاسوس السلطان عبد العزيز الأول متنكرًا في هيئة رجال الحاشية، ولِمَ لا يكون ساكن القمر الهجين؟ تخفّى في جسد كهل عَجوز كي يدفعني للخروج من الغرفة فأتعرض لنور القمر الخبيث ويبدأ جِلدي في التساقط؟

ضربتني الظنون وطعنت الشكوك صدري، قبل أن تفلت مني ضحكة حين تذكرت أن الهجين؛ لا يُدخن الغليون.

يا لي من أحمق!

وضعت الكاميرا وألواح الكولوديون في الصناديق، وتحققت من حقيبتي، ثم دهنت وجهي بالمرهم

العازل وارتديت القفاز وعويناتي الداكنة، ثم خرجت إليه بعد استعادة الرسالة التي تحوي وصيتي من صندوق بريد ست آريانا قبل أن تقرأها، تجاهلت دهشته من استخدامي شمسية في ليلة غير ممطرة اتقاءً لنور القمر، وركبت عربته الفخمة. عيناي لم تتركا عصاته طوال الطريق، والأسئلة لم تكف عن الإلحاح: «هل قضم التمساح أيره مع الساق؟ وهل عثر العبيد على بقايا للأير في بطن التمساح فوضعه في برطمان فورمالين فوق مدفأته ليُريه للزائرين؟ أو ربما يُعلقه الآن في سلسلة برقبته تحت الصديري، ذكرى اليوم الحزين، مثلما فعل مع وركه البائسة، كيف الحياة بدون أير؟ هل يملك مبسمًا للتبول؟ هل هو من الذهب؟؟».

لم تتوقف الأسئلة حتى وصلنا إلى حي بركة «الفيل» حيث اتخذنا مركبًا، أقلّنا إلى سراية مهيبة تحمل رقم تسعة عشر، فوقها اسم «عزت باشا الدفتردار»، هكذا قالت اليافطة النحاسية، أو ما تبقى منها؛ فالسراية مُتفحمة بالكامل، كأن شهابًا أصابها، انهار نصف السقف، وتصدعت الأعمدة. دلفنا بحرص وسط رماد لم يبرد بعد، دخان خانق ورائحة شواء كانت لتبدو لذيذة لولا انقطاعي عن أكل اللحم منذ سنوات، قال داغر: «لم يكن بالسراية أحد سوى عزت باشا، فهو أعزب، وأفاد الخدم والطباخون أنه قبل الحريق بساعات صرفهم، ثم فوجئ سكان الحي بلظى النار، لم تفلح فرق الطلومبخانة والسقاة في إخماد الحريق إلا بعد ساعات». دلفنا إلى السراية عبر فتحة كانت يومًا بابًا، انتقيت موضع قدميّ بين شظايا زجاج نجفة عملاقة تحطمت وأخشاب مُدببة، عاينت البهو والصالون، ثم صعدنا إلى الطابق العلوي فوق لوح خشبي تأفف من ثِقلنا، ولولا أيدي العبيد ثبتته لسقطنا وسط الركام.

غرفة النوم كانت فخمة، بما تبقى منها استطعت تمييز رفوف مكتبة تبخرت أوراقها، بندول ساعة حائط، حُليّ نحاسية كانت على أيدي كراسي تحطمت، تمثال لرأس أسد فوق بقايا منضدة، وجثمان مُتفحم على سرير.

«لمَ استعنت بي؟».

سألت مبعوث أفندينا فأجابني من وراء منديل يقيه رائحة الشواء: «القواصة تُيوس كسالى، سيَنفُون وجود نية للقتل حتى لا يُطالبوا بالبحث عن القاتل، وعزت باشا كان من المقربين، أفندينا بنفسه طلبَ معرفة سبب الوفاة»، كان عليَّ تعميق الحفر في جبهته شِبرًا إضافيًّا لأستشف الحقيقة وراء اهتمام أفندينا، كان عليّ استفزازه: «لمَ تظن أن في الأمر سبقَ إصرار؟ فالأمر جليّ، الباشا سيئ الحظ، دخّن سيجارته الأخيرة في سريره، نعس فنام فاحترق مثل كل محترم يحترق»، كَز داغر ضروسه واقترب: «سليمان أفندي، نوم عزت باشا وهو على موعد مع أفندينا ضرْب من المستحيل، كما أنه رجل من المقربين، حامل للأسرار، إن احترق صدفة فسيكون ذلك هو الاستثناء». كان ذلك كافيًا.

أغلقت الشبابيك حتى لا يتسلل نور القمر فيفسد حواسي، ثم شرعت فيما خُلقت من أجله، نصبت الكاميرا على الحامل، وضعت العدسة، ثبّت لوح الكولوديون في ظهر الكاميرا وأحكمت غلق الباب الخلفي، ثم اندسست تحت القماشة السوداء، التقطت صورًا للغرفة بثلاث زوايا، قبل أن أرفع الحامل فوق السرير وأحرك الكاميرا عموديًّا فوق جثمان المشوي. انتهيت فأغمضت عينيَّ وتمتمت بالأدعية، ثم أخرجت عدستي المُكبرة، اقتربت من المتفحم وهمست في أذنه: «أيها النائم، قم من سُباتك، اجلس وأفض إليَّ بآخر أسرارك، اعتراف صادق أمام بطريرك الفاتيكان لتنال الغفران، هل تتذكر صيغة الندامة؟ أتفضل حشيشة مخلوطة بجوزة الطيب للتخلص من رعشة يديك؟ شامية أم يونانية؟ كوبًا من النبيذ؟ لا تستطيع التحدث

لأن الطقس حار خانق؟ لا بأس؛ فأنت تَجيد الاستماع، أنصت إذن ولا تقاطعني، وسآتيك بدهان زيت الصبار لتخفيف الحروق. منذ دخلت بيتك أيقنت بما لا يدع للالتباس مَجالًا أنك لم تمت إلا غدرًا وغيلة، الدوام لله وحده، تلك العجينة بجانب سريرك كانت يومًا إبريقًا زجاجيًّا، والزجاج لا ينصهر في درجة حرارة النار العادية، نارك تخطت الألف وخمسمائة سلزيوس، حرارة لا تتأجج إلا بتشجيع نفط انسكب عليك بكرم، حتى صارت غرفتك جحيمًا مستعرًا. الدائرة من حولك لا تحوي بقايا سيجارة تُبرر تدخينك قبل غفلتك، وغليونك الفاخر، يرقد فوق منفضة تبعد عنك أمتارًا! مَصدر النار غير مُبرر، وبؤرته الأشد تفحمًا، هي جسدك وسريرك، تبدو كجذع شجرة استُهلك للتدفئة في شتاءٍ روسيّ قاسٍ، ومع ذلك لم تتخذ أطرافك الوضعية المميزة للمُحترق، لم تتفحم أوتارك وعضلاتك ولم تتقوس الذراعانٌ والساقان كمُصارع مُتحفز لقتال، بل إن أطرافك اتجهت زواياها؛ نحو أعمدة السرير كالمصلوب! سيدي، لقد شُد وثاقك بحبل من الألياف تبخّر مع النار، صُب عليك النفط صبًّا، واحترقت حيًّا واعيًا تقاوم في يأس، تصرخ باسم قاتلك، بفم مفتوح عن آخره، ثم أصابك الاحتراق بصدمة، أقنعتك أن المقاومة لم تعد مُجدية، فتركت النار لتقشر جلدك وتشوي لحمك، غير مُصدق أن تلك هي نهاية حياة عامرة زاخرة بالآمال والمُنافسات الخرقاء بينك وبين أقرانك، حتى تشققت جُمجمتك من غليان الأفكار بداخلها وطفح المخ على مخدتك ولطخ الحائط. أرجوك، تماسك حتى نزور المشرحة فأتعرف عليك أكثر وأحكي لك ما أعرفه عن ساكن القمر الهجين، وقد أنجح في حشوك باللبلاب حتى تصعد روحك مع فروعه من الأرض، فترسم بالأغصان اسم قاتلك على حائط».

أنهيت حديثي مع المتفحم واستأذنت ذا الورك المبتورة في نقل الجثمان إلى مشرحة قصر العيني لاستكمال الفحص، فوافق دون كلمة واستدعى العبيد.

يوميات / نمرة ٣٦

مشرحة قصر العيني

استقبلنا شكيب عبد الصمد، بسحنته العابسة وسِمنته المفرطة. نصيحة لوجه الله، ممارسة الجنس مع الموتى لعنة على مَن يفعلونها، حتى وإن أنكروا ذلك، ما إن رأى داغر والعربة التي أتينا فيها حتى فغر فاه بأسنان صفراء، المسافات بينها بالذراع، ذات بخَر ينافس جثث الموتى: «المشرحة نوّرت». قالها ثم جعل يُرغي ويُزبد وينثر أسماء جثامين المشاهير الذي تولى العناية بها ـ يقصد تقطيعها ـ ثم ختم بالثناء على بركة تشريف المشرحة بزيارة داغر، حقًّا، كل كلب على مزبلته نبَّاح. انتهى شكيب ثم ركض أمامنا بخفّة عرسة خالية من العظام، فتح باب المشرحة حيث سبقنا جثمان عزت باشا المشوي واستلقى فوق الحوض الرخامي، تنحى داغر جانبًا بعد أن اشتمّ النشوق، ووضع منديلًا على أنفه، أخذ يتأمل النقالات، فوقها الملاءات البيضاء المنحوتة على هيئة الجثث تحتها، فيما فتحت حقيبتي الجلدية وأخرجت الماسك، القفاز، المنشار، المبضع والأكياس.

من العجب أن النار كما تحرق الأجساد، فهي تحفظ أعضاءها الداخلية، استأذنت المتفحم همسًا ثم شرعت في فحص الرأس المتصدع بمساعدة شكيب، سلخنا الجلد ثم نشرنا الجمجمة في دائرة، من الداخل، كان الرأس خاليًا من السوائل، دسّ شكيب أصابعه ففشخ الفم المتصلب، وكان فارغًا من الضروس، والأسنان منتزعة من جذورها، وبعضها تكسّر لكنه ترك شظايا، وما حسبناه لسانًا اتضح بعد استخراجه أنه بقايا أير الباشا! ألقيت نظرة بين ساقيه فتأكدت من وجود حفرة فهمست في أذنه على استحياء: «خارج من الحريقة قابله الغراب زغطه، من الواضح أن قاتلك يحمل لك ضغينة، اسحب نفسًا عميقًا ثم كُح»، وتناولت المشرط فشققت الحلق، سَعل بصوت مجروح، ثم تقيأ عُملة ذهبية من فئة العشرة قروش، مَحفور عليها تاريخ سك «١٢٢٣هـ»، محشورة في الحلق، لم يسعفه الوقت أن يبتلعها، وضعتها في طبق واستكملت طريقي بالمشرط، أفرغت المعدة بيدَي شكيب، ثم فحصتها بأصابعه الغليظة التي لا تعرف الامتعاض كحُرمة تنتقي السوس من بين حبّات الأرز، وجدت بقايا عنب وتين غير مهضوم، بالإضافة إلى الضروس والأسنان المهشمة.

انتهيت فأوليت شكيب خياطة جوانب الجثة، ثم اقتربت من مبتور الورك: «بلّغ أفندينا السلام من العبد الفقير إلى الله، ثم أخبره أن تلك قتلة متعمدة مع الإصرار والترصد، دافع الانتقام والتنكيل فيها جليٌّ لا شك فيه، يحمل رائحة الحريم، فالأير مبتور قبل الحرق، ابتلعه الباشا عنوة وهو حيّ، بعد تكسير ضروسه والأسنان بكماشة غليظة، كما عثرت في حلقه على عُملة من فئة العشرة قروش، القاتل لم يهتم بإخفاء معالم زيارته، بل أراد أن يُنكل بالضحية ويصنع منها عِبرة ليَشفي غليلًا ما، وليس القتل بدافع السرقة، وإلا لاكتفى بخنق ثم حرق، وما كان ذلك ليَخفى عليّ أيضًا، في القصة زوج مخدوع وضلوع للحريم، غيرة، حسد، خيانة وانتقام، ألم يقل نابليون بونابرته: «ابحث عن الحُرمة»؟

«عزت باشا كان يهوى الغِلمان».

قالها «داغر» ثم تنحّى بي جانبًا وهمس: «لم يبالغوا حين قالوا إنك تفقه لغة الموتى، كيف تعلمت تلك الحِيل؟»، أخبرته بأن أبي كان باشتومرجي المشرحة منذ تأسست، وذلك الأبله ـ وأشرت إلى شكيب ـ كان

عبده ومعاونه، اشتراه بجنيه وثلاثة ريالات من جلاب أعور. شكيب لا يذكر البلدة التي وُلد فيها، ولا يعلم لأبيه اسمًا، فقط هو شكيب، وأضفنا إليه «عبد الصمد» حتى نسب أبيه حين نحب، مخلوق نادر من فصيلة «الشكيبيات» التي لا تملك عضو الاشمئزاز، مثله مثل دودة المِش، لا تستمتع إلا بالانغماس في الحموضة والملوحة، وإن انغمست في العسل، تنفق. ربّاه أبي وعلّمه التشريح فأحبه وأتقنه، وتفنن في تخييط الجثث والتغسيل، ولم يخرج من المشرحة منذ دخلها. أما العبد لله، فقد قضيت في تلك المشرحة طفولتي وصِباي، ألهو بين جثث الموتى كأنهم أقربائي، لم ينهروني يومًا، ولم أهبهم، بل وقرأت عن مصائرهم بعد الممات في كتابَي «القول الصريح في علم التشريح» للعلامة «الدمنهوري»، و«فتح الرحمن في بدء خلق الإنسان» للشيخ «علي الخياط»، حتى سمعت أحدهم يهمس بكلمات غير مسموعة، عجوز مُغطى بملاءة فوق نقالة، وكنت وحيدًا لم أبلغ الثالثة عشرة بعد، لم أصدق أذنيّ في البداية، راقبته لساعات فلم يتحرك أو يهمس، ثم اقتربت، فأوحى إليَّ بسبب موته الذي أغفله أبي وقت الفحص، خطوط بيضاء تصعب ملاحظتها تعلو أظافره، تلك علامات «مسحوق الميراث»، الزرنيخ، فهو عجوز وحيد، وأراد ابن أخته استعجالَ موته ليرث. ركضت إلى أبي، أخبرته بما علمت ولم أجرؤ على سرد سبب معرفتي حتى لا يظنني مناخوليا، فأبلغ القواصة بشُبهة القتل، وتم القبض على الجاني وحضرت شنقه، وأثنى عليَّ أبي يومها فأهداني عدسته المُكبرة، وهي العدسة التي رأيت بها نفس العلامات البيضاء تحت أظافره، بعد ثلاث سنوات، حين سقط أبي بعد قيء شديد حَسبوه شوطة الكوليرا التي ضربت البلاد سنة ١٨٣٤، لم يصدقني أحد حين صرخت بأن أبي قُتل ولم يمت بالمرض، فنصف جثث الموتى كانت تُعاني الكوليرا، وأعراض تسمُّم الزرنيخ، مُشابهة للكوليرا، هكذا ذهب السر معه إلى القبر. أما الكاميرا، فقد ورثتها عن جاري الأرمني «هاجوب»، مُحترف تصوير الموتى، طلب مني معاونته في حمل مُعداته نظير قروش، وحين وهن ودبّ فيه العجز، علّمني كيمياء الكولوديون وتركيب الكاميرا، وكان أول جثة ألتقط لها صورة جنائزية بعد موته.

استمع داغر لقصتي دون مقاطعة ثم همس بعد تفكير: «قالوا إن في عقلك مسًّا شيطانيًّا، ويبدو أن ذلك صحيح، لذا سأعتمد عليك في إبلاغ شيطانك رسالة مني؟ إن طالت أخبار مقتل عزت باشا أنف الجورنالجية أو الفضوليين في أي من أنحاء المحروسة، فسأنفيك إلى مناجم فازوغلي، لتُطمس عيناك، ويُجدع أنفك، وتعمل في سُخرة لن تنتهي إلا بموتك».

قالها ثم دسَّ في يدي جنيهًا نابليونيًّا، عربون تقصٍّ وتحرٍّ، على أن آتيه بالصور الفوتوغرافية، وأدوِّن انطباعي عن القتيل بخط مقروء، وسيكون أجري كيسًا كاملًا إذا عثرت على القاتل.

ابتلعت وعيده ولم أعقب، فالأرعن المغرور الأهوج، يجهل مع من يتحدث، سليمان جابر مختار ناجي سراج مهران عيَّاد ذكي نصر أبو صبيحة السيوفي، الشهير بسليمان جابر مختار ناجي سراج مهران عيَّاد ذكي نصر أبو صبيحة السيوفي، السيد المهاب، عالم الدهر، ومُصلي الظهر، وتارك العصر الجاهلي بصلاة العصر، البطل الذي تلقى يومًا وعيد سلطان العثمانيين، وتهديد هجين من القمر دون أن تنتفض في جسده شعرة! الآن يريدني أن أخافه؟ كان غيرك أشطر، ففي معظم الليالي أبات أفلس من يهودي نهارَ سبت، ولا أتقاضى عن استنطاق الموتى وتسليتهم بسرد دوافع قاتليهم أجرًا أو بقشيشًا، أكتفي بهدايا ونفحات أهالي الضحايا المكلومين، زبدة وخضراوات وسمك وعيش، لكني، عِندًا فيك، سأشتري بنابليونك عوينات شمسية مُزوّدة بالزجاج الأزرق الأفرنكي موضة باريز، زيت بريمو للمصابيح، أقماع سُكَّر، عدسة جديدة للمنظار

الفلكي، رطلان زبدة وزجاجة عرق بلح من خمّارة «طانيوس»، وهدية من أجل عزيزة العزيزة، سلوان الوحدة والهم والحزن، وسأدخر ما تبقى حتى أشتري من الوكالة جارية شركسية أتخذها نواة لحرملك مُكتظ بالحور العين.

يوميات / نمرة ٣٧

اليوم الأول لاستئناف تناول عُشبة يوحنا.

حين اطلع الحكيمباشي «ساسون» على يومياتي خلال زيارته، ضحك كثيرًا، ثم أثنى على صراحتي، وخطّي المُنمق في اليوميات، وإن كان الإحباط قد أصابه بسبب عُزوفي عن عشبة يوحنا التي يُرجع رغبتي في الموت دائمًا إلى عدم التزامي بتناولها، فهو يدّعي أنها تحافظ على عقلي من الانزلاق في الكآبة السوداء، وتحسّن مزاجي، حتى وإن كررت على مسامعه كم تشعرني بالانهزام والكسل، كيف تصيبني بطفح جلديّ وتورّم في اللسان واللثة، وكم تجعلني غبيًّا بليدًا كتَيس عقيم، لا أستطيع التحدث مع الموتى أو أفقه لُغتهم، والأدهى من كل ذلك، كم تخذلني أمام عزيزة حين نختلي، أصير أنثى مثلها، أخت كريمة، عاجزة حتى عن مداعبتها. يسكت الحكيم ولا يعلّق، يتركني في العادة لأجتر حالتي، حين أمتنع عن تناول العشبة، كأني أتمشى في وادٍ من البارود السلطاني الأسود، ثم تراودني رغبة مَحمومة، مدفوعة بحنجرة ألف شيطان كافر يصرخ في أذني حتى تنشق حنجرته: «سليمان يا سيوفي... لمَ لا تُشعل عود ثقاب؟»، فأستجيب دون تفكير.

ربتَ الحكيمباشي على كتفي ثم أخرج من حقيبته براعم النبتة، سحقها في إناء ثم غلاها حتى انساب السائل الأرجواني الكريه، تجرّعته على مضض فأحاط وجهي بكفيه وقال بعينين ملؤهما الشفقة: «إن قاطعت عُشبة يوحنا يا سليمان أو استبدلتها بالحشيشة، فستهاجمك الأفكار السوداء والخيالات، وربما تُصاب بنوبة فزع، فتلقي بنفسك إلى التهلكة، هل نسيت حين اختبأت بداخل شجرة أم الشعور العتيقة لثلاثة أيام كاملة بلا طعام؟ أم نسيت يوم ألقيت بجسدك أمام عربة السلطان عبد العزيز خلال زيارته للقاهرة منذ سنتين؟ ولولا عناية الإله لدهستك حدوات الخيل أو أطلق عليك القواصة بنادقهم؟ ألا تريد لمَن حولك أن يصدقوك؟».

لم أملك ردًّا غير الصمت، فمعرفتي بغباء البشر وقصورهم العقلي عن استيعاب العلم الذي أتاني، هو رد لا يرضيه، فابتسمت، وهززت رأسي مؤمنًا على كلامه، فزفر مطمئنًّا ثم أردف: «احرص على كتابة يومياتك في تلك المُفكرة، كي أراك وأسمعك، اكتب عن كل شيء وكل نفس تقابلها، اكتب حتى عني وقل ما تشاء، بلا حرج، ولا تتوقف يومًا عن تناول عُشبة يوحنا، مهما حدث يا سليمان».

تجرعت السائل الأرجواني، ليس من أجل موتي أو حياتي، وليس من أجل عيون عزيزة، بل من أجل ألا يشمت بي السلطان عبد العزيز الأول ويحفل لموتي بين جواريه الفاتنات.

أُدين بالكثير للحكيمباشي ساسون، رجل طيب خلوق، لا يترك صلاة في المعبد، تعرفنا منذ ثلاث سنوات، يوم طلب مني صورة لابنته المُتوفاة ذات السبعة أعوام، زُرت بيته المتواضع، خُضت في الوجوه الحزينة حتى دلفت إلى غرفة صغيرته، ولم يمضِ على وفاتها ساعات، أراد أن يُخلد ذكراها بصورة فوتوغراف، تقليدًا للأوروباوية في توثيق موتاهم، قرار لا يجرؤ على اتخاذه المصراوية الذين يستعجلون دفن موتاهم إكرامًا للدود. ألبسنا الصغيرة فستانًا أبيض مزركشًا، صلبت ظهرها ورقبتها بخشبة ملفوفة بالقطن، وفتحت جفنيها بالصمغ دون أن يسقط لها رمش كما علمني الأرمني «هاجوب»، نصبت الكاميرا والتقطت الصور، ثم هَمست في أذنه بأن فقيدته سعيدة براحةٍ من بعد ألم؛ فقد كانت تعاني داء الكبد، سألني باستغراب كيف علمت، فأشرتِ إلى جبهتها الداكنة، ونوّهت بأنها ربما تركت رسالة من أجله في بيت الدمية الملون،

وناولته مفتاحًا خشبيًّا. هرع المسكين للبيت الصغير، يدفعه الشك ويغمره الأمل، في التواصل معها، فتح الباب الصغير فوجد رسالة بخطها: «سأنام في سرير الدمية من اليوم، جسدي لم يعد يؤلمني، أرجو أن توافق يا أبي»، بكى الرجل بحُرقة، احتضن جثمان صغيرته ثم سألني: كيف علمت؟ في العادة لا أبوح بأسرار عملي، أختلق قصصًا تُمجد سيرتي وتؤكد الكرامات التي وهبني الله إياها، لكني أشرت إلى أنامل صغيرته، وتحديدًا إلى الحبر الناضح حول الأظافر، ثم أخبرته بأني وجدت مفتاح بيت الدمى تحت ذراعها، وكرّاسها الصغير، منزوعة منه الورقة الأولى، بعدما تركت أثر حفر لرسالتها على الورقة التي تليها.

بعد أيام زُرته، أحمل في يدي صورة فقيدته الصغيرة، تجلس في وداعة بجانب صندوق الدمية الذي أصر أن يظهر في الصورة، أعجبته تفاصيل الوجه والإضاءة، فأجزل العطاء، ونفحني أجرًا إضافيًّا لقاء عثوري على الرسالة، أخبرني أنه حكيمباشي اسبتالية قلاوون، وارتاح قلبي للحديث معه، ثم دعاني للغداء.

على المائدة أسررت له همسًا بشأن تاريخ سَاكن القمر، الهَجين الزاحف، وكيف كان يَسكن الكوكب الدائر بين المريخ والمشتري، وكيف تحطم ذلك الكوكب حين تحرك من مداره في خلاف عائلي وغضبة تنم عن سوء الأدب، ثم حكيت له بالتفصيل كيف نجا الهجين بالقفز على متن مُذنّب متجمد، وكيف سكن القمر، من بعد فناء بني جنسه، وكيف أتى إلى الأرض ليرتدي أجساد الخلائق، قمصانًا من لحم، وكيف يأكل الذهب الذي يستخرجونه من قبور الفراعين وينشر الأمراض الفتاكة التي كانت سائدة في كوكبه، مثل الطاعون البقري والكوليرا.

سكت ساسون ولم يعقّب، مخالفًا كل مَن أفضيت لهم بسِر الهجين، لحظات طالت، لم أقرأ في وجهه سخرية أو استهتارًا، فقط ابتسم مطمئنًّا، تركني لدقائق ثم عاد، وضع في كفّي كيسًا يحوي أوراق عشبة يوحنا، مُدعيًا أنها ستساعدني على التركيز: «ستشحذ عقلك وتقتل الأفاعي السوداء في دمك»، ومنذ ذلك اليوم لم يتخلف عن زيارتي كلما سنحت له الفرصة، ولا يرحل قبل أن يقرأ ما كتبت في يومياتي، دون أن يصادرها، ويتأكد من توغُّل مفعول العشبة في أوردتي، تتوارى من تأثيرها الأفاعي السوداء خلف أعضائي، وتصيب فروع اللبلاب بالشلل على الحائط، أنظر للسماء في المنظار فلا أرى لخطوات الهجين على القمر أثرًا، الكنبة المخملية تبتلعني، تمضغني، أصير ذبابة، أغرق في إناء عسل، نبضات القلب تتباطأ، أستغني عن التنفس، أترفع عن الجوع، عن الشبع، عن الاهتمام بأبعد من رموش عينيَّ، سفينة تغوص لتلمس القعر، الأفكار تتلاشى، تتبدد كالسحب أمام العاصفة، وإن راودتني عزيزة؛ بجسدها البضّ الوردي المُدملك تتغنّج وتتلوى. أمتعض، أتمنع، أزهد، الرغبة فيها تتطاير كالكحول الرخيص، وحين أذكرها مُستلقية على السطح عارية بين أحواض الخضراوات المُلونة وقت الغروب، وملح البحر يسيل بين السُّرة والنهدين من بعد وطء طويل، لا يتحرك في جسدي عضو، كرئيس خصيان القصور، أرقب خصيتيّ المربوطتين بشعر الخيل، تضمران وتسقطان على الأرض بين قدميّ، برضا، ويأس لذيذ ممتع قانع مُستكين مُستسلم، الذبابة تأبى الخروج من العسل، تتمرغ وتنغمس، تثمل وتضحك، وتغمز للنجوم بثلاثة آلاف عين، لا يُكدر المشهد المهيب سوى بومة اقتربت من النافذة، رمقتني بعينين مضيئتين، ثم نعقت بسبَّة، قالت: «مناخوليا»، نعم، بنت الرفضي قالت «مناخوليا». لم ينتبني الشك للحظة أن تلك البومة تعرف نواعم مكرم؛ أمي. نعم، تلك كانت سُبتها المفضلة، لقد حذّرني الحكيمباشي ساسون من الإنصات للبوم خاصة دون بقية الطيور، وحذّرني من تذكُّر اسم أمي، وقد وعدته ألا أخوض في حديث عنها، لكني وعدته أيضًا أن أكتب ما يجول بخاطري مهما بدا تافهًا، فكلما طردتها من

رأسي ازداد صوتها حِدّة مع خنف شيطاني: «أنت عار». لسانها المَدبب يخترق طبلة أذني، يلعقها: «يا خول» ـ لا مؤاخذة لا حياء في العلم ـ وتنادي بها في مقطعين بنغمة متميزة يسهل لأطفال الحي من أقراني حفظها: «يا خااا ـ واااال»، البومة أمام النافذة تقلد نبرتها ونظراتها: «مخبول، موبوء، راكبك شيطان يا بعيد، يا ريتني دفنتك بالحيا يوم ما اتولدت». أمي كانت لتتمنى إنجاب علبة سردين على أن تُنجبني، ولم تتوقف في ذلك اليوم عن تأكيد ذلك، كانت زيارتها الأولى لغرفتي باللوكاندة، بعد سنين انقطاع، أخذت تزوم وتلوم وتجتر ذكرياتنا الأليمة وتتهكم، على هيئتي، سحنتي، ملامحي التي تشبه أبي، على أثاث الغرفة، وحتى الهواء، لم يَسْلم من لسانها السليط، كلب مسعور ينبح في وجهك دون توقف، حتى مرَّت سكّيني بسلاسة عبر رقبتها، دون استئذان، جحظت عيناها في ذهول، فتحت فمها عن آخره بصرخة لم تكتمل، تقهقرت خطوتين قابضة بأصابعها على نحر تمزق وتخرَّق، تعثرت في طرف السجادة فسقطت على ظهرها مُحدثة دويًّا أجبر جاري على الاطمئنان عليّ، واندفعت الدماء كنافورة عثمانلية تضخ الدماء بإيقاع نبضها المتلاحق، دماء داكنة لزجة، تتناثر على الوجه والصدر بخوار يائس، الهواء يختلط بالدم، يَصنع فقاعات وردية صغيرة. جثوت بجانبها وقد تملّكني الهلع، حدجتني بغضب يصارع الاستعطاف، رجوتها أن تغفر، أن تنسى إساءتي، أن تبتسم، أن تشدو بأغنية أو تطبخ لي شوربة خضار، قبضت على رسغي بشدة حتى انغرست أظافرها في اللحم، فاحت كالحية بكلمات مبهمة، فغرست السكين في محجر عينها اليسرى، وأدرته مرتين، حتى سمعت طقطقة، انتفضت ست الحبايب، تشنجت أطرافها، ثم خمدت حركتها إلا من رعشة في ساقها خفتت رويدًا رويدًا قبل أن تسكن.

يا ما قالت لها جارتنا أُم رمضان الشهيرة بفوقية السكرانة: «كُتر النخس يعلم الحمير الرفس يا أم سليمان».

عزيزي قابيل،

تحية طيبة وبعد...

فضلًا وليس أمرًا، أنصحك بقتل أمك حواء بدلًا من أخيك الطيب هابيل، فهي مَن دسَّت سم «الزرنيخ» لأبيك على مدار شهرين؛ حتى ظهرت الخطوط البيضاء في أظافره، ليخلو لها الجو مع «شفيق وزة» مُدرب الأفاعي وصاحب سيرك «وزة» المتنقل ـ الذي لم يعد متنقلًا ـ منذ انتصبت خيامه على ناصية حارتنا زمن الطفولة السعيدة.

ملاحظة: قبولك «أقماع السكر والعسلية والبطاطا المشوية» نظير ذهابك لشراء رطلَي برتقال في شهر يوليو؛ لا يغني عن الرجوع إلى البيت في وقت مبكر مُباغت، وفتح باب غرفة نوم أمك بلا استئذان.

المخلص إلى الأبد
سليمان جابر السيوفي أفندي
نمرة ١٠ ـ لوكاندة بير الوطاويط

النيل لم يكن مطروحًا كموضع دفن يليق بجسد أمي، فبالإضافة لبُعد المسافة، واستحالة نقلها فوق حمار في تلك الساعة، فالقواصة يحاصرون الضفاف ليوقعوا الغرامات على الفلاحين الذين يُلقون ببهائمهم النافقة من أثر الطاعون البقري في النهر، ويناوشون المارّة ويفتشون العربات بحثًا عن مُصاب بالكوليرا

يختبئ ليعزلوه، كما أن الزفت بشماف، إلهي ينشل، لا يكاد يغادر دكته بمدخل اللوكاندة. أصابني الصداع النصفي، وتلاحقت أنفاسي، ورأيت الإعدام دانيًا لا مفر منه، كان ذلك حين حدثت المعجزة، تحركت فروع اللبلاب على الحائط، أفاع خضراء استيقظت للتو من نوم عميق، أول اتصال بين البشر والنبات، تشكّلت بثلاث كلمات: «سليمان.. دعها لي»، وتلاشى الصداع بغتة، ارتاحت نفسي وانجلت بصيرتي، ورأيت الألوان زاهية والسماء صافية، والطيور تطير وفي بطونها رز معمَّر، واشتممت في الهواء رائحة الأمل، أدركت ساعتها أن الله يعيش بين ضلوعي، أقرب إليَّ من حبل الوريد، فخررت على الأرض ساجدًا باكيًا ضارعًا من الخشية، لقد اختارني واصطفاني من بين مخلوقاته واختصَّني بالتواصل مع جنس النبات عن طريق اللبلاب، لا يعيبني إلا تكرار اسمي مع نبي زميل، سُليمان بن داود عليه السلام، ورغم الفخر، سيكون عليَّ أن أميز اسمي بكُنية أو لقب أو شَرطة، وألا أحترف تسخير الجان، لا أحب أن أبدو مقلدًا، كما أن سليمان دعا المولى أن يهب له ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، فلا تجوز المنافسة.

لا أعلم كم من الوقت مر قبل أن أستفيق من نشوتي، مسحت دموعي وغمرت جثمان أمي بالملح، ثم سكبت عليه خليطًا من كيماويات الفوتوغراف الحافظة، ضممت سجادة جلد الجاموس المفرودة تحتها، وأحكمت الرَّبط على كرشها بحبل غليظ، صليت عليها بعد رش المِسك فوقها، ثم جررتها بصعوبة وأقمتها واقفة في زاوية الركن الأيسر للحائط، التقطت لها صورة أخيرة رفضت فيها أن تبتسم، ثم رفعت أمامها جدارًا بطوب كنت أخزنه لبناء مصطبة للمنظار الفلكي بالسطح، باستثناء موضع طوبة تركته خاليًا، أمام عينيها مباشرة، كي أتطَّلع عليها وقتما أشاء، أخفيته وراء صورة لجارية سوداء، التقطتها بناء على طلب من سيدها منذ سنوات، وما لبث اللبلاب أن تسلق الحائط في سرعة وزيّنه من أجلي. منذ ذلك اليوم أنام عند الركن الأيسر من الحائط، حيث الجنة تحت أقدام الأمهات.

يوميات / نمرة ٣٨

صدق المثل الشعبي الذي قال: «الدراهم مراهم».

بجنيهات مبتور الورك اشتريت عوينات شمسية ألافرانكا ذات زجاج أزرق، أبدو فيها كأمراء النمسا المُرفّهين، كذلك عثرت على عدسة للمنظار الفلكي بسعر جيد في سوق المستعمل، واشتريت لعزيزة خلخالًا فضيًّا مشغولًا، أحواضًا جديدة للبلاب، مرهمًا واقيًا من نور القمر، زجاجة كولوديون للفوتوغراف، قمع سُكر، وترباسًا للباب حتى لا يباغتني زائر إذا عاودتني الكآبة وتكاثرت الأفاعي تحت جلدي ونويت كسر رقبتي.

وحين عُدت إلى اللوكاندة كانت بانتظاري رسالة مغلقة بختم أحمر يحمل اسم داغر بك رستم: «احضر حالًا إلى دار عصمت باشا حسن» وعنوان. جريمة أخرى؟ باشا آخر؟ مبتور الورك يترك عمله في القصر ليتولى أمر الجريمة في المحروسة! عزَّت باشا «المشوي» كان مدير خزانة الوالي، لديه من الأسرار ما يتمنى كل ملك أوروبي أن يشاركه، والآن عِصمت باشا، رئيس طائفة التجار، وأحد أغنى أغنياء المحروسة، هناك مَن يتربص برجالات مولانا السمان، أو أن السلطان الخبيث عبد العزيز ينصب لي المكيدة، ويُلقي بالطعم وراء الطعم حتى يستميلني ليختطفني ويُطعمني لكلاب الأستانة على مرأى من الجواري الشركسيات؟ اللعين لن يتغاضى عن تهديدي لمنصب الخلافة، ولن يسامح فيما فعلت يوم زيارته للمحروسة ووسط الهتاف المنافق للجند الأتـراك «بادشا همز چوق يشا» حين تعثرت وأنا ألقي بجرة ماء آسِن أمام عربته المزخرفة، وسقطت أمام الخيول، وربما اشتعل غضبًا لأن إحدى جواريه تفوّهت في أذنه باسمي وهُما في خلوة. لن أجيب دعوة مبعوث أفندينا حتى وإن نثر الذهب تحت قدميّ، ذلك فخ لا يقع فيه الصبيان، لست غشيمًا أو قليل المفهومية، ولا يُلدغ المرء من جُحر مرتين. هكذا أكدت فروع اللبلاب على الحائط. وما كان مني إلا أن مزقت الرسالة، أغلقت النوافذ، وحشرت خلف الباب كُرسيًّا حتى لا يباغتني مبتور الورك. واقتطفت ورقات فرع نضر من اللبلاب فغليتها مع مزيج القرفة والزنجبيل، تجرعتها حتى يبطؤ زحف الأفاعي تحت جلدي وتخمد الأفكار، ثم أعددت طعام عنتر وفككت السبعة أقفال التي تعزلني عنه بعد وضع الكمامة المنقوعة في الزيت على أنفي، ودخلت في حضرته.

وراء الباب، وحين اشتمّ رائحتي رفرف بجناحيه في الهواء، تحيته المعتادة، لولا ثقل جسمه والجنزير الحديدي المحيط بساقه لكاد يرتفع، وضعت الإناء برفق بين رجليه الأماميتين، وربتُّ على ظهره الأزرق ثم رفعت الغطاء الجلدي الذي يغطي عينيه لتهدئته، تأملني، فحص كل شبر في جسدي، ثم مدَّ خرطومه مستنشقًا مستشعرًا قبل أن يدسه في الطعام بنهم، شفط بقايا السردين والفواكه الحامضة وأرجل الفراخ، بنهم مسموع، والتفت وراءه جامعًا فضلاته في جردل، فعنتر يَخْرَأ مثل البغال. دلكت رقبته وسرّحت شعره بمشط خصوصي حتى فاحت منه أمارات الامتلاء وأصابه الشبع بثقل، مسح رأسه وطقطق خرطومه ثم اضطجع فأوحى إليَّ بكلمات: «لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد، بل خافوا مَن يقدر أن يهلك الجسد والروح معًا في جهنم. القتل سيتكرر، ووراءه أقدم زاحف هجين، بل أكثرهم غِلًّا، فهو من جنوب القمر»، وارتشف جرعة ماء ثم أردف: «اسم سليمان بات مقرونًا بمصير الموتى الذين ينادونه».

بتُّ أفقه وحي عنتر من طول عِشرتنا؛ فقد نبأني بكثير من الأحداث التي شهدت على صِدقه وجلاء

بصيرته، مثل ولادة الحرمة نوال زوجة خفاجة المكوجي لرضيع برأسين، وتاريخ وفاة أفندينا الأسبق محمد سعيد باشا الذي حدّده بدقة قبل وفاته بأسبوع. سردت لمسامع عنتر ما حدث من أمر عزت باشا المحروق، ثم سألته الرأي والمشورة فأجاب: «طريق محفوف بالمخاطر ولا بد أن تكمله». ثم تململ وحكّ ذراعيه واقترح أن أعاونه في الصعود إلى السطح ليفرد جناحيه، لعله يطير، المسكين لا يُدرك أن أجنحته لن تحمله، كما أن عشيرته الآن في حالة بيات شتوي، لا يتحملون البرد تحت عشر درجات سلزيوس، خطوة واحدة بعيدًا عن غرفته التي خصصتها له منذ عام ونيف وسيتهاوى من علٍ كبيانو مسيو «روچيه» الذي انقطعت حِباله وقت عزاله، فتهشم فوق رأس عطوة اللبان، ذلك إن لم يتلقَّ طلَقات بنادق القواصة الهمج، أو يطارده الجهَّال من الأهالي حتى يهلكوه، وقد يتحول جسد المسكين إلى مزار للعامة يُتمتمون حوله بآيات الإعجاز والعجب.

طلبت منه التمهل حتى فصل الصيف فاستجاب على مَضض، سكنت حركته وكف عن الطنين والطقطقة، لوى خرطومه وبرك مثل ناقة عجوز، فأغلقت عليه بابه ثم نزلت إلى الشارع من بعد صلاة المغرب، شاركت الناس فرحتهم بآخر ليلة في رمضان، أطوف وسط الجموع الساهرة حول مسجد السلطان حسن، شامتًا في قمر انسلخ إلى هلال هزيل، مُرددًا وراء المنشدين أغنية: «رمضان مات.. رمضان مات»، قبل أن أنعطف إلى دكان المزين، شذّبت لِحيتي ودهنتها بالزيت، ثم اتجهت إلى قهوة الشرقاوي، دخّنت النارجيلة، ووزنت رأسي بقرعتين بوظة، استمعت إلى راوٍ يقص على أنغام الربابة سيرة «عنترة العبسي وعبلة» مضيفًا تفاصيل غرامهما عند البئر، ثم تابعت الحاوي، يلاعب ثعبانًا يتلوى، فتذكرت عزيزة وعنق عزيزة، وخصر عزيزة، ومنّيت نفسي بلقاء دافئ مُقدر بعد ليلتين، ولتسامحني أيها الحكيمباشي ساسون؛ فقد توقفت عن تناول عُشبة يوحنا حتى لا يرتخي طرفي العزيز أمام العزيزة وخلخالها الفضي.

منذ أيام؛ حين عُدت من القهوة بعد الفجر، افترشت كنبتي، البوظة لها تأثير سحري حين تغوص مغرفتها في قعر الإناء لتأتي بالخميرة السفلية، ورغم الانتشاء، ورغم النعاس البادي في الأفق كالسراب، داهمتني الأفكار دون إنذار، مَن شهد هجمة الجراد الليبي الأخيرة على الدلتا سيفهم مقصدي، ازدحم رأسي بسرب نهم مُهاجر، مئات الألوف من الحشرات تُصدر صريرًا مريرًا يتصاعد ولا يتهاون، الأرجل الخلفية والأجنحة تحتكّ بأذني، والفكوك المسنونة تقرض الأثاث وتمضغ الستائر وتنهش فروع اللبلاب، عنتر يُصاب بالهياج حين تتزاحم الأفكار في رأسي وتتدافع، لا يقدر على كسر جنزيره لإنقاذي، فدادين من الهواجس تشتعل، هكتارات من الخواطر تتطاير وتتناثر في سماء الغرفة، حروب أهلية بين ضفتَي عقلي، وظنون سوداء تُراودني، تتهمني بقتل هابيل وإلصاق التهمة بقابيل، تدّعي أني دسست السم للإسكندر في طبق الملوخية الأخير، وترميني بحرق مكتبة الإسكندرية بعقب سيجارة، فيضان النيل يعلو ويهدر، تبلغ موجاته نافذتي، المياه تتدفق إلى أرض الغرفة، نهر يبحث عن مجرى جديد، تجرف في طريقها جِيَف أبقار وحمير، وتماسيح تتربص بغزال فوق منضدتي يشرب، قبل أن تنقض عليه وتسحبه تحت السجادة، الهجين يحتل جسدي، والسلطان عبد العزيز يدق بابي بعصاته العاجيّة، تلك لم تكن هواجس، كان هناك صوت طرْق على بابي بالفعل.

تصنّعت الغياب، ولكن بشماف ولأنه قرندلي ابن ستين كلب، أكد حضوري بنهيقه المُنفر، أكره وقْع اسمي بصوته، ينوح كأرملة حرون تتصنع الحزن على زوجها، دفنت رأسي تحت المخدة فانخلع الترباس الحديدي من الدفعة الثانية لكتف القواصة، لم يمهلاني الوقت حتى أرتدي عويناتي الجديدة، لم يمهلاني الوقت حتى أدهن المرهم على وجهي ويدَيّ، حملاني فوضعاني على حمار خصوصي ذي سرج من القطيفة، سار بي في حراستهما حتى سراية عصمت باشا المُطلة على النيل نمرة سبعة سكة المقياس. داغر كان في انتظاري، مُمتقع الوجه يُدخن غليونه في عصبية: «لا تجبرني على سجنك في قبو مُظلم، لتكن تحت طوعي متى ذكرت اسمك، ألم أرسل لك رسالة؟»، لم أجرؤ على الاعتراض أو الإنكار، ما هي حدود رجل قضم التمساح ساقه وأيره؟ بالتأكيد ليس لديه وسيلة إلا العصبية حتى يفرغ غضبه. زفر داغر ثم مسح شعره واستطرد: «عِصمت باشا حسن، رئيس طائفة التجار، قتلة أخرى يشيب له الولدان، القواصة اشتمّوا الخبر بسبب تأخرك في الامتثال، حضروا وانتشروا ككلاب السكك، لكني منعتهم من مُعاينة الجثمان وأغلقت باب الصالون».

حين عبرنا البوابة قابلت المدعو «بوراك الأرناؤوطي»، مُفتش قواصة شرق المحروسة، رجل طويل مُتعجرف، مُقزز مثل السمك، حدجني باشمئزاز من فوق شنب صرصاري الهيئة، وصافحني بسلام كسلام الموارِدِي على الفسخاني، ذلك الحقير الذي يتلقى الإتاوات، ولا يطيب له الطعام إلا من قوت زبد الفلاحين وألبانهم، لن ينسى اليوم الذي حللت فيه مُعضلة نهب مَحل الجواهرجي اليوناني واتهمت أحد رجاله بالفعلة، واتضح صدق قولي، هم لصوص اللصوص، حاميها حراميها، وكما يقول المثل: «قالوا للخاطية توبي، قالت ومين يملا جيوبي؟».

في الطابق العلوي كان رجال «بوراك» منتشرين في كل رُكن، ضِباع جائعة تحوم، وجيوب امتلأت بما خف وزنه وغلا ثمنه من جنبات السراية، ولولا سَيري خلف الأعرج مبتور الورك لربما نتفوا شعر عانتي

ووضعوا عصيّهم في مؤخرتي. حدقت فيهم متعمدًا الاستفزاز، ثم دلفنا إلى الصالون الفخم، أثاث مُذهب طراز لويز الرابع عشر، لوحة قديمة بالحجم الطبيعي لصاحب السراية بملابس التشريفة، وأخرى مع حرمة تؤكّد المثل القائل: «إن دبل الورد ريحته فيه»، تقف وراء كُرسيه عالي الظهر المكسو بالقطيفة المشغولة، ولوحة نصفية لمحمد علي باشا، وأخرى لأفندينا الحالي، مدفأة من الرخام الإيطالي، فوقها شمعدان من الفضة تحت رأس مُحنط لثور في خطمه حلقة نحاسية، السجادة فارسية، والثريا ضخمة تحمل أكثر من مائة شمعة. تحتها، كرسي ذو ظهر عالٍ، مكسو بالقطيفة المشغولة، يحمل صاحبه، جسدًا هرمًا اعتزل الحياة، دُرت حوله لأتأمل ما كان يُعرف يومًا برئيس طائفة التجار، المِسكين كان عاريًا كما وُلد، سمينًا مثل بقرة حلوب مترهلة، رسغاه وقدماه مقيدة إلى ذراعَي الكرسي بسلاسل حديدية، أيره في مكانه منكمش مذعور، فمه مُكمم بقماشة امتزج فيها قيئه بالدماء، وفوق دماغه قِدر طعام نحاسية مكبوسة، موثوقة بحبل يمر أسفل الذقن، ذراعها مثبتة في ظهر الكرسي بمسامير كبيرة تضمن عدم الحركة، والحواف، لم تمنع الدماء من التدفق على وجهه وصدره وصبغ الأرض من تحته.

قبل أن أقترب، قبل أن أمد يدي بسلام وأنحني في وقار لأمير التجار، سألت داغر عن مزاج الباشا «لا يبدو من أهل الغلمان!»، أشار إلى صورة زوجته: «تلك هي زوجته الثانية، بعد زوجة أولى تُوفيت ولم تنكشف على رجل، يقال إنها كانت شديدة الجمال، وكان يغار عليها حتى من الخدم، الزيجتان لم تُسفرا عن أبناء، لعقم مزمن أصابه، وله من الجواري شركسيات وسودانيات ويونانيات، يتخذهن محظيات رغم عمرٍ تخطى العمر»، وحين سألته أين كانت زوجته الثانية وقت القتل، أخبرني بأننا سنقابلها حين أنتهي من الفحص.

نصبت حامل الكاميرا، وزنته، وشرعت في التقاط صور للصالون، وللجثة من جميع الجهات، مُحاولًا أن أتجاهل وأتغاضى عن صوت النهش الرتيب الذي أشعل غضبي، واربت الباب وصرخت في القواصة كي يكفوا عن الأكل بصخب، فرمقوني باشمئزاز، وبصق أحدهم على السجادة فأغلقت الباب. كم أنا محبوب بينهم، لكنهم لا يُراعون أن أعراض الامتناع عن عشبة يوحنا تجعل الأصوات في أذني عالية مدوّية، أسمع جِماع النمل، تأوهاته وغنجه، أتنبأ بالفيضان والزلزال قبل حدوثهما بأيام، وألتقط صفير ساكن القمر حين يمر من أسفل اللوكاندة ليلًا. النهش لم يتوقف! وبعض الجراد الليبي لم يغادر رأسي بعد ليلحق بالسرب. توقفت عن الفحص، وأمرت داغر بك الالتزام بالصمت وأصغيت، حتى أدركت أن الصوت لا يأتي من القواصة، بل يخرج من جثمان شاهبندر التجار! اقتربت، فحصت وجه الباشا حتى مرَّت بالعين اليمنى رعشة، ارتجف الجفن! الرجل حي؟ يُكافح من أجل البقاء؟ تمالكت نفسي وصرخت في داغر كي يأمر بعربة إسعاف تقل الرجل للاسبتالية، ومددت أصابعي لألمس جفنه حين تشنجت ذراعه فجأة، ثم ارتخت، تراجعت خطوة مُحاولًا السيطرة على أعصابي، لحظة، قبل أن يُشق جفن الباشا، من الداخل، سكين أسود حاد، سكين مشعر في نهايته خطاف صغير، هالني المشهد رغم اعتيادي جثامين الموتى، وتراجع داغر خطوة حتى تعثّر وكاد يقع، قرن خنفساء كركدن سوداء مزقت أعلى الجفن، أزاحت مقلة العين بأرجلها، قبل أن تخرج لتزحف على رقبته ثم صدره، التقطت الخنفساء بمنديل ووضعتها في البرطمان، متلبسة بجريمتها، ثم قصصت الحبل الذي يثبت القِدر فوق الرأس، وخلعت المسامير التي تثبت الذراع بكماشة، ورفعت الفوهة بحرص، فإذا بالدماغ مثقوب، كسطح كوكب تلقى سيلًا من النيازك. اثنتا عشرة خنفساء حفارة في طور النضوج، تُركت لترعى وتمرح فوق فروة رأس الباشا ـ بعد حلقها بموسى ترك أثره على الجلد وشعرًا على

الأكتاف ـ ثم كَبست القِدر فوقه لتضيِّق عليها سبل الهرب، وأحكمت عقدتها أسفل الذقن، لتبدأ الخنافس الصغيرة «الجائعة دائمًا» في البحث عن طعام، وتشرع بلا تردد في ممارسة حرفتها الأثيرة: الحفر، صنع الأنفاق، في جمجمة ثم مخ رخو لين.

تأملت ملامح الألم بين الأسنان، تشنج اليدين وانقباض أصابع القدمين، ثم تلوت ورد الرحمة والسكينة، قبل أن أهمس في الأذن الدامية من بعد استئذان: «سيدي الباشا، لديَّ خبران سيئان، لقد تلطخت السجادة الفارسية أسفل الكرسي بدمائك، وأجد أن تنظيفها سيكون أمرًا عسيرًا، أنصحك بالملح والأمونيا مع الماء البارد، والدعك في اتجاه واحد. أما الخبر الثاني، فقد قُتلت ببطء شديد؛ بل بأبشع طُرق القتل، لا أستطيع وصف ألمك أو تخيله، صوت ثقب جمجمتك بقرون الخنفساء الصلبة هو الجحيم ذاته، لعلك بكيت وتوسلت لساعات، وبالطبع صرخت حتى أزعجت قاتلك فأغلق فمك بقماشة كانت لباسك المستعمل، تمزيق اللحم لم يكن أسوأ مرحلة، حفر عظام الجمجمة استوجب نشْرًا بطيئًا مؤلمًا، ثم ولوجًا للمخ طري التكوين، مع كل قضمة للخنفساء ـ التي لا يردع فكَّها رادع ـ ينتفض عضو في جسدك قبل أن يصيبه العطب، شلل تدريجي، خمس حواس تُفقد تباعًا، تصل الخنافس إلى أعصاب أذنيك، فتجرب أن تصرخ دون أن تسمع صرخاتك، فقط تشعر بذبذبات المَضغ ووقع الخطوات المشعرة الصغيرة حول رأسك طلوعًا ونزولًا، ثم ينقطع المدد عن شرايين عينيك، فينسدل الليل بغتة، وتكتسب الحكمة النهائية من الحياة، ثم ينجلي سمعك عن صوت واحد فقط، هسيس ساكن القمر الهجين.

افتح فمك من فضلك، قل آآآآه، أسنانك وضروسك في مكانها، لا أعتقد أن شق معدتك سيكون مفيدًا، فالخنافس كانت كافية للحفر والتنقيب حتى مركز الروح في الرأس، دعني أفحص كفَّك وما تقبض عليه، دعني أقص الخيوط التي حِيكت بين الأصابع لتغلقها، عُملة ذهبية فئة العشرة قروش، بتاريخ سك «١٢٢٣هـ»، لا عجب، ذلك توقيع القاتل، استرخِ، سأكتب لك دهانًا للتسلخات تجلبه من دكان العطارة، ومسًّا أزرق لالتهاب اللثة.

حين انتهيت، أفصحت لداغر أن القاتل هو نفسه مَن اغتال المحروق عزت باشا الدفتردار؛ فقد وضع توقيعه؛ عملة ذهبية يتركها لضحاياه، قبل انتزاع أرواحهم بتلذذ واستمتاع، مؤثرًا المبالغة في تعذيبهم، بغضب ثلم، يمزق قبل أن يقطع، أما السرقة فليست من شِيَمه، فقد ترك خاتمًا ذهبيًّا في قبضة الباشا وهو يخيط الأصابع، بالإضافة لتُحف مرصوصة في الغرفة، نحن أمام وحش برِّي لا يخفق قلبه أمام صرخات أو تضرعات، وحش يفضل التنوع في وسائل القتل حتى لا يُصاب بالملل.

أين الزوجة؟

في نهاية الطرقة دلفنا من باب مُذهب، توارت جارية خلف ستائر القطيفة، وأزاحت أخرى الناموسية من فوق سرير منحوت بملائكة أولي أجنحة تنفخ أبواقًا من قرون الثيران. «مِسك» هانم، سيدة السراية، كانت راقدة على جنبها متكومة، حرمة في نهاية العقد الخامس، مَصبوغة بالشحوب، تتنفس حشرجة، في ملامحها أطلال جمال حزين، جلست بجانبها، متأملًا ضمادة دامية تحيط كتفها، وأنامل باردة ترتعش، نادتها جاريتها ففتحت عينيها بصعوبة: «مِسك هانم، البقاء لله». التفتت وتأمّلتني للحظة، قبل أن تصرخ بفزع: «ذلك هو المجرم، ذلك هو القاتل»، اجتاحني الحرج، وتبللت عرقًا، تحفز الهواء من حولي، ورفستني برجليها، غزال عجوز يُقاوم ذئبًا، حتى نزف جرح كتفها فأشار داغر بك إليَّ فخرجت وراءه إلى الطرقة.

«ماذا فعل ذلك المعتوه؟»..

الأرناؤوطي «بوراك» كان في انتظارنا يتنصت. حدجني بنظرة كريهة ثم اقترب من داغر يهمس، تغاضيت وابتعدت مُشعلًا سيجارة، ثم لاحظت دماء الحرمة على السجادة، وشمعدانًا مُلقى في زاوية، تحت حائط فيه حفرة غائرة، سألت أحد القواصة فأخبرني أن ذلك من أثر مقاومة القاتل، قذفته الحرمة عليه ولم يُصبه، شرعت في فحصه حين علا صوت بوراك، أراد أن يُسمعني رأيه: «سيضلك بتصاويره المسكونة ومؤامراته الخرافية، وإن علم أفندينا بتاريخه وأفاعيله فسيرسله إلى فازوغلي أو يشنقه». الحقير، سارق الكُحل من الأعين يتهمني بالجنون، لطالما أراد التخلص مني لشعوره بالغيرة والمنافسة، ولا أشك أن وراءه بشماف الشركسي، يوسوس إليه بدس السم في طعامي بأمر السلطان عبد العزيز، اللعين الذي سيأكله الحقد حتى يتدحرج من فوق عرشه بالأستانة بعون الله.

حين خرجنا من السراية سألني داغر بك من خلف المونوكل الذهبي: «لماذا قالت حرمه مِسك ما قالت؟»، أجبته: «إن في الحزن صدمة وتخاريف وفزعًا، وما أسهل اللبس والخلط والتوهم، وقد تكون هيئة القاتل تشبهني، بعد أيام، حين تستفيق، ستزول الغشاوة عن عينيها، وقد يكمن مفتاح اللغز بين يديها». لم يبدُ مقتنعًا، ولم أبد مهتمًا، فلو علم مَن هو سليمان جابر السيوفي، واتصالي النوراني بالملأ الأعلى، فسيخشع ويركع مثل المعيز الداجنة. استدعيت الجواري لأستجوبهن عن الليلة السابقة وأين قضينها، فأشرن إلى غرفهن، يزورها الباشا للاسترخاء وللخلوة حين يرغب، فمسك هانم طيبة، تعطف عليهن، بشرط ألا يعلو صوت إحداهن ساعة الوطء، أما الباشا، ففي ليلة مقتله أغلق أبوابهن بالمفتاح، كما صرف العبيد في سابقة لم تحدث منذ زمن.

قبل أن أرحل نصحت مبتور الورك بإخلاء السراية فورًا؛ خشية عودة القاتل للسرقة. زَفر نفسًا من غليونه، فكّر قليلًا، ثم شدَّد على تفرّغي الكامل للبحث عن القاتل: «أريد دليلًا... أريد اسمًا»، فرددت في سِري: «أتمنى أن يحدث ذلك قبل جريمته الثالثة، فهناك وحش للتو انفتحت شهيته».

بعد زيارتي لسراية عصمت باشا عُدت إلى غرفتي ببرطمان الخنافس، ألواح فوتوغراف ترسم الجريمة البشعة، وعُملة كانت بقبضة باشا محفور الرأس، وضعتها بجانب العملة السابقة في طبق لم يعد لديَّ شك أنه سيزدحم بالعملات. غليت القهوة مع الحبّهان وجوزة الطيب والمصطكى، ثم خلطت الحشيشة بالمعسل على النارجيلة ونفثت دخّاني إلى الداخل، بين منحنيات مُخي وأسفل المخيخ، وسرعان ما راق المزاج وانجلى ضباب الكآبة أمام عينيَّ، وغادرت الأفاعي السوداء أوردتي ـ على وعد بالرجعة ـ فانفتحت شهيتي، اقتطفت الفول الحراتي والطماطم والريحان من أحواض السطح، صنعت سلاطة، ووضعت قرموطًا نيليًّا سمينًا على النار بعد تنظيفه وحشوه بالبهارات، ثم جلست أتأمل الخنافس التي أكلت للتو مخ باشا، ناضجة كبيرة، لا يتوفر مثل ذلك الحجم في المقابر، لقد تمت تربيتها في حوض خصوصي كي تصل لذلك النضج، كما تم تجويعها لزمن، فشهيّتُها ونهشها أسرع مما ينبغي، وضعتها في برطمان فيه فتحات، ووضعت لها أوراق اللبلاب علّها تتوب عن فعلتها، وسأطعمها لقطط السلم بعد أن تعترف، فمَن قُتل يُقتل ولو بعد حين. فحصت بعد ذلك العملة تحت العدسة المكبرة، بدت برّاقة حديثة رغم تاريخ سكها العتيق، غير مستعملة، لم توضع في كيس أو تُتداول من يد ليد، أي قاتل يترك عملات ذهبية مع ضحيته؟ هل يسدد ثمن القتلة؟! دونت ملحوظاتي ثم خلعت ألواح الكولوديون من ظهر الكاميرا، أغلقت الستائر لتسود الظلمة، وغمستها في محلول مُظهر حتى انجلت التصاوير، ثم ثبّتّ الظلال بسيانيد البوتاسيوم، بدا شاهبندر التجار مُخيفًا برأس مُغطى بالقِدر، ومفزعًا برأس مثقوب بعد إزالة القِدر، أمعنت التفكير، مُحاولًا العثور على نمط للقتل والقاتل، ثم دوّنت في مفكرتي أن الضحيتين من الأعيان. ثريّان، وعلى صلة بأفندينا بطريقة ما، الاثنان تخطيا السبعين، الاثنان صرفا الخدم قبل مقتلهما بقليل، هذا يعني أن هناك رسالة وصلتهما، رسالة استدعت إخلاء السرايات من أجل زيارة مُرتقبة، ربما إغراء بميعاد حميمي مع جارية أو غلام؟ خديعة مُحكمة هيأت الأجواء للمذبحة؟ فالقتيل الأول كان مديرًا لخزانة أفندينا، والثاني رئيس التجار، الأموال تُعلن عن نفسها يا سادة، ترفع راية ملطخة بالدماء، هل هي مؤامرة داخلية؟ الضحيتان قُتلا لمعرفتهما بأسرار خاصة؟ ربما، فرغم ثورة البناء الألافرانكا التي تجتاح وجه القاهرة، مبانٍ وقصور فخمة، وشوارع مُبلطة، وأعمدة إضاءة ليلية، تُضخ فيها الأموال للمقاولين الفرنصاوية تحت شعار «مِثل باريز» ليتباهى أفندينا ويتفاخر باستقبال الملوك والسلاطين، إلا أن قرى الريف شمالًا وجنوبًا تحكي قصصًا أخرى، بل أهوالًا، فترعة السويس التي دشن أفندينا السابق حفرها منذ ست سنوات، تشبه فيلًا إفريقيًّا جائعًا، تلتهم ألوف الفلاحين في سخرة سرمدية لا نهاية لها، فمنذ أيام على سبيل المثال، ومن مديرية قِنا فقط، تم نزع وإجبار خمسة وعشرين ألف فلاح عفيّ على هجر أراضيهم، تركوا المحاصيل فريسة للطيور والفئران والبدو الرحَّل، سيموت ثلثهم من البرد والشقاء، وستُهلك الكوليرا البقية المتبقية، أما من أراد إعفاء ابن أو أخ من الحفر بالأيدي، فسيضطر إلى دفع ما يزيد عن ألف قرش، هذا بالإضافة لمصادرة الجِمال التي تخطت أثمانها ـ بسبب موت الأبقار من الطاعون ـ أكثر من ثمانية عشر جنيهًا، مما حدا بالخلق في جميع الأنحاء ـ وأولهم أنا ـ أن يمزقوا تذاكر الهوية الشخصية حتى لا يستدل القواصة والعسس على نمرة بيت أو صلة قرابة ترجِّح أهليته للخطف. وتطور الأمر في بعض الحوادث إلى بتر الفلاح إصبعًا من أصابعه أو فقء عين؛ حتى يُستثنى من السخرة ليراعي أرضه. وإن أصابه الحظ وأفلت، فسيكون عليه كي يتجنب الجَلْد أن يُسدد الضرائب الباهظة التي فُرضت على كل

مناحي الحياة: على الديار، على الحمار، وحتى على بائعات الهوى إذا تلبسن ببيعه، بتسلّط من جُباة كفار لا يخافون الله، فنهمُ أفندينا للأموال لا يتوقف، لم يسمع بالَمثل القائل: «جبال الكحل تفنيها المراود، وكُثر المال تِفنيه السنين»، ناهيك عن تأثر سوق العبيد بالاضطرابات، فقد وصل ثمن العبد إلى عشرين جنيهًا، ووصل ثمن الجارية إلى أربعة عشر جنيهًا، مَهزلة! ومما يزيد الطين بلة، التحيز الكامل لبقاء جالبي العبيد السود، والتضييق السافر على تجار الجواري البيض، نُصرة للأوروباويين وتشبهًا بهم، فأفندينا يتشدق على المنابر في باريز بأنه يكافح تجارة الرقيق، ولا يخفى على نملة في جُحرها، أن أكبر جلّاب للعبيد والجواري في المحروسة، هو أفندينا ذات نفسه، فقصور الحرملك تحوي أكثر من ثلاثة آلاف جارية من جواهر نساء الأرض، لا يسافر إلا بزمرة مُنتقاة منهم، كلما رسا يخته الفخم على الشواطئ الأوروباوية نثر الذهب تحت أرجلهن كهارون الرشيد، بل ووصل به الأمر أن هادى بهن ألد أعدائي؛ السلطان الأجوف الحقود «عبد العزيز الأول» الذي استضافه منذ عامين في زيارة أسطورية لا تقل بهاءً عن ملاحم ألف ليلة وليلة، ليصبح أول سلطان للعثمانيين يدخل القاهرة زائرًا، من بعد كبيرهم الدمويّ ذي الأنف المعقوف «سليم الأول»، الخبيث الذي اقتحم مِصر غازيًا منذ ثلاثمائة وثماني وأربعين سنة.

أو هي مؤامرة أوروباوية، نواة لتوغُّل فرنصاوي أو إنكليزي، وربما ألماني أو نمساوي، هدفها قتل الرءوس المتحكمة في حنفيات الذهب، يريدون ليُكبلوا يد أفندينا، مستغلين السخط الذي يعم الأرياف والأقاليم، لينخروا أرجل عرشه فيسقط، وتسود الفوضى!

أفرغت خواطري في المفكرة حتى تشابكت الكلمات، وأضفت في النهاية حتمية إعادة زيارة السراية ـ وهو سبب طلبي من مبتور الورك إخلاءها ـ لعلّي أجد رسالة القاتل التي مهّدت لقدومه، ولكن ذلك بعد لقائي بعزيزة بنت راتب الشبكشي.

خلعت ملابسي ووقفت أمام المرآة، ولله الحمد أن المرآة لا ذاكرة لها، تأملت أرطالًا إضافية تبخرت من لحمي مقارنة بآخر لقاء جمعني بعزيزة، الأفاعي في أوردتي تعيث فسادًا، تسكر وتمرح، تمتص الدهون وتنهش العظام، تمضغني باستمتاع، أخاف إذا دققت النظر أن أرصد جسدي وهو يتضاءل، يتآكل، سأشف الأثاث من خلفي يومًا، سأصير مثل الزجاج المتسخ، حتى أتلاشى.

حتى أتهيأ للمضاجعة، كان عليَّ اتباع الطقوس، أن أستحم وأغسل عانتي وأتطيب، وأن أنفض الحزن، وأنسى مرارة نهايتي التي تقترب حثيثًا، فعزيزة هي ساعة الحظ الوحيدة في حياتي البائسة، عوَّضتني عن فراق نبوية زوجة إسماعين كِشك، وحُورية «أم سوسن»، ونرجس الحبشية، وسميرة المجنونة ذات الشامة، وتريزا أرملة إسكندر إسحاق، ونظلة السمينة، ونعيمة الشركسية التي غرقت في النيل وهي تستحم. فعزيزة نفخت عطرها في فمي، غرست في صدري أوراق تبغ لا تُزرع إلا في أراضيها الملساء، وأطعمتني لحمًا أبيض لا يحتاج نارًا حتى ينضج، ما إن أذكرها في أحلام اليقظة، حتى تغلي الدماء في عُروقي، تُبقبق وتجرف وتحرق وتسلخ جلد الأفاعي السوداء في فيضان ساخن مطهر، لتطفو جيفًا وتخرج من تحت أظافري، وكما يقول المثل: «اعشق غزال.. يا تُفضها».

استقبالًا للعزيزة، أشعلت البخور، مسحت بزيت اللبلاب أطرافي، وبزيت جوز الهند لِحيتي وشاربي، أشبعت مسامّي بالعطر، وتجرعت كوبًا من العرقي المُخفف بالمياه، عمَّرت أحجار النارجيلة، واستلقيت أضرب على أوتار العود، ممتصًّا جوزة الطيب تحت لساني، حتى التقطت أذناي خطوات الكعب الأحمر،

فتحت لها الباب فتسللت، قطة مكتنزة رفعت بُرقعها وانغمست في حضني، ثم دفعتني إلى الكنبة وبركت فوقي، تشاجرت أمعاؤنا كشبّاك الصيادين، بعثرنا الأثاث وأحرقنا المخدات، وفاض النهر، ثلاث مرات، ثلاثة زلازل أصابت أريكة السلطان العثماني، وانتهينا، استلقينا على الأرض، قتيلين بعد معركة مع جيوش التتر، زمنًا لن نعرفه، حتى تثاءب نهداها وتمطى، فنفخنا في السقف الدخان والأخبار والأحلام، وجلسنا حول الطبلية، أطعمتني من صَنعة يديها ملوخية وكشكًا ثم فطيرة بالعسل، وكالقط لعقت ركبتيها ثم أغلقت الخلخال الذي ابتعته على ساق ملساء كريش النعام، ثم رقصت عزيزة من أجلي على أنغام العود، قبل أن أطأها مرة أخيرة، مِسك الختام، جلجل صهيلها كقطار غشيم بلا مكابح، رعد بلا برق، حتى كِدت أخمد أنفاسها بطرف السجادة وأكسر لها ضلعًا، غطت بعدها على صدري في نوم عميق، بنبض ساخن ونهيج يُشبه في رائحته الأفيون الخام، غيبوبة تعلوها ابتسامة رضا لا تفارق الشفاه، ثم أفاقت، وقد صارت أنثى أخرى، طلبت مني أن ألتقط لها صورة وهي عارية، عادة كل لقاء، كم تعتز بنهديها الثريين، وكم تتفاخر بالحلمات الحمقاء الطائشة، ولها كل الحق. رفعت للسقف ذراعًا، ووضعت بين شفتيها وردة حمراء، بدت في العدسة مُدملكة القوام، قلة قناوية خرطها فخَّار كافر وشرد للحظات وقت نحت الخصر، لم أتمالك نفسي حين قررت الرحيل أن أسألها ـ رغم قسمي ألا أفعل في كل زيارة ـ عن آخر مرة وطأها أنور أفندي، ابتسمت ودون تردد أخبرتني أن ذلك كان بالأمس، وطأة لا همّ فيها إلا رغبته المحمومة في وليد يحمل اسمه ويُرضي أمه، قالتها ثم زاغ بصرها، شردت للحظات، ثم أفاقت فضحكت بصخب، وحكت عن جارتها الحقودة أم مدبولي، والتي سألتها بخبث وحسد عن صريخها وقت مشادة مع أنور أفندي، فقالت لها إن ذلك صوت مُتعة إتيانه لها ليل نهار، ثم قلدت بروز عينَي الولية حقدًا، قبل أن تحتضنني وتقرص أيري ثم ترحل.

أشعر براحة في وجود عزيزة، تكفلني مثل أم، تعاشرني مثل عاهرة غير مُحترفة، دون كدر، تصفع وجهي حين تهتاج، تخربش صدري كقطة طريق أصيلة، وتترك أسنانها وأحمر الشفاه على رقبتي. لا أكاد أنسى أول لقاء بيننا، تقابلنا في مارستان قلاوون منذ سنوات قبل إغلاقه وتهجير المجاذيب لورش الجوخ ببولاق حيث لم يعد المارستان صالحًا لإقامة البشر، كانت الممرضة التي تولت أمري بوصاية من الحكيمباشي ساسون، بعدما أحاطتني الكآبة ولم أعد أطيق الاختباء من الهجين وضاقت بي السبل، أذكر صفعتها الأولى على وجهي، جاءت دون إنذار، خلعت بعدها ملابسي ووضعتني في مغطس ساخن ثم بارد، حتى تفككت أوصالي، قبل أن تعزلني في غرفة مكسوّة بجلد المعيز، لا يدخلها صوت أو نور قمر، تناولت الأعشاب التي ناولتني، فنِمت بعُمق، ثم استيقظت فوجدت الكآبة وقد تطايرت إلى سقف الغرفة، فكَّت عزيزة سلاسلي، وطلبت عنواني بحجة التقاط صورة فوتوغراف.

في اليوم المُحدد طرقت بابي، دلفت، تأملت غرفتي بفضول، ثم صفعتني على وجهي، ولم أفكر في مقاومتها، ظننت في البداية أن ذلك تكملة للعلاج، حتى قفزت على صدري وأحاطتني بساقيها، واشتعلت كالكبريت في قلب برميل نفط، تضاجعنا لساعات، بلا كلمات، فقط نهيج أنفاسنا الهمجي، خربشة بربرية، وآهات غنج خرمت طبلتَي أذني وأصابت عنتر بالطرش، قبل أن تضطجع على وسادة وينعس صدرها، سحبت الأنفاس من النارجيلة وسردت قصتها بسيقان منفرجة.

عزيزة ولدت في الإسكندرية، تربّت تحت أبٍ قاسٍ اعتاد صفعها كلما تكلمت، كلما شردت، وكلما

تنفست، حتى تسللت إليها الأنوثة مبكرًا وانتفخت المفاتن، فالتفت إليها، بدأ في لمسها، مُداهمة الكنيف وقت استحمامها، ثم وطأها بعد مقاومة لا تُذكر عقب وفاة أمها، لم تجرؤ المسكينة في سن الثانية عشرة على الشكوى أو الرفض، فقط أنجبت منه أخًا يشبهها، أرضعته عامًا، بثدي ابنة أربع عشرة، ثم أتت به القاهرة تحمله، على ظهر بغل، وضعته في سبت مع ورقة مدون فيها اسمًا غير اسمه، وتركته على باب مسجد، لتبدأ في البحث عن الرزق. عملت عزيزة في بنسيون «الانسجام» بشارع كلوت بيه كعاملة نظافة، بالإضافة لتقديم بعض الخدمات «الخصوصي» للزبائن، وهناك التقت بأنور أفندي أبو شمعة، غلباوي بالمحكمة التجارية، يكبرها بعشرين عامًا، كان النزيل الوحيد من بين النزلاء الذي لم يطلب الخلوة بها، اطمأنت له فباحت بالأسرار السكندرية، سمعها باستفاضة واستغفر على مسبحته، ثم قرر مساعدتها ليكسب ثواب توبتها عن خدمات بنسيون الانسجام، عالجها من السيلان الذي أصابها، طلب منها تغيير اسمها من تفيدة ـ اسمها الأصلي ـ إلى عزيزة، ثم تزوجها، وأوجد لها عملًا بمارستان قلاوون حيث تعلمت التمريض ورعاية المجاذيب.

لطالما قالت عزيزة إن أنور أفندي هو الأمان والسكينة، الأب الذي لم تحظَ به في حياتها، الزوج الوفي المِعطاء الكريم العظيم الشهم اللبيب. ولكن «الحلو ما يكملش»، عادة غريبة تسللت إلى أنور أفندي لتفسد حياة مثالية، أصبح حين يدعوها للفراش، ومن بعد وطء مُتعجل، يطلب منها ردّ الجميل! مُبادلته الوطء بوطء، يدُير ظهره، لتدلك عزيزة عجيزته، يستمتع ويئن مثل قطة في موسم التزاوج، ثم ينام بعمق وقد تهدل شاربه على جوانب فمه. تقبلت، على مضض، واستمرت تلك العادة في النمو والتملّك، حتى طغت، نفر أنور أفندي من جسد عزيزة اللين البض، وزاغت عيناه وراء عبيد الحبشة السود، يترصدهم في الطرقات وفي الأسواق، حتى ادخر من مُرتبه سبعة عشر جنيهًا، واشترى عبدًا أبنوسي البشرة من جلّاب شامي، يعمل في خدمة أنور أفندي نهارًا، وفي الليل، يختلي به ساعة، غير عابئ بنظرات عزيزة، حتى وصل الأمر يومًا أن شبّهت عبده المُبتل عرقًا ـ بعد خلوة مع زوجها ـ بكلب البحر، وما كان من أنور أفندي إلا أن نهرها وقطع عنها المصروف يومين فتأسفت عزيزة ورضخت، لينظر في وجهها في الصباح التالي؛ وبعد أن يفترش الامتعاض ملامحه، يزنّ في طلب وريث من رحمها، لا أثق «أنها» أهلًا لتربيته.

من العبث أن يترهل جسد عزيزة وتفسد منحنياته السكندرية بحمل وإرضاع من أجل طفل سيُربيه أنور أفندي قبل أن يستهدفه الهجين في النهاية.

تقول عزيزة إني الشغف، وإني العشق، وإن عزفي للعود عذب، وإن أيري المُحبب، خُرط من أجلها، كما تقول إن العشق المغروس فينا، رغم حرمانيته، مفيد للأرق الذي أُعاني منه، ومفيد لمزاجها المضطرب من سيرة رجال حولها، لم يكملوا المسيرة رجالًا كما بدءوها، فعشقنا خير من الحشيشة والأفيون، خير من الوحدة والجنون، عشقنا مثل لبن النوق، خفيف على المعدة ويشفي من أمراض القولون. لقد تزوجت عزيزة بأنور أفندي ـ دون وعي ـ لأنه يشبه أباها، متمسكة به لأن الحياة قاسية على حُرمة وحيدة خذلها أبوها، ولأنه لم يضربها، مثل أبيها، كما أنها تنتشي بصفع الرجال انتقامًا من كل ذَكر، والقصد، أبوها.

المسكينة مريضة، مليئة بالضلالات، فريسة للأوهام، ومن سخرية القدَر أنها لم ولن تدرك ذلك حتى نهاية العمر.

علامات الحب تشبه علامات الساعة، نسمع عنها ولكن لا نراها، ما هو الحُب؟ هل هو الاشتياق؟ كما

يشتاق النبات للشمس والهواء؟ كما يشتاق الهجين لغزو الأجساد؟ أم أنه اسم مُهذب للرغبة؟ فعزيزة، ناعمة الجلد، بضّة بيضاء كجواري الشركس، قَوامها، لبؤة في رشاقته، تمثل المرحلة الانتقالية ما بين القشطة والرخام، متطرفة الرموش، كستنائية الخصلات، لا تكف عن مغازلتي والغنج، ولا تمل من الاستماع إلى حكاياتي بشغف طفل ساذج، تصدقني دون تشكيك، ولا تجادلني، سريعة البديهة، تصدح في ذروة الجِماع كوابور خرج عن السيطرة، فتُشعرني بالسيطرة، على الجبال والحيوانات والسحاب، تشعرني بالألوهية وهي تنفُث النارجيلة، وتختتم كل حكاياتها بضحكة مُجلجلة تخيف البُوم على الشجر.

ملحوظة: لقد قلت تلك الكلمات يومًا عن نبوية زوجة إسماعين كِشك، وحُورية «أم سوسن»، ونرجس الحبشية، وسميرة المجنونة ذات الشامة، وتريزا أرملة إسكندر إسحاق، ونظلة السمينة، ونعيمة الشركسية التي غرقت في النيل وهي تستحم.

اللعنة على قناعاتي الزائفة، على شهوتي العمياء، لا يشفع لي إلا يقيني أن عزيزة، هي آخر حرمة في حياتي، الأنثى الأخيرة لذكر السُّليمان، ستقتلني يومًا بصفعة، أو تخنقني بين نهديها الآسرين، نهاية مخملية لينة، أفضل من انتحاري المؤجل، هل أحببت عزيزة؟ لا أعلم، فمن بعد كل تلك النسوة، بِت عاجزًا عن عشق نملة، فالحب بلاء، شمعة تُنير لك الطريق، لكنها تسيح على قلبك حتى تحرقه، فلا يبقى فيها إلا أني، أشتهيها، وأنها تداهم أحلام يقظتي وتصبغ غرفتي وصدري بالبهجة والسخونة، وإن كان عنتر يعترض على زياراتها، وذكر اسمها مرة أثناء وحيه، لكنه أكد أن وجودها هام حاليًّا، من أجل مسيرتي، وقد تأكدت أن هجين القمر لم يضاجعها بعد شُربها اللبلاب المغلي أمامي وعدم إصابتها بالتسمم أو الصفراء.

في تلك الليلة العجيبة وبعد رحيل عزيزة استأجرت حمارًا توجهت به تحت شمسيتي إلى سراية عِصمت باشا، بحثًا عن رسالة القاتل، لم يكن من الصعب اقتحام باب الخدم، صعدت السلالم ثم دلفت إلى غرفة المعيشة، رائحة الدم ما زالت تثقل الهواء وتتخلل أخشاب الأرض، الجثة محفورة الرأس رُفعت من فوق الكرسي لتكفَّن وتُدفن في صمت، وكل ثمين خفيف بالغرفة اختفى في جيوب القواصة الواسعة.

على ضوء قدّاحتي تأملت الرفوف، عصمت باشا كان قارئًا نهمًا، كثير الأسفار، تحمل مكتبته خرائط وكتبًا لا تقدر بثمن، أهمل سرقتها القواصة الأغبياء، هم كالجراد ينهشون ويخربون، لكن لا يقرءون؛ لذا يغفلون الدلائل، وتتوه خطوات القاتل في أغلب الجرائم بين أحذيتهم، ولا يلحظون عنصرًا أراد أن يتخفى ويندمج، عنصرًا أراد أن يذوب بين الأثاث والمتعلقات، أراد أن يصبح من أهل البيت، لكنه فشل. رأس خشبي أسود، بحجم كف اليد، لأسد، عيناه غاضبتان مُتحفزتان، فاغر فاه عن أنياب حادة. لفت نظري؛ لأني قابلت نُسخة منه، مُتفحمة، بين حطام سراية عزت باشا المحروق. التقطته ففحصته، مُتقن الصنع دقيق التفاصيل، قاعدته مربعة محفور أسفل منها كلمة «المشاعلي»، لا أذكر أن هناك نحّاتًا أو فابريقة تحمل ذلك الاسم، دسسته في حقيبتي وفحصت المكتبة، انتشلت منها بعض الكتب النادرة، فلست أنزه من القواصة حين يتعلق الأمر بمكتبة رجل لم يعد على قيد الحياة. ثم تأملت على الحائط لوحة تحمل شجرة نسب الباشا قتيل الخنافس، جده الأكبر كان من رجال المجمع العلمي الذي أنشأه نابليون بونابرته، وأبوه كان من خاصة محمد علي باشا. لم أستكمل قراءة شجرة النسب المهيب بسبب الظل الذي غشيني وارتسم على الحائط أمامي، ظِل جسم بشري، ظِل ظَل ثابتًا كالحجر، حتى طقطق رقبته بصوت مسموع فانتفضت أوصالي، خلف النافذة، وعلى ضوء قداحتي الهزيل، لمحت شبحًا لم أشك للحظة أنه الزاحف الأعظم، هجين القمر بذات نفسه، ما كنت لأخطئ رائحته من مسافة ألف ذراع، أسمع صوت أنفاسه الثقيلة، وأرصد لمعة عينيه المضيئتين كأعين السنوريات، يتأملني في صمت، تيبست في مكاني، كتماثيل المساخيط الحجرية المدفونة منذ قرون، لا يُحركني إلا وَقْع نبض في أوردتي، يهز من الرعب والوجل أزرار الصديري الذي أرتديه، زمن أدركت فيه أن التبول اللاإرادي؛ حقًّا لاإرادي، وقبل أن أبلّ السجادة تحتي، كسر النافذة وانقض، ركضت كما لم أركض من قبل، كما يهرب حمار بلدي هزيل من أسد، كما يهرب المرء من ملك الموت، بلا جدوى، خطواته لها وقع التمساح وسرعة البرص على الخشب، زحف على الحائط، السقف، أسقط نجفة قبل أن يجثم فوق ظهري في نهاية الرواق المؤدي لباب الخروج. ثِقله، صهريج ممتلئ بالرمال، قاومت، مددت يدي لسكيني الصغيرة، سلتها من حزامي وغرستها في رسغه بعزم ما أوتيت، وأدرتها، كما أدرت السكين في محجر أمي يومًا، لم يأبه، وربما شعر بالإطراء، تسلّقني فضغط على صدري برُكبته حتى طقطقت ضلع، ثم انكسرت. صرخت في ألم فدسّ يده حتى المرفق في فمي، وأحصيت عروق رسغه بلساني، ثم انحنى وهمس في أذني: «في هذا الصراع، سيفوز شخص واحد، وهو حتمًا ليس أنت»، قبل أن يعتصر جانبَي رقبتي بأصابع مُصارع، فأدركت ما ينتوي، الهجين بخبرته الأزلية يضغط على شريان الأورطي، يقطع طريق الدماء عن رأسي، يريد أن يُخمد ثورتي بين عظام الترقوتين، لحظات وبدأت أقنع بوجهة نظره، فِكرة تفيد أن المقاومة والثورة لا مغزى لها، وقت ضائع، ثم كَسَت الزرقة جدران البيت والسقف، ووجه هجين لم أستطع تحديد

ملامحه بسبب الوشاح الذي يُخفيه، فقط لمحت آثار حرق جعَّدت جلد الجبهة، ثم أصابني الخدر، ولج عقلي كهف مُظلم مليء بالوطاويط، انزعجت فهاجت فطارت فوطوطت وتخبطت ثم تهاوت على الأرض، دفعة واحدة، أسماك نيلية نفقت وطفت، وحتى الأفاعي تحت جلدي كفَّت ذيولها عن الحركة وبدأت في صلاة جنائزية من أجلي، تعاطفًا، وكان آخر ما شعرت به، نصل بارد غاص في جلد رقبتي، يتجه للأورطي، اللعين لم يذكر اسم الله عليّ قبل الذبح، ولا سقاني مياهًا باردة، لست رسولًا إذن، لن تنزل عليَّ رسالة، وقصتي لن تُحكى على المقاهي بصحبة أنغام الربابة وقرع البوظة، النصل يشق اللحم، بسلاسة، لن أعود في آخر الزمان لأقتل المسيخ الدجال، النصل يلامس الأورطي، لن أصعد إلى السماء السابعة لأقابل إبراهيم عليه السلام، ويبدو أن الهجين حين قرأ ما دار بخَلَدي من ذكر النبي إبراهيم أثناء سكرات الموت عدل عن رأيه! ظننت وقتها أن كبش الفداء قد نزل من السماء ليعفيني مثلما أعفى الذبيح يومًا، لكنه سجد على أذني، ودون أن يرفع سكينه من لحم رقبتي همس بلكنة جنوبية تردد صداها في كهفي المظلم:

«سأُحييك اليوم، لتصبح الشاهد على الأحداث، وسأقتلك بعد نهاية القائمة».

لن أعلم كم من السنين مرَّت، ولا أدري كم من الأنبياء بُعثوا من بعدي، قبل أن يسحبني السعال إلى حياة جديدة وعالم عجيب، التفاصيل فيه مزدوجة، من كل قطعة أثاث اثنتان متجاورتان، هواء له رائحة الدم، عين نبت فيها شجر الفلفل الهندي الأحمر، وأخرى مُغلقة بورم في حجم فيل ناضج ابتلع خرطومه، طعم مالح يغمر الأنف والفم، ألم غير مُحتمل في صدري، وضلع مكسورة تتحرك مع كل نفس، تحتكّ برئة أو كبد، أو بالسجادة من تحتي، وأفاع سوداء تسللت من فمي وزحفت في شقوق الأرض. أما هجين القمر، فربما ذهب، وربما هو الآن بداخلي ينظر من عينَيَّ ويستعد للتحرك بأطرافي، كقفاز من اللحم، بعدما لف أيره على عمودي الفقري وتبول ليعلم منطقته كالكلاب.

استغرقت مائة عام حتى تمرّنت على الزحف للخروج من الباب، وقرنين من الزمان بادت فيهما حضارات واندثرت أمم، حتى التقطني ملاك عجوز بلا أجنحة، وضعني على حمار وأقلني لاسبتالية قصر العيني، أموت في كل خطوة مع رجرجة الحمار، حتى تلقّاني الحكماء، ضمدوا جراحي، لفّوا صدري برباط ضاغط مدعوم بلوح خشبي صلب ظهري، ولم يُنوّه حكيم العيون لوجود هجين يسكن وراء عينيَّ. أرسلت في استدعاء «شكيب عبد الصمد» من المشرحة، رثى لحالي وأكل وجبتي، ثم أوصيته ألا يُشرح جثماني إن مت، وألا يعبث به، فوعدني.

في الليل، اكتملت الفاجعة، الخطوات العابرة أمام باب العنبر أهلكت عقلي، أسقطت شعري وأذابت دهون كبدي، ثم تكاثرت الهواجس في سقف الغرفة فقمت رغم الألم، تخبطت في الظلام ونجحت في الوصول إلي شكيب الذي هرَّبني من الاسبتالية، حملني على ظهره في الشوارع المظلمة الباردة، دون عُويناتي، ودون المرهم العازل، مُتدثرًا من ضوء القمر ببطانية، أكتم فتحات أنفي بالقطن لأتلافى رائحة عرقه وأنفاسه المختلطة بالفورمالين، حتى وصلنا إلى اللوكاندة. بصعوبة تسلُّق جبل صعد شكيب إلى الطابق الأخير، لم أدعُه للدخول وإلا نفق عنتر من رائحته، ناولته كوب ماء، وأغلقت بابي بالترباس والأقفال، رشفت من عشبة يوحنا كوبًا ساخنًا أعانني على إطفاء حرائق الأفكار، ثم تأملت وجهي في المرآة، مُتحينًا اللحظة التي سينقض فيها الهجين ليغيِّب إرادتي، ويرى الحياة من خلال عينيّ، هناك صفارة قطار تصدر من رئتيّ في كل نفَس، وخربشة أظافر من خلف الجدار حيث تسكن أمي، تريد أن تطمئن عليَّ، أو تشمت بي، وعلى النوافذ

تمر رجفة، تصدر من غرفة عنتر، المسكين تُرك يومين بلا طعام، فروع اللبلاب كتبت كلمة «نجا» فتفاءلت، تحاملت فزحفت، ففككت أقفال الغرفة ودلفت.

حالة المسكين كانت مُزرية، مُرتمٍ في الركن يرتعش، يطن بضعف، يحفر الأرض بساقه المشعرة، أزال بلاطتين، وإن تُرك يومًا إضافيًّا لاخترق سقف الجار السفلي، أطعمته وسقيته، ورفعت من فوق عينيه الحمراوين الغطاء الجلدي فرأيت ألف انعكاس لوجهي لم أميز بينهم ملامح الهجين، ثم جثوت على ركبتيّ أمامه وسكنت في خشوع، حتى طقطق بخرطومه وأوحى إليَّ: «إن الاقتراب من الموت يُنير طريق الحقيقة، والألم سيكون مُرشدك، لا تخف، فأنت مبروك، محميّ بثلاث أرواح لن تمكن الهجين من اختراق لحمك وعظامك، لكنه عائد ليستنقذ منك شيئًا فاحذر»، قالها وأغمض عينيه وساد الصمت إلا من صوت تنفسه، كما يفعل دائمًا، وكما تعودت، لا سؤال ولا جدال، فهو مخلوق عتيق، عُمره في الظروف العادية لا يتخطى الثلاثين يومًا، الآن أتم عامًا ونيفًا. في عُرف الإنسان؛ هو مُعمر ضيق الخلق تخطى الألف عام، اكتسب من الحكمة ما لم يكتسبه بشريّ في قرون، بات يملك جلاء بوذا وفلسفة زرادشت وبصيرة كونفوشيوس، أحسده على معرفته رغم إدراكي لألمه ومأساته في فَقْد كل الأجيال من أحبائه وأقربائه، وأقدِّر خصوصيته حين يرفرف بجناح واحد، قاصدًا أن أرحل ليختلي بنفسه، ويبدأ في ممارسة التأمل، هو بُراقي المُجنح، هو ملاكي الحارس، هو مُعجزتي التي ستُجبر الكفار على الإيمان برسالتي، فالمرء لا يقابل ذَكر ذباب مُعمرًا مرتين في حياته.

ما زلت أذكر يوم التقينا، كأنه البارحة، كان خريفًا رطبًا، وكنت أعاين جثمانًا بحي الفسطاط لحرمة تُدعى سعدية فتح الباب، راقدة على فراشها منذ أيام بشقة مُغلقة النوافذ والأبواب، تفسّخت أعضاؤها وبرزت عظامها قبل أن يلحظ الجيران غيابها من رائحة التحلل التي فاحت. وضعت كمامتي وقصصت الجلابية المزركشة التي ترتديها، ودونت الملاحظات في مُفكرتي: «يرقات الذباب تخطت طور الدودة، تحول أغلبها إلى شرانق داكنة مُغلقة، مما يعني أن الموت قد حدث منذ عشرة أيام على الأقل، نسبة للحرارة المعتدلة والرطوبة، وبما أن اليرقات تكدست وتزاحمت حول الرقبة، فذلك ينبئ بموضع ذبح مُحتمل، فالذبابات تتكالب وتتزاحم لتضع البيوض في فتحات الجسم ومواضع الطعنات، خاصة إذا كان السكين حادًّا، مزق وفتح، كشف اللحم ونثر الدماء على الحائط البعيد عن السرير، الضحية لم تُقتل في نفس موضعها، والقتل لم يكن بهدف السرقة، ففي الساق خلخال لم يسلبه القاتل، وفي الشكمجية حلق ذهبي وجوز مباريم عيار واحد وعشرون وغويشة من الفضة. ولما علمت أن الحرمة كانت أرملة تعيش وحيدة أدركت أن مَن قتلها عاشق اكتشف خيانتها، أو ربما قريب للزوج المتوفى، أراد الظفر بالحرمة أو الانتقام لشرف العائلة المدنَّس». ودونت في مُفكرتي توصيات واحتمالات القتل، ثم نصبت حامل الكاميرا فوق الجثة، والتقطت أول صورة، حين قاطعني عنتر، طار قرب أذني فخبطها بجناحيه، هششته، ظنًّا مني أنه مجرد ذبابة عادية، فدار حول رأسي بأزيز عالٍ، قبل أن يقف على العدسة، أفسد صورتين فاشتعلت غضبًا، وقررت قتله قبل استئناف التصوير: «اللي ما يعرفك يجهلك يا عنتر أفندي»، وإذا به يدور في سماء الغرفة، دوائر منتظمة مرسومة ببرجل، لمحت خلالها الضيّ الأزرق المنبعث من ظهره، قبل أن يقترب من أذني ويُلقي بكلمة «اتبعني»، نظرت لمَن حولي لعلّي أجد في أعينهم ما يُوحي بأنهم سمعوا ما سمعت فلم أجد، وتكرر الأزيز «اتبعني»، فراقبته والوجل يتخبطني، حطّ فوق جمجمة الحُرمة، فوق عظام الحاجب المُغطاة بشعرها الأسود الطويل، لم أفهم، فاقتربت، وللعجب لم يَطِر، تمشى برفق على يدي ثم استقر على كتفي، فأزلت شعر الحرمة لأستكشف ما خفي عني

وأرادني الخالق أن أراه، عِظام الجبهة، كانت بارزة بالنسبة لحرمة، تلك الجثة ليست لسعدية فتح الباب! إن الجثة لذكر. حين أعدت النظر في قُطر الجمجمة، وعرض عظام الحوض الصغيرة، انجلت الحقيقة كاملة، وتأكدت من وحي عنتر، ثم سألت نفسي مَن هو الرجل الذي يملك شعرًا أسود طويلًا؟ «غجري». كان ذلك أزيز عنتر، ولما كان حوش الغجر يقع على بُعد دقائق من حي الفسطاط، خلف سور مجرى العيون، اكتملت الصورة، واتضح بعد أيام أن الحرمة سعدية فتح الباب استقبلت في بيتها رجلًا غجريًّا، قضت منه وطرها لكنه أراد سرقتها، فطعنته في رقبته، وأصابها الفزع من الدماء والفضيحة، فجرجرته من موضع القتل بجانب الحائط ووضعته فوق السرير لإنقاذه، لكنه مات، فهربت، ولأن أزياء الغجر مُلونة، ولأن بعض رجالهم يرتدون الخلاخيل ويطيلون شعورهم كالنساء، كان من السهل أن تخدعني العلامات، لولا عنتر.

انتهيت من الهمس في أذن القتيل الغجري ثم بحثت بعينيَّ عن الذبابة الملهمة فلم أجدها، فتشت الغرفة حتى كدت أفقد صوابي، ولم ألتقط الأزيز إلا بعد ليلتين، في غرفتي، ضربني الفزع فتلفت حولي كالمجذوب حتى وجدته، يقف فوق زجاجة المصباح، يستأنس بالشعلة الخافتة، ويحُك أقدامه ببعضها البعض تنظيفًا، وينادي اسمي بتطويل الألف «سليماااان»، لم أخطئ اللمعة الزرقاء في ظهره، لمعة ذباب الموتى المُلقب بالعنتر، اقتربت بهدوء، وضعت سبّابتي بجانبه فطار واستقر فوقها، ثم وضعت العدسة بيننا فأدركته عن قرب، حجمه كان أكبر من الذباب المعتاد، وأدركت ذكورته من ضيق المسافة بين العينين الكبيرتين، فالأنثى أعينها منفصلة بمسافة نصف عين، ولم يكن كالذباب متذبذبًا مرتعشًا، كان حكيمًا ثابتًا، مؤمنًا بالله، له كرامة، وما لبث أن حرَّك يديه وحكى قصته، فمنذ صار يرقة وهو ينتظرني بأمر أزلي حكيم، مُسخر من أجلي، مَجبول على خدمتي من دون بني جنسه، بدعم من المولى لمواجهة الهجين وحربه، وغير مسموح له بإبداء الأسباب حول ما يقول وما يفعل لأي كائن حي، أما معجزته، تفرده بالكلام المفهوم المبين، وعُمر لن ينقضي إلا باكتمال الرسالة التي أتى من أجلها.

وتوالت الأيام، وتضاعف حجم عنتر، فهو يأكل كل ما يوضع أمامه مثل الخنازير، حيًّا أو ميتًا، لم يعد من السهل تركه في الغرفة ليطير بحرية أو يلتصق بالنافذة لساعات، وما كان لبشر من العامة أن يلمحه فينتشر الخبر ويجتاح الناس الفزع والخوف بسبب ظهور أول علامات الساعة، الدابة التي تتكلم. حين أصبح عنتر في حجم رأسي، خصصت له غرفتي، وبِتُّ أنام على الكنبة - وعلى قلبي زي العسل - فهو الرفيق المعين، الصديق الوفيّ الذي ساعدني في حل أكثر من لُغز، والمعجزة التي سأقهر ببركتها الهجين يومًا. وإن كانت الرياح دائمًا تجري بما لا تشتهي السفن، فالشيخوخة بعد شهور، أصابت عنتر المسكين بنوبات طيران أهوج، تأتيه وهو نائم، أجبرتني - رغم ضيق خلقه - على سلسلته بجنزير، حتى لا يطير غافلًا فيصطدم بالأثاث أو الحائط، وكذا أصابته الشيخوخة بضخامة مطردة، أثرت على صحته بالسلب، وأضعفت قدرته على الطيران، بالإضافة للتجاعيد التي ملأت وجهه وأطفأت المئات من العدسات في عينيه، حقًّا، دوام الحال من المُحال.

تذييل لليومية رقم ٣٤ المدونة بتاريخ ٢٥ أمشير / **وصية:**

تمــــر بنـــا الأيـــــام تتـــرى
وإنما نُساق إلى الآجال والعين تنظرُ
فلا عائد ذاك الشباب الذي مضى
ولا زائل هذا المشيب المكدرُ
إلا بسحق أفاعٍ لذيولها صدى
وقتـــل هجيـــن قمـــرٍ متنمِّــرُ

الإمام «ابن كثير»
«عدا البيتين الأخيرين، من إضافات العبد لله»

أما بعد،

هذه هي رسالتي الأخيرة للأرض الغشيمة الملوثة بالأحقاد والمؤامرات الدنيئة، أفيقوا يا ملهيين، لقد اقتربت الساعة، وأعلن الزاحف الأعظم مُخططه النهائي للاستيلاء على النسل والذرية، وإشعال فتيل الحرب النهائية بين ملوك وسلاطين الدول، ليستولي على عروش المعمورة، ويقتات على الذهب ودماء النسوة، ويعلن نفسه أميرَ أمراء الجنس الآري. لقد تبدّدت الضلالات والشكوك حين قابلته وجهًا لوجه في سراية عصمت باشا، فهو حق، مثل الشمس والقمر، مثل عزيزة، وعلمت يومها أنه وضع قائمة أقسم فيها أن أكون قربانه الأخير والشاهد على جرائمه الشنيعة، لسبب ما زلت أجهله، وما كنت لأنتظر يوم مقتلي فيمضغني الرعب ويبصقني، أو أصير مهزأة للزعانف والضالين من العامة؛ لذا، فقد انتويت الرحيل وبشكل نهائي، بلا تراجُع أو تخاذل، خاصة وأن صحتي قد تدهورت، وأنفاسي قد تقطعت، وبات جسدي قفص طيور أجوف، يُصفر الهواء حين يمر به، وبلغت الأفاعي في شراييني طور النضج والتناسل فبرزت من رءوسها القرون الصفراء المدببة، تخربش أعضائي وتثير الهرش المزمن في جلدي من الداخل، ومن ذيولها تدلت أجراس صغيرة تتعمد هزها في نغمة رتيبة تكاد تُصيبني بالجنون، وخلال أيام ستضع بيوضها، وستتضاعف أعدادها، حتى تخرج من بؤبؤ عيني.

وقد استخرت الله، واستأذنت في الرحيل عن الأرض قبل نزول الرسالة وتولّي الأمانة، وطلبت العفو من المهمة الموكلة لي مُتعظًا بدرس «يونس» عليه السلام الذي ذهب مغاضبًا، وتحركت فروع اللبلاب لترسم على الحائط كلمة «امضِ»، فأدركت أنها العلامة والتصريح والعفو؛ لذا، وبالإضافة للبنود السابقة في وصيتي بشأن بيع حاجياتي وسداد ديوني، أضيف الآتي:

- ألواح الفوتوغراف الزجاجية، وكذلك ملاحظاتي حول الجريمتين الدمويتين تُسلَّم إلى داغر بك رستم كبير مستشاري أفندينا، مُذيَّلة باعتذار مني عن إكمال المهمة التي كُلفت بها، وكذلك اعتذار عن رد باقي الجنيه النابليوني، فالطاعون البقري والكوليرا، بالإضافة للحرب الأهلية في أمريكا، رفعت أسعار بعض السلع، مما ألحق بي إفلاسًا غير محمود.

ـ مرفق رسالة منفصلة في جواب مُغلق ومُزيل بتوقيعي، لأفندينا إسماعين بن إبراهيم باشا، مُدون فيها تحذير من سَطوة الهجين وطموحه في العرش، وكذا رسم تفصيلي لمخططه الشامل لاستعدائه الأمم الأوروباوية ضد المحروسة، بالإضافة لنصيحة خالصة في أمر ترعة السويس؛ أرجوه فيها بالتراجع والردم قبل الندم والحسرة، وقبل أن تلفت أنظار الأوروباوية وتجلب المطامع على الرءوس.

ـ ومرفق طيّه بلاغ رسمي مُزيل بتوقيعي من العبد لله إلى قصر أفندينا، بشأن المدعو «بشماف جودت أنزور»، مدير لوكاندة بير الوطاويط، أتهمه فيها دون التباس أو ارتياب، وبالدلائل القطعية التي لا تقبل الشك أو الظلم، بالشروع في قتلي بالسم للاستيلاء على غرفتي باللوكاندة، وذلك بمعونة السَّقا «عشري ربيع أبو طاقية» المقيم بنمرة ٦ حارة القباني بباب الشعرية، فهو يدس السم في قِربة المياه التي بحوزته حين يزورني لملء الزير، ثم يصدر في نزوله على السلم نغمة محددة بصاجاته النحاسية، لا يفهمها إلا بشماف، تفيد بأنه نفذ مهمة قتلي، ولولا ستر الله وحمايته، وقوة ملاحظتي وحصافتي، لقُضي الأمر، وانتصر القتلة الملاعين.

ـ أرجو حبس المتآمرين وإعدامهما في ميدان الإسماعيلية الجديد ليكونا عبرة لأمثالهما، حتى لا يُكررا فعلتهما مع سكان اللوكاندة ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

ـ بشأن عنتر، لقد قررت تعديل البند الخاص به في وصيتي الأولى، بدلًا من العناية به وإطعامه، فإني انتويت أن نموت معًا، دسست له جرعة سيانيد في طعامه، ستهبه الراحة الأبدية في أربعين ثانية، فأيامه في الحياة باتت معدودة، وحجمه فاق التوقع والاعتقاد، والعالم غير مُهيأ أن يعيش فيه كائن طاهر مثله، والمعجزة لا تورَّث من نبي لنبي بعده.

ـ أوصيكم بضم عظامي إلى بقايا عنتر في كفن واحد، وطيّ أجنحته فوقنا بعد فرش فروع اللبلاب، ثم دفننا في المكان المُشار إليه سابقًا.

سليمان جابر السيوفي أفندي

نمرة ١٠ـ لوكاندة بير الوطاويط

الساعة ٨ أفرنكي مساءً

اللعنة على عُشبة يوحنا، رغم أنها تصبغني بالسَّكينة، وتطفئ نداء الموت في عقلي، إلا أنها تحرمني الإجابات، دائرة مُفرغة، إن أقلعت عنها أستنير ويصير ذهني حادًّا كسكين اللحم المسنون، ألمح ظِلال الشياطين، ألتقط نميمة الملائكة، وأغزل خيوط الأسرار دون عناء، وإن كانت تغمرني بالكآبة وتحيطني بالهواجس السوداء، تنهش غيطاني كالجراد النهم، ويصير رأسي، كفّتي ميزان، لتعلو اليمنى؛ على اليسرى أن تنخفض، وداعًا للعدل والاتزان. كما لم يعد لديّ أدنى شك بأن الحكيمباشي ساسون، يعمد إلى إخماد شُعلتي لسبب خفيّ، يُريدني أن أصير من مجاذيب اسبتاليته، لا همّ لهم سوى دخول الكنيف، النوم المستمر، والخمول الإجباري بالأعشاب المسمومة. لا، قلتها بصوت عالٍ، لن أتناول عشبة يوحنا ما حييت، لن أصير مفعولًا به تتقاذفه الأقدار، لن أصير خرقة مستعملة. تخلصت من طعام عنتر المسموم قبل أن يلتهمه المسكين، سمَّرت ألواح الخشب أمام الشبابيك حتى لا يتسلل نور القمر، ودعمت الباب بترباس حديدي عنيد، فرشت اللبلاب على صدري ليمتص دخان الكآبة، ووضعت سكيني الصغير تحت مخدتي، لن أبرح سريري إلا لقضاء حاجتي، أو لإطعام عنتر الذي دخل في خلوة روحانية، يبتهل في تضرع وخشوع ولا يجيبني حين أناديه.

بعد أيام هدأ احتكاك ضلعي المكسورة باللحم، الالتئام أخذ مجراه رغم نزيف النحافة المستمر، الكدمات البنفسجية قررت الظهور بعدما اطمأنت أني أصبحت وحدي وزال الخطر، ولم تأتني عزيزة في ميعادها المعتاد، كما لم يظهر هجين القمر، ولم يَلُح في المرآة حين اختلست النظر، طعامي يكاد ينفد، وكذلك صبر مبعوث أفندينا مبتور الورك جالب المصائب، أرسل إليّ زبانيته بمكتوب يستعجلني، فدفعت إليهم من تحت عقب الباب بالصور والملاحظات والاعتذار عن المهمة الموكلة إليّ.

ورغم ذلك؛ فقد هاجمني سرب جراد أصفر، ملأ السقف والأرض والجدران، حكّ أجنحته في رأسي، ثم تسلل بداخلها عن طريق أذني، صفير مزمن، كصفير القطارات الليلية، بالإضافة لخربشة أظافر أمي خلف الحائط، وندائها الخافت الذي لا يتوقف. توضأت واستعنت بوِرد السكينة والرحمة، وتذكرت من سِير الأقدمين العطرة، ما طمأن قلبي ورطّب فؤادي، فالملاحم تؤكد بأن الرسالات لا تهبط إلا على مَن أصابه الخذلان والأسى، مَن تهافتت الشرور عليه وتكالبت عليه الأعداء، هل نسيتم جروح صلب المسيح؟ وهل نسيتم طريق الآلام الذي مشاه حاملًا صليبه؟ ذلك هو الطريق الذي زحفته تحت نور القمر دون غطاء يحميني، وبضلوع مكسورة، يوم نجيت من الهجين، أي قائمة كان يقصد حين قال: «سأحييك اليوم، لتصبح الشاهد على الأحداث، وسأقتلك بعد نهاية القائمة»، ولماذا قرر قتلي ثم أرجأ التنفيذ؟ وكم اسم تبقى حتى يأتي دوري؟ وما السر وراء رأس الأسد الخشبي الذي انتزعه من حقيبتي قبل أن يتركني بين الحيَاة والموت؟ ومَن هو «المشاعلي» المحفور اسمه أسفل التمثال؟ ألغاز أضافت للأرق الليلي المعتاد أرقًا، أشعلت ستائري وملأت رئتيّ بالدخان، ما كان ذلك ليحدث لسليمان السيوفي، كذلك أكدت فروع اللبلاب على الحائط.

قمت، وجردت مكتبتي بحثًا في كتب الأقدمين حتى عثرت على كتاب أفرنكي يتحدث عن الرموز السرية، قرأت فيه تعريفًا للأسد، رمز القوة والنُّبل والبطش بالأعداء، يَصلح أن يكون نذيرًا مهيبًا قبل الموت، هل قرر هجين القمر طريد الكواكب آكل ذهب الموتى وشارب الحيض، أن يُرجئ قتلي ليرتدي

جسدي بعد قضاء مهمته؟ يريد أن يحيا بداخلي حتى أبلى وأهلَك؛ ثم يغادرني، بعد أن يُلقي جسدي في خرابة مثل خرقة نجسة، ليستولي على جسد مسكين آخر؟ هيهات، سنلتقي ثانية، فذلك ما أوحاه عنتر، وألقاه في قلبي، وتلك هي المعركة التي بُعثت من أجلها، ولست مثل المسيح ولن أدير خدي، فإذا أتاني الموت، وفاضت الأفاعي السوداء مني، أقسم بالله، لن يهنأ الهجين بجسد سليمان السيوفي، حتى وإن اضطُررت لقطع أيري المحبوب.

أيها الوحي؛ لقد تراجعت في قراري بالتخلي عن الرسالة، أنزلها عليَّ متى شئت، فلن أبرح اللوكاندة «١٠ سكة بير الوطاويط»، فالجسد يتعافى، والعقل يتهيأ، أيّدني بالملائكة وبالمعجزات، نباتٍ وحشرات بأجنحة، وأطل في عُمر عنتر، وسأدحر الهجين بمشيئتك، مثلما دحر داود جالوت يومًا.

يوميات / نمرة ٤٣

أكتب تلك اليومية بعد انقطاع طال، من بعد إقامتي بمبنى المارستان المؤقت بورش الجوخ ببولاق.

ولكي تتفهم السبب الذي أتى بي إلى المارستان أيها الحكيمباشي الموقّر، سيكون عليَّ أن أعود للوراء، أيام عصيبة، لأسرد ما حدث بدقة مُتناهية لا تقبل الجدل ولا تخضع للنسيان. كنت وقتها قد أعلنت الحرب على هجين القمر ابن الكوكب الأحمر بعد هجومه العنيف على العبد لله في دار عصمت باشا حسن. انتظرت يومين إضافيين أصلحت فيهما زجاج نظارتي، وخفتَ نبض الألم في ضلعي المكسورة، فكسوت جلدي بالمرهم، دسست سكيني في الحذاء، وتلثمت بشالٍ مُبتل يقيني عويل ريح الخماسين، فجبل المقطم نثر أتربته على القاهرة حتى غابت المعالم وتخبط الناس والحمير في السِّكك والأسواق، وكذلك لأتخفى عن عينَي الهجين، فقد هاجمني ليستولي على تمثال الأسد، ولن يسكت حين يراني أبحث وراءه.

حين وصلت إلى حارة المشاعلية، تأملت سُخرية القدر، فسكانها الذين يُشعلون العواميد بعِصيّهم ليُضيئوا ليل المحروسة، يَسكنون حارة مظلمة كئيبة، لا تكاد ترى يديك فيها، حقًّا باب النجار مخلَّع. نزلت من فوق الحمار وحاسبت المكاري ثم اتجهت لبيت خِضر الأعرج؛ شيخ المشاعلية، عجوز طيب تخطى الثمانين، رغّاي مثل غلباوية المحاكم، يحكي كلما التقينا قصصًا تعود لزمن بونابرته، بشغف ودهشة طفل، ثم يكز على ضروسه المتبقية حين تداهمه سيرة «حلاوة»، يسرد قصتها بتفاصيل دقيقة وكأنها حدثت أمس.

منذ خمسين عامًا كان خِضر شابًّا يافعًا، يُشعل عواميد نور شارع في نهايته بيت باشا من الأثرياء يملك جارية تُدعى «حلاوة» اعتادت الوقوف بالشبّاك للتسلي بالفرجة على المارّة. هام بها خِضر عشقًا حتى تجرأ يومًا ولامس الأصابع، فناولته بلحة ووعْدًا؛ أن يشعل العمود القريب من بيت سيدها، ثم يصعد ليشعل سراجها. وتوالت الأيام، حتى اشتم السيد شبعًا في خصر جاريته، أصبحت أقل رضا، مُتململة، تتلافى قضاء الليل معه بحجج واهية. راقب الباشا منزله، وصعد يومًا في غير ميعاده، باغت العشيقين في غُرفة الجارية، فقفز خضر من الدور الثاني، ليسقط عاريًا على ركبته فتنكسر، تحامل ووثب مثل الجندب، واختفى في ظلمة الليل، ولم يجد السيد غير مصباح الزيت ليكسره بحُزن وغضب على رأس جاريته الأثيرة، ويبلغ القواصة الذين هرعوا للبيت والطلومبجية أن النار اختارت أعز جواريه.

يقولون إن رائحة شواء الدهن المحترق ملأت الحارة لثلاثة أيام؛ قربان العشق الممنوع.

وحتى يتعظ، ويُذكِّر نفسه دائمًا بالحكمة القائلة إن «علوقية القلب تخلِّي العقل يعرَّص»، وإن إصلاح جارية وضيعة الأصل مهضومة النفس منتهكة الكرامة هو ضرب من ضروب المستحيل، فقد قرر الباشا أن يحتفظ بجمجمة حلاوة، انتزعها من الكفن، ووضعها في مكتبته بجانب كتب الرحلات. وظل خِضر يمر أسفل البيت كل يوم، بعَرج مزمن، وحزن يمضغ هامته، يضع السلم، يصعد، يلمِّع زجاج المصباح، يشعل فتيله، ويُطيل النظر بحسرة للشبّاك الموصد، ثم يبتعد، مُرددًا أغنية حزينة بلُغة غير مفهومة.

حتى تسلل يومًا في غفلة من الباشا، وانتزع رأس محبوبته من المكتبة، غسله بماء الورد ووضعه على مخدة من الحرير، قبل أن يعلم بالصدفة، وبعد شهور، من خلال نميمة مع سكان الحي، بأن حلاوة، محبوبته الأثيرة، لم تكن له وحده، كانت مِلكًا لراوي المقهى الذي يصبّ الملاحم في أذنيها، خبّاز الحي الذي يرسل

الفطير الطازج كل صباح، وصاحب البقالة اليوناني الوسيم.

لم أجرُؤ يومًا على سؤال خِضر عن المنفضة القابعة على المنضدة بجانبه، منفضة على هيئة جمجمة تحمل آثار حرق، وعِشق لاذع مغشوش، يدكُّ التبغ على الجبهة، ويطفئ الأعقاب المحترقة في تجويف الفك، بين الأسنان التي مسحها يومًا بلسانه.

حين انتهى خضر المشاعلي من سرد مأساته، شربنا الشاي ودخَّنا النارجيلة، ثم سألته عن لقب «المشاعلي» فأفاد بأن اللقب مُنتشر بين أهل المهنة، لا يقتصر على شخص بعينه، فكل مَن انضم للطائفة يحمل تلك الصفة بجانب السلم والعصا وحاوية النفط وشارة نحاسية تحمل نمرته، ولما سألته عن أعضاء الطائفة، أفاد بأن الانضمام ليس بالشيء الهين، فهم كالعائلة، وهو كبيرهم، شرط على مَن ينضم، أن يكون على صلة بخِضر، بل وموضع ثقة «نحن نطَّلع على عورات البيوت من علٍ يا سليمان أفندي»، ماذا لو انضم إليكم هجين من القمر؟ دار السؤال بذهني ولم أطرحه، فسألني خِضر عن سبب بحثي، فأجبته بأني أسعى خلف تمثال أسد مفقود يحمل حفرًا باسم المشاعلي، كَسا الغباء وجهه، ثم جرب الفهلوة لمساعدتي حتى استسلم.

ليس للطائفة قوة تُذكر ليُحفر اسمها على تماثيل الأسود، فالمشاعلي مِهنة على الهامش، عفاريت الليل كما يروق للأطفال أن ينادوهم، برغم تاريخهم المفزع كمسئولي تنفيذ الأحكام في الشوارع والميادين، جلْد وإعدامات وتجريس، يستدعيهم القضاة والقواصة، فيتسلمون الجناة، بالحبال والسياط والمسامير الحديدية، ينصبون المشانق على الأعمدة والأبواب، وبأمر العدل، يسلخون جلودًا ويقلعون أعينًا ويسمرون أعضاء، ويُعلقون رءوس الجناة على الرماح فيطوفون بها على بيوت الضحايا ليزفوا البشرى ويشفوا الغليل ويتلقوا النفحات. هم عبيد للآمر، مُنفذين بلا أعين تُبحلق أو ألسِنة تُراجع حُكمًا، ولا يقررون عقوبة، فقط ينصاعون، وحين ينتهون، يعودون لمهنتهم الأثيرة، إضاءة مصابيح الشوارع بالنفط والنار.

قبل نهاية الجلسة استدعى خِضر أعضاء الطائفة، كانوا تسعة عشر، ليس من بينهم جسد مفتول كجسد الهجين، اللعين ينتقي الأجسادَ الفتية، لا يُفضل الأعين المطفأة أو الهامات المحنية، بالإضافة لانتفاء وجود جرح في رسغ أحدهم. لم يطُل بقائي، شكرت خِضر وقررت التوجه في اليوم التالي لورش النحّاتين، بحثًا عن نحّات قد يحمل لقب المشاعلي.

حين وصلت اللوكاندة، وقرب البوابة، كانت العربة الفخمة بانتظاري، يجُرها حصانان رشيقان، ومن وراء نوافذها ستائر خضراء داكنة، يقف أمامها سائس يتحدث مع الرزيل بشماف الذي أشار نحوي فور ما رآني، اقتربت فهمس السائس في أذني: «مِسك هانم، أرملة عصمت باشا حسن»، ولم يُمهلني، نقر على الزجاج تنبيهًا قبل أن يفتح الباب للحرمة التي اتهمتني بقتل زوجها.

من وراء اليشمك الأسود رمقتني، عينان امتزج فيهما الحُزن بجمال عنيد، نظرت إلى شمسيتي فأغلقتها، ثم أشارت إليَّ فصعدت، جلست أمامها مُتحفزًا، سَاد الصمت قبل أن تكشف وجهها: «ما بدر مني يوم وفاة المرحوم زوجي، كان مهينًا، وغير لائق، لم أكن في كامل وعيي، ولا أعلم لمَ ظننتك القاتل الذي...»، وتحشرج صوتها ثم ترقرقت عيناها، فعلمت أنها رأت جثمان زوجها ورأسه المثقوب. تمالكت نفسها: «القاتل لا يشبهك، أنت نحيل كالورقة، وقد أبلغت داغر بك بالحقيقة حتى لا يتهمك زورًا، وإن كنت تبدو

غريب الأطوار، لِمَ تستخدم شمسية في ليلة بلا مطر؟!»، نثرت في وجهها كلمات مُبهمة عن الخماسين متقلبة المِزاج، واحتمالية مطر مفاجئ، ثم سألتها عن يوم مقتل زوجها، فحكت أنها تنام منذ زمن في غرفة منفصلة: «كما تعرف أيها النحيف، إن بنت الدَّار عُورة، مقارنة بالجواري الشركس». ابتسمت في أسى ثم استأنفت: «سمعت صوت زوجي وهو يصرف العبيد والخدم، قبل أن أغفو، وفي الفجر، استيقظت على أصوات مُتداخلة، بدا لي أن شخصًا يتحدث معه بحدة، ثم سمعت صرخة فقمت وَجِلة خائفة، على ضوء السراج توجّهت لغرفته، وقبل أن أصل، تحرك ما ظننته في الظلام عمودًا ثابتًا، لم أستشف الملامح، هاجمني بقوة غاشمة، دفعني، واخترق نصل سكينه كتفي ممزقًا لحمي، صرخت، والتقطت الشمعدان في يأس، قذفته ناحيته فأخطأه، ثم تعثرتْ خُطايا فسقطت وزحفت، فأطبق عليّ وخنقني، حتى غِبت عن الوعي، ثم استيقظت في السرير وسط الخدم والقواصة».

سألتها: لِماذا تظنين القاتل أبقى عليكِ وأنتِ شاهد مُحتمل؟ أجابتني بأنْ لا علم لها، فأدركت أن الهجين لا يأبه بقتل غير ضحايا مُحدَّدين، ينتقيهم طبقًا لمعيار لم أفقهه بعد، معيار يحكمه التنكيل والتشهير والانتقام، هل كشفَ الضحايا سِر توغله وارتدائه أجساد الطبقات الحاكمة عبر العصور؟ هل قرر التخلص منهم بتلك الطريقة لإرهاب أفندينا تمهيدًا لارتداء جسده؟ وأُلقي في جوفي، أن داغر هو مُدبر تلك المذابح، فهو المسئول عن تتبعها والقاسم المشترك فيها، ولماذا قررت مسك هانم زيارتي؟

لم تتركني لهواجسي، أخرجتْ من كيسها المطرز مظروفًا فيه خمسة جُنيهات: «لن أبخل بالأموال حتى أكتشف مَن قتل زوجي، أريد أن أكون أول مَن يعلم، أريد أن أثأر منه قبل أن يصل إليه إنسان»، سألتها عن تمثال رأس الأسد، فأخبرتني أنه هدية تلقّاها زوجها في علبة خشبية، بلا راسِل، قبل وفاته بيوم. إن كان رأس الأسد علامة وإنذارًا من القاتل، فلِمَ لا يسترده مباشرة بعد القتل والتمثيل بالضحية؟ لِمَ يتركه ثم يعود ليستعيده؟ لا تفسير إلا إنه يريد للتمثال أن يُكتشف، أو يرغب في معاودة زيارة مكان الجريمة، الهجين يُعلِن عن نفسه، مرحلة جديدة في طور السيطرة على البشرية؟

ملأت علامات الاستفهام مقصورة العربة حتى وارت مِسك هانم عني، مددت يدي وسحبت الجنيهات من بين أصابعها قبل أن تُغير رأيها، ووعدتها بشرف الكشافة الإنكليز والنضال الوطني الأمريكي أن أعثر على القاتل، ولو في آخر الأرض.

ابتعدت العربة، وحين دسست الظرف في جيبي، اصطدمت يدي بجسم معدني مستدير، راهنت عليه، قبل أن تلتقطه أصابعي، عملة ذهبية من فئة العشرة قروش، مَحفورة بتاريخ سك «١٢٢٣هـ»!

حين صعدت إلى غرفتي وضعت العملة تحت العدسة، تأملتها، شممتها ثم لحستها، الهجين كان أقرب مما أتخيل، احتك بي وترك على بابي علامة «جئت ولم أجدك»، يريد أن يُعلمني بأنني تحت عينيه، مُراقَب، يريد أن يبث الرعب في نفسي، أما عنتر ودون الخروج من خلوته، فقد أوحى إليّ بأن العثور على صانع التماثيل الذي نحت اسم «المشاعلي» سيكون فتحًا عظيمًا، يُقربني من النصر المؤزّر خطوة، وأن من الأصلح شراء عبد أسود عفيّ، يحمي ظهري، ثم تنهد وأنهى وحيه قائلًا: «هأنذا أرسلكم كغنم في وسط ذئاب فكونوا حُكماء كالحيات وبُسطاء كالحَمَام».

في اليوم التالي توجهت إلى ورش النحاتين، أصوات الدق والحفر تَصنع ـ رغم العشوائية ـ نغمات رتبتها أذني في مقطوعة لا ينقصها إلا كماني الأثير، وللعجب! فقد عثرت على تمثال الأسد دون تعب يُذكر،

مرصوص وسط خمسين نسخة منه، في أغلب ورش النحاتين. التمثال ليس مُميزًا، مجرد قالب رخيص متداول لرأس أسد منحوت بدقة. بالحديث مع أحد أصحاب الورش، أفضى إليّ بأنه لا يوجد نحّات في الحي يحمل اسم المشاعلي، وأن ذلك الرأس منتشر منذ شهور في الورش، تاه اسم صانعه الأصلي وسط قوالب النسخ والتكرار، وإن كان يُرجِّح أن الأصل تمثال من تماثيل الفراعنة التي تمتلئ بها خرابات المساخيط بالجنوب، ويُقبل عليها الفرنصاوية والإنكليز لولعهم المرضي بقدمائنا البائدين. بدت الزيارة مُخيبة للآمال، حتى سألت الرجل: هل أتاك شخص يرغب في حفر اسمه على التمثال؟ فأخبرني أن حفر الأسماء من اختصاص شخص واحد في الحي، خطَّاط مَاهر يصبُّ النحاتين في دكانه طلبات الزبائن من الكتابات اليدوية على التماثيل، فتوجهت إليه.

في ورشة بنهاية الحي كان يجلس، عجوز تخطّى السبعين، أحنى الزمان ظهره ركوعًا، لم ينظر ناحيتي حين دلفت دكانه، سألته عن اسم «المشاعلي» فأجاب: «أهلًا وسهلًا، أين بقية الريالات يا أخ؟»، جارَيته بصنعة لطافة: «إنه أحد رجالي، وسأسدد لك ما تبقى ولكن، صِف لي ملامحه، وأخبرني ماذا طلب، حتى أعاقبه على عدم تسديد ريالاتك؟»، رمقني العجوز بشك ثم تكلم: «لقد أتاني منذ شهر، رجل مفتول كالثور، غليظ الصوت، في نصف وجهه الأيسر آثار حرق جعَّدت جلده، ناولني ورقة مكتوب عليها كلمة المشاعلي، وطلب مني حفرها أسفل قاعدة تماثيل الأسد، أنهيت الحفر وتسلّم التماثيل، تحجّج بأنه نسي الريالات، ثم.. فص ملح وداب.

كلمة تماثيل جذبت انتباهي وأجبرتني أن أسأله عن العدد: «لقد طلب حفر سبع نُسخ»، سألته عن اللكنة، فأكد لي أن الشاب لا تُميزه لكنة من خارج القُطر، وإن كان يميل أن أصوله ربما تمتد إلى أهل الجنوب.

سددت له ما لم يُسدده الهجين ثم رحلت.

الهجين قتل اثنين فقط من أصل سبع ضحايا، يتبقى له خمس ليفي بنذره الغامض، خطط لقتلهم في زمن كان كافيًا لتوجيه رسالة تبث الرعب في الصدور قبل وصوله، أراد أن يُزلزل ضحاياه قبل قتلهم بكلمة. المشاعلي، اسم يجبرهم على إخلاء السرايات قبل حضوره، ما الرابط بين أسماء الضحيتين سوى العمل تحت ظِل أفندينا؟ هل هناك قرابة دم؟ أصهار؟ تحكمهم ضفيرة عائلية؟ ولماذا ضمني إلى قائمته؟ لا أشك في ضلوع السلطان عبد العزيز في تلك المؤامرة، ولا أخشى سوى أن يرى الناس سليمان جابر السيوفي، يسير بينهم وهُم لا يعلمون أن الهجين القمري يسكن خلف عينيّ ويعدِّل زر طربوشي.

المزاج بات سيئًا، وازدحام الهواجس في رأسي أنذرني بنوَّة سكندرية عنيفة، قدماي تغوصان في طين الكآبة والشك، رغبات ومخاوف تتسابق، تتكالب وتصهل كألف حصان برّي في مضمار عرضه عشرة أمتار، يدوس بعضها البعض، ترفس بالحدوات، وتعفِّر التراب في إعصار يخترق السحاب، ويهيِّج الأفاعي السوداء فتطل من أوردتي بالآلاف لتتراهن، تُلقي بالريالات المعدنية في الهواء، وتخبط بذيولها على كبدي طلبًا للبيرة، الهمس أصبح صراخًا، وأعين العامة تخترقني، أضع النظارات كي أصد الفضول القاتل، الأفواه لا تنفك تتناول سيرتي، والبوم على الشجر لا يتورع عن الطعن في كرامتي، ومن العجيب، أن ينتابني الاهتياج وسط كل تلك المخاوف، خدر مُمتع اسمه عزيزة، جزيرة تلوح في نهاية الطريق، جزيرة تريحني من السباحة وسط العواصف ومصارعة أسماك القرش. اقتربت من بيتها، راقبت خصاص شبّاكها حتى نفدت برطمانات الصبر، فأرسلت صبي المكوجي برسالة، ونفحته قرشًا لقاء صمته، ففتحت الشبّاك ورمقتني

باستغراب شديد، كأنها لا تعرفني، ثم ابتسمت قبل أن تشير إلى السطح.

زحفت على سلالمها، ثعبان جائع يتسلل لعشة فراخ، كمنت في ركن حتى لاحت، مسحت الأسطح المجاورة بعينيها، ثم رمتني بالجنون، ولم تخفِ ابتسامة ظفر بين شفتيها: «مُتهور يا روميو!»، ثم أخبرتني بأن أنور أفندي للتو خرج للقهوة قبل وصولي بقليل، ولما لمست الشرود في عينيّ أحاطت وجهي بكفيها وسألتني: «مالك يا سليمان؟»، قبل أن تجرجرني إلى عشة الفراخ، وطأتها وطرف جلبابها في فمها، حتى تشنجت ساقاها حول خصري وارتعشت، فجذبتني نحوها، ودسَّت رأسي في صدرها، تاركة العرق ليطهرني من الأفكار والهواجس، أسكتت زلازل التوتر التي انتابتني، ثم ناولتني رغيف سمك وبصلة، أكلت بنَهَم، ثم سألتها، أين كانت في الأيام السابقة؟ ولِمَ غابت عن ميعادنا المقدس؟

فأشارت البضّة إلى بطنها!

لقد نجح الوغد في زرع الجنين في أحشائها، أنور أفندي أبو شمعة قرّر إهداء البشرية نطفته الغالية التي لا تقدَّر بثمن، ركلت دجاجتين وعضضت على شفتيّ قهرًا، وكِدت أرحل فاستدركتني عزيزة: «ما في بطني ليس ابن أنور أفندي»، نظرت لبطنها، وقاومت دوارًا ضرب رأسي، عزيزة تحمل نُطفتي، ووريثًا مُحاربًا سيرث اسمي وملامحي ولبلابي، صالح سليمان جابر السيوفي. ارتعشت من وَقْع الاسم، وبكيت كما لم أبكِ من قبل، ثم جثوت على ركبتيّ متضرعًا، أمام بطن عزيزة، ضممت عجيزتها الكبيرة بيديّ ووضعت أذني أمام سُرتها، وللعجب، التقطت كلمة، اختلطت في البداية بنبضات قلب عزيزة، لكن أذنيّ ميّزتها: «قادم، قادم، قادم»، تتكرر بوَقْع ثابت، صالح يُعلن عن نفسه، يُبشر الخليقة بتفجر الضياء وانبثاق الأمل، ينبئ البشرية بعصر جديد ستسود فيه سلالة السيوفي وتحكم. ولكن، ما لبث الفرح أن تبدد سريعًا على صخر الحقيقة، تلوّث بطحالب الهواجس، وظللته سحابات الخوف، الفرح بوليد يحمل اسمي يختلط بخوف عليه من مصير ينتظره في مواجهة زاحف قمري يعد العدة لقتل أبيه ويضعه في نهاية قائمة الموت.

ولم يُبدد الخوف سوى اهتياج مفاجئ سيطر على حواسي، عاصفة ساخنة دفعتني لوطء عزيزة، حبًّا وتقديرًا وعرفانًا، وحماية لأرضي بنثر سوائلي عليها، حتى لا يقربها غيري، كاتمًا صراخها بكلوة يدي، متحملًا عضات أسنانها المتوحشة، حتى لا توقظ صالح والفراخ والسلطان عبد العزيز، ثم ودّعتها بعدما تركت في راحتها ريالات تشتري بها لحمًا وسمكًا وجرجيرًا ولبن ناقة، ولتتوحم إن أرادت، مبتهجًا راضيًا، وقد تشنجت نواصي فمي من ابتسام لاإرادي، غير مُصدق أني لم أعد سليمان السيوفي، لقد صِرت «أبو صالح».

حين ابتعدت خطوات عن بناية عزيزة، التفتُّ نحو شبّاكها، كانت بين الخصاص تراقب وتبتسم بوجه مُتورد، أملت طربوشي وبرمتُ طرف شاربي غامزًا عيني في حُبٍّ ولَه، ورغم قصر نظري، ورغم الظلمة، شعرت أن أم صالح لا تنظر تجاهي، ابتسامتها تحيد سنتيمترات عن وجهتي، التفت، وأمامي مباشرة، وعلى نفس زاويتي، كان يقف «سيد عجوة»، قِزم أسمر وسيم الملامح، يملك ورشة نجارة تقع على ناصية الحارة، نحت المنشار عضلات ذراعيه وصدره رغم ضآلة أطرافه نسبة لرأسه، يقف أمام دكانه في زهو غير مُبرر، في جيبه إزميل من الصلب، وبين أصابعه مطرقة، يدق بها لوحَ خشب أسمن منِّي، رمي عزيزة بنظرة مُتعلق، وابتسامة على ناصيتها سيجارة واثقة، ثم رمقني بسخرية بثّت البرودة في مصاريني. التفت نحو عزيزة فأدركتها وهي تتوارى خلف الستائر، لن تتابع القتال عليها بين ذَكرين متنافسين، ستتفرغ لصُنع الملوخية

قبل أن يعود أنور أفندي أبو شمعة.

لاحت جرادة، حطَّت على أذني وهمست: «هل تحمل عزيزة في أحشائها صالح، أم عجوة الصغير؟».

أفلتت مني ضحكة، واستغفرت، لا أعيب في خلق الله، ولكن المقارنة مُجحفة، فالعبد لله، حتى وإن ازداد نحافة وهزالًا، حتى وإن كان قِطًّا مُصابًا بالديدان المعوية، حتى وإن تبخّر ظلّي على الأرض أسفل مني، إلا أنني لا أقارن بسيد عجوة، ولا مجال للمنافسة على عزيزة، حتى وإن لبد تحت نافذتها ليل نهار يدق بشاكوشه الأخشاب والمارة والهواء. كل ذلك، لم يمنعني أن أمُر بمرزوق الجبروني، شيخ الحارة، لأتقصى الخبر اليقين، من باب الفضول، شربنا شايًا وسحبنا أنفاس النارجيلة، ثم سألته بإهمال ولا مُبالاة، عن سيد عجوة، فتبدل وجه شيخ الحارة للجدية وكساه الانزعاج، أغلق باب الدكان علينا، وحكى عن السنوات التي قضاها عجوة في الحبشة جلبًا لأخشاب الغابات مع سفن جلب العبيد، والصداقة التي جمعته بقبيلة «الحمر» الإفريقية، وقصة زواجه من بنت زعيمهم الذي طلب أسدًا بالغًا ذا لبدة كثيفة؛ مهرًا لابنته، وما كان من عجوة إلا أن ارتدى جلد لبؤة وقبع بين حشائش السافانا لساعات، حتى اقترب أسد، راوده عن نفسه فتمنّع، وقبل أن يشتم رائحة الغدر، نطر عجوة جلد اللبؤة، وصرع الأسد بضربة شاكوش على رأسه، ثم أدركه بالسكين بعد أن سمّى عليه. وعاد عجوة إلى القبيلة بالمهر الغالي، رأس الأسد، فأقيمت الأفراح والليالي المِلاح، سبعة أيام بلياليها، وفي الليلة الأخيرة، وقبيل الدخول ببنت الزعيم، حقن حكيم القبيلة خصيتَي عجوة، ببوصة رفيعة، تحمل دماء ضبع فتيّ؛ ضمانًا للخصوبة، مما تسبب في فحولة غير محكومة، لضآلة جسد سيد أمام قوة الجرعة التي تناسب جسدًا كبيرًا، فحولة لم تتحمل شدّتها زوجته الإفريقية، وقبل مرور شهرين، وبعد أن أصابتها التسلّخات وكسر بالحوض، بدأت في اختيار زينة فتيات القبيلة لتسد جوع عجوة، بدأت بصديقاتها، ثم قريباتها، إلى أن نفدت الفتيات، فوطأ عجوة الأمهات والصبيات، وكاد يراود الماعز والغزلان، حتى قامت ثورة على زعيم القبيلة من رجال القبيلة، انتهت بمقتله وسلخ فروة رأس زوجته، ليهرب سيد عجوة في النيل على ظهر طوف خشبي، مُجتازًا المستنقعات والشلالات، مُصارعًا التماسيح، حتى وصل إلى القاهرة، يحمل تحت إبطه مرويات، أسالت لعاب نساء الحي، طلّت الشعور من المشربيات ثم حامت الملاءات اللف حول الدكان، يراقبن ويتربصن، ويتمحّكن في دماء الضبع التي تجري في عروق عجوة، عملًا بالمَثل القائل: «قرن شطة ولا فدان أتّه»!

وانتهى شيخ الحارة من روايته ثم بصقَ على الأرض في ضيق فاستأذنته في الرحيل.

الزَّن على الودان أمرّ من السِّحر، وعزيزة مُصابة بالماخوليا، شهوتها متدفقة مثل أرنبة ولود. هل استهواها القزم؟ صعد إلى سطحها وركل دجاجاتها؟ دماء الضبع قد تفعل أكثر من ذلك، ثمانية أشهر وستظهر أمارات الخيانة يا عزيزة، ثمانية أشهر وستُرزقين بصالح، أو طالح، وحينها، سأخرجكِ من جنّتي مذمومة مدحورة، ولن تنالي خلاصًا أو غفرانًا، حتى وإن دُفنتِ معي مثل أرامل الهندوسيات بعد وفاة أزواجهن على طريقة «الساتي».

«واللي يتف تفّة، ما يلحسهاش».

بعد أيام، تلقّيت رسالة باللوكاندة، طلب حضور عاجل لالتقاط فوتوغراف لحرمة الخواجة «فرانكو

جابريال» التي تُوفيت اليوم، وعنوانًا كنت في غِنى عنه، مَن ذا الذي لا يعلم بيت «فرانكو جابريال» أكبر تاجر سلاح في المحروسة، وأرملته ذات النفوذ همّت إسحاق؟!

رغم المزاج المُتدني لم أتعود رفض الرزق منذ وعيت على الدنيا، حتى وإن نفحتني أرملة عصمت باشا خمسة جُنيهات، رطل اللحم أصبح بخمسة قروش. كما أن قفّة الهواجس امتلأت وفاضت، وأردت أن أريح كاهلي من ثقلها لبعض الوقت، انتظاري لضربات الهجين دون خطة متزنة أو رد فعل، يملؤني بالضعف والانهزام، بالإضافة لخيانة عزيزة القاتلة، أراها في أحلامي كل يوم، تُرضع رضيعًا من ثدي، وبالثدي الآخر يتعلق؛ سيد عجوة.

توضأت وصليت، سقيت لبلابي ورددت سورة يس، ثم وضعت الطعام لعنتر؛ الناسك الذي لم يخرج من تأملاته بعد، كان يستند الجدار، يضم أرجله الست على بعضها البعض في توازُن عجيب، ويُغمغم بكلمات مُبهمة لم أفقه منها سوى كلمة «اقتربت الساعة»، ويرعش بجناحيه كل بضع ثوانٍ.

أغلقت عليه بابه بعد تنظيف مُخلفاته، وحين فتحت باب الغرفة وجدت بانتظاري قطة سوداء فاحمة، إلا من بقعة بيضاء ناصعة في ساقها، عيناها زرقاوان عجيبتان، لم تتحرك حين هششتها، فوضعت لها بعض اللبن في طبق، رمقتني طويلًا ثم شربت، فحملت الكاميرا واتجهت إلى العنوان، مُلثمًا بشالٍ يُخفي الملامح، مُستظلًّا من نور القمر وساكنه بشمسيتي، مُستريبًا في كل مَن اقترب مني، لم أعُد أثق في الحمار الذي أركبه، أكاد أشك في شكّي، وأهش جرادات الظنون عن أذني مُرددًا آيات سورة الفلق، داعيًا على عزيزة وعجوة، مُطمئِنًا نفسي بأنني مُعفى من القتل - مؤقتًا - حتى تنتهي القائمة، ما زال أمامي خمسة أسود خشبية، عدّ تنازلي لمعركة أخيرة مع هجين القمر.

حين وصلت إلى حي الدرب الأحمر سألت عن بيت «فرانكو»؛ دار فخمة مُزينة شبابيكها بأحواض البنفسج والقرنفل، تقع على ناصية سكة سوق السلاح. دخلت تحت تكعيبة عنب، واستقبلتني عند الباب ابنة مكلومة في الأربعين، ملامح أوروباوية شقراء، ولسان مصري، قادتني للداخل بين جدران عليها سيوف وبنادق وغدارات تكفي لغزو النمسا، بالإضافة إلى لوحة مرسومة، رجل يرتدي الزيّ الشعبي للبندقية، وتخفي عينه اليسرى عصابة قرمزية، وأسفل البرواز تاريخ وفاة يعود لعشرين سنة مضت، لم أجتهد لأعلم أنه أبوها فرانكو جابريال.

أثناء تجهيزي لسائل الكولوديون بحمّام البيت، وكما اعتدت، مارست الثرثرة مع جارية البيت التي أكدت حكاية، لطالما خالطتها الإضافات الشعبية. فرانكو جابريال؛ صاحب البيت، كان شاعرًا مغمورًا من مدينة البندقية، وتاجرًا للساعات، قدم إلى القاهرة سنة ١٨١٤ ميلادي؛ طلبًا للرزق، فتعرف على الحُرمة «همَّت إسحاق»؛ سيدة مِصرية شديدة الثراء، لا أحد يعلم مصدر ثروتها، هَامت به فتزوّجته وأكرمته وكسَته الحرير والموسلين، ثم أقنعته بترك تِجارة الساعات الفاترة والعمل في تجارة السلاح معها.

فرانكو كَان رقيقًا حالمًا، عجينة طرية بين يدَي همّت إسحاق التي جعلت اسمه في بضع سنوات مُرادفًا لأكبر مستورد للسلاح في المحروسة، بل وتوسعت ورشتُه وتعهدت بتوريد الغدارات والطبنجات المُرصعة للخاصة من رجال القلعة والأمراء، أذكر أن داغر بك كان يحمل غدارة من صُنع تلك الورشة. فرانكو لم يُجِد التصويب يومًا، ولم يكن ماهرًا في التفريق بين أنواع السلاح، فزوجته هي مَن كانت تُدير التجارة، تقابل التجار وتعقد الصفقات، حتَّى ساقته الأقدار في يوم أغبر إلى مُبارزة شرف مع نبيلٍ نمساويّ أهان أهل

البندقية، وعاير فرانكو بأنه يعيش من أموال زوجته وخبرتها المشبوهة، فما كان من فرانكو إلا أن صفع وجه النمساوي بمنديله، إشارة لمبارزة تحدٍّ، دون أن يُعلم زوجته التي لم تكن لتوافق، أراد أن يفاجئها بصلابة لم تعرفها فيه منذ تزوجا.

وتقابل الخصمان، قُرب النيل فجرًا، أوليا وجهيهما شطر الشرق والغرب، تُليت عليهما شروط مبارزة الشرف، ابتعدا عشرين خطوة، وانطلقت رصاصتان، اخترقت الغشيمة كومة رمال خلف النبيل النمساوي، واخترقت الخبيثة محجر عين فرانكو الأيسر، فسقط مثل الشجرة. ألقى عليه خصمه النمساوي نظرة ازدراء وتشفٍّ ثم رحل، وبعد دقائق من سكون الموت، تململ فرانكو، ثم جلس، بثقب غائر في محجره، يتألم كمَن أصيب بشوكة في قدمه، ويتكلم في سرعة وعصبية. ظن الحاضرون أنها سكرات الموت، وأنه سيُسلم الروح قبل وصوله الاسبتالية، ولكن الجرّاح أخرج الرصاصة من رأسه والذهول يتملكه، بعدما استأصل جزءًا من فص مُخه الأيسر وأغلق المحجر بفتيل من القطن.

شُفي جرح فرانكو في بضعة شهور، علّق الرصاصة في سلسلة بصدره، وأغلق عينه بعصابة من الجلد المصبوغ، بل وتصالح مع النبيل النمساوي الذي أراد قتله يومًا، وشربا أنخاب النبيذ، لكن فرانكو لم يعد فرانكو، الإصابة سببت له نوبات مُكررة من الحكي والرغي، لا يمل من قص حكاية الرصاصة التي اخترقت جمجمته ولم تنجح في قتله، ثم تباغته نوبات من الجنون، يصير حاد الطباع، سليط اللسان في المزاح، يسب ويلعن حتى طيور السماء، لم يعد الشاعر الرقيق الذي جاء القاهرة مسحورًا بجمال الطقس منذ سنين، بات مهتاجًا عابثًا يشتري الجواري البيض والسود دون حساب، ويزرع فضائحه أينما حل، يُجرس سمعة فابريقته وأهل بيته، ويبذر الأموال بلا رادع، ووصل به الأمر أن تطاول بعد مشادّة وصفع زوجته على وجهها أمام الخدم حين واجهته بأفاعيله.

بعد شهر، وفي يوم عاصف لم ترَ القاهرة مثله، خرج فرانكو ولم يعد، اختفى أثره كمَن لم يطأ المحروسة يومًا، لتُحاصر الشائعات حرمته، قالوا إنها أنهت حياته درءًا للعار، وقالوا إنها كانت عشيقة للنبيل النمساوي الذي فقأ عينه، وقالوا إنه هرب مع جارية شركسية لإيطاليا، وها هي المسكينة الآن ترقد على الفراش، جثمانًا بلا حياة، دافنة سِرها في قلبٍ فقد الحياة، وبجانبها ابنتها، تصنع لها صورة الموتى لتُخلد آخر هيئة لها بعدما سخرت من اختراع الفوتوغراف منذ ظهر.

في الحجرة، كان جسد الحرمة العجوز مُمددًا على السرير، قسمات صارمة، شعر أبيض لم تُجارِه الصبغات، وبروز ذقن يدل على قوة شخصية وتحمُّل مسئولية، كانت ترتدي فستانًا أخضر مُطرزًا، وعقدًا من اللؤلؤ لم يخفِ جرحًا عتيقًا أغلقته الغُرز في الرقبة. ساعدت الابنة في رفع الجسد برفق، ووضعت المخدة من ورائه، فتحت العينين بالصمغ، وضبطت الإطار استعدادًا لالتقاط الفوتوغراف، حين لاحظت في الجبهة، أسفل الشعر المُنسدل، جرحًا طازجًا لم يتلون، جرحًا غير حيوي، حدث بعد الموت، ثم التقطت أذناي صوت زئير بعيدًا، التفت سريعًا فلمحته؛ أسدًا خشبيًّا أسود يرقد فوق المنضدة، يترصد فريسة، ويرمقني في ثبات. تيبست، ثم تأملت الحُرمة الراقدة في وداعة وقلت في سِري: «سيدتي، لا أحد يعلم أنكِ قد قُتلتِ، لا أحد يُدرك أنكِ ضحية الهجين الثالثة»، تحججت بعطب في لوح الكولوديون، وشغلت الخادمة بغلي دلو ماء كبيرة على نار هادئة. مَسحت بعينيَّ وجه الحرمة، بياض العينين، الأظافر والشعر، كل شيء يُوحي بوفاة طبيعية، ثم سألت الابنة عن اللحظات الأخيرة متصنعًا التعاطف، فهمست بحنجرة حرقها البكاء: «أمي كانت في

كامل صحتها، تناولت إفطارها ودخّنت سيجارها، وارتدت ذلك الفستان دون سبب، ثم تزيّنت على غير عادتها، قبل أن تستلقي على السرير كما تراها الآن. مبروكة، وكأنها أدركت النهاية وأرادت أن يكون الوداع في أبهى صُوَره».

فحصت الأصابع فلاحظت الأهلّة البيضاء أسفل الأظافر واضحة جلية، القلب كان سليمًا يضخ الدم للأطراف حتى آخر لحظة! تلك الحرمة لم تمت بسكتة القلب، وتلك الابنة لم تكن لتغادر الحجرة، فهي من النوع الوفيّ المخلص الذي يلتصق بأمه ويبكي فوق يدها وتسيل برابيره حتى تتحلل الجثة.

وكان عليَّ الكذب، من شدة الصدق، فتحت حقيبتي الجلدية، استخرجت قنينة تحوي زيت «السَّكران» المُركز المخلوط بخلاصة الداتورا، مزيج الأمزجة، غمست منديلي في القنينة، ثم ناولته للابنة: «امسحي وجهكِ واستنشقي. عِطر مُهدئ للأعصاب»، ومثلما توقعت، استنشقت بريبة ثم وضعته جانبًا في استغناء، وكان ذلك كافيًا، فزيت السكران لا يغادر الأنامل، تأرجح رأسها، سفينة انتحر قبطانها، نظرت إليَّ طويلًا، ارتخى جفناها لاإراديًّا، ثم سقطت على يد أمها كشوال فحم، أغلقت الباب وأزحتها برفق، ثم اقتربت من جثمان الحرمة همَّت إسحاق، استأذنتها، مُرددًا في حياء، أن لا حياء في العلم، ثم فككت أزرار الفستان الأخضر بحرص: «جسدكِ يا سيدتي، خالٍ من الجروح، خالٍ من السحجات والكدمات، خالٍ من الأنوثة، عجوز زاهدة ويابسة. أخرجت مشرطي وشققت الجلد فوق وريد بارز فانسالت الدماء بكسل، لزجة لا يُشجعها نبض، ورديّة باهتة، تلك علامة لا تُغفل، اقتربت من الفم لأتأكد من ظنوني، فرجت الشفتين اليابستين فانبعثت رائحة اللوز المميزة، مخلوطة بكيمياء أخرى لم أدركها ساعتها، تماسكي، لا يا ست الكل، لن أخطب ابنتكِ الوفيّة، ولا تحرك العجائز شهوة سليمان السيوفي يا حرمة فاعتدلي، إنها علامة التسمم بالسيانيد، تسارع قلبك بغتة حتى ظننته سيهرب من صدرك، ثم تشنجت رئتاكِ وتوقفتا عن التنفس دون استئذان، فارقتكِ الحياة قبل أن تفهمي ما حدث، فسقطتِ في شلال الموت مثل جذع مقطوع، وأراهنك، فأداة قتلكِ ما زالت في الحجرة، السيانيد هو أسرع سموم البسيطة، ما كان ليُمهلكِ الوقت حتى تعثري عليه فتتخلصي منه، أو تنادي حكيمًا يُسعفكِ».

انتهيت على عَجل فضممت الفستان واتجهت للمنضدة، فحصت رأس الأسد بمنديل واشتممت رائحته، لا أثر للسيانيد على سطحه، لكن المنفضة لم تخذلني، العُملة الذهبية من فئة العشرة قروش، مَحفورة بتاريخ سك «١٢٢٣هـ»، ترقد فيها بوداعة، ومقبض النافذة الخارجي، كان مكسورًا، بالإضافة لأثر غائر في نسيج السجادة، أثر لقدم كبيرة في حذاءٍ جلديّ عليه نقش جنوبي، لقد اقتحم الهجين الحجرة ولم يكتفِ بإرسال هديته من السم الزعاف. استكمالًا للفحص رصدت سيجارًا يرقد على الأرض بجانب السرير، التقطته بالماسِك حذرًا، لم يصل لمنتصفه، تفوح منه رائحة اللوز، عرق السيانيد، دسسته مع العملة في حقيبتي، ثم أيقظت الابنة بنصف بصلة أثارت رئتيها، وقبل أن تتزن سألتها: «من أين أتى ذلك التمثال؟»، مُقاوِمة للغشاوة ترنحت وأخبرتني، أن التمثال أتى بصُحبة مرسال عريض الكتفين، وقبل أن تُنهي جُملتها أتممتها: «في جبهته آثار حرق»، فعقدت حاجبيها: «كيف عرفت؟»، أجبتها بسؤال: «لمَ طلبتِ التقاط صورة للفقيدة؟»، قامت، والتقطت ورقة من درج بالمنضدة: «لم تكن رغبتي، لقد كانت وصيتها الأخيرة، وكأنها كانت تعلم الغيب، فالعمار بينها وبين المسيح لم ينقطع، ورغم أنها سخرت من الفوتوغراف طوال حياتها، ورغم أنها كانت تدعوه بمهنة مَن يجهل أصول الرسم، إلا أنها كتبت ورقة صغيرة قبل وفاتها بدقائق،

وجدتها بين أصابعها»، وناولتني الورقة: «إليكِ وصيتي، لا تحركيني قبل أن تلتقطي لجثماني فوتوغرافًا أفرنكيًّا في موضع موتي، بفستاني الأخضر وعقد اللؤلؤ، صورة من يد سليمان السيوفي القاطن بنمرة عشرة لوكاندة بير الوطاويط، لتذكري أمكِ إلى الأبد».

الهجين يُداعبني، قِط يلاعب فأرًا قبل أكله، يريد ليُحكم سيطرته على الأحداث ليسخر مني، يستدعيني لألتقط فوتوغرافًا لآخر أعماله الفنية، بعيدًا عن أنف داغر بك، أرسل أسده الخشبي، روَّع الحرمة هِمَّت إسحاق، وأهداها سيجارًا محقونًا بالسيانيد، تبخر مع النار في رئتيها، كتم أنفاسها وأوقف نبضها فسقطت، ثم تسلل للحجرة في خطوة مُبهمة لا أفهمها، كسر النافذة ووقف أمام ضحيته، ربما ليطمئن أنها قد تجرعت السم؟ أو ليجهز عليها إن كان بها بقايا حياة، ولكن، لِمَ تخلى عن أسلوبه الأثير في القتل الجائر؟ لِمَ تنازل عن السفك والتنكيل والتمثيل كما اعتاد أن يفعل؟ ربما لأنها حُرمة ولها حُرمة؟! أو ربما لرغبته في إخفاء الجريمة عن القواصة؟ لماذا استدعاني إذن؟

ولم تتأخر الإجابات.

فبدون إنذار، بدون تنويه أو إخطار، انفجر جَسد همّت إسحاق انفجارًا صاخبًا، شطر نصف الجثمان العلوي لحمًا وضلوعًا ودماء، تناثرت على الأثاث والجدران، وتدحرج الرأس على السجادة بعدما اصطدم بالنجفة، وسقطنا؛ أنا وابنتها، على الأرض.

صمَم، نار صغيرة اشتعلت بالمخدة نجحت في إطفائها، رائحة شواء وصريخ متواصل أجبرني أن أصفع الابنة المكلومة على وجهها حتى تهدأ، اقتربت من الحُرمة، أو ما تبقى منها، ألقيت نظرة بين الضلوع، وعاتبت نفسي لإغفال الكيمياء الأخرى المنبعثة من فمها بجانب رائحة اللوز، وتجمعت الصورة أخيرًا في مُخيلتي.

«سيدة همّت إسحاق، لديّ قصة قد تقلق منامكِ ليلًا، اجمدي، الهجين حقن السيانيد في السيجار ـ الذي كان يعلم أنه مزاجكِ الأثير ـ لأنه راقبكِ، استنشقتِ السم مع دخان التبغ، تسلل إلى رئتيكِ دافئًا ناعمًا فأقنعهما باعتزال التنفس، وغار قلبكِ فاتَّبع، وتهاويتِ يا مسكينة بجانب المنضدة، مُحدثة في جبهتكِ كدمة لم تجد الوقت لتتورم أو تتلون، واقترب الهجين من النافذة بعد سقوطكِ، زاحفًا أو طائرًا، كَسر المقبض واقتحم، حملكِ فوضعكِ على السرير، ألبسكِ فستانكِ وزينكِ بالعقد، هيأكِ لالتقاط الفوتوغراف، وواری الكدمة خلف خصلة من شعركِ، ثم فتح فمكِ وغرس قمعًا يصل إلى نصف حلقكِ، صَبَّ سائل النيتروجلسرين بقدر فنجان شاي العصاري، بدون نعناع، وبحرص يُحسد عليه، فالنيتروجلسرين سائل شديد الحساسية للصدمات والارتجاج، ملأ معدتكِ حتى شبعت، ثم ترك الوصية بين أصابعكِ، وصية كفيلة بعدم تحريككِ قبل أن أزوركِ، وخرج مثلما دخل. لم يُرد الهجين أن ينشطر جثمانكِ أثناء تحريك جسدكِ، قدَّر بدقة أن النيتروجلسرين سيتفاعل مع ارتفاع حرارة المعدة الناتجة عن التفسخ فينفجر، بعد أن أزور الحجرة وأقرأ علامات وصوله وألتقط لكِ صورة.

سامحيني يا سيدتي، ما كنت لأُقلق راحتكِ بثرثرتي العلمية، فأنا أقدِّر الظروف، وأتفهم أن رأسكِ للتو طار واصطدم بنجفة، ويقينًا أصابكِ صداع عنيف، أنصحكِ بإغماض عينيكِ وشُرب الماء الفاتر حتى يزول».

صوت انفجار الحرمة أفزع الجيران، استدعى حي سوق السلاح بأكمله، ازدحموا خارج أسوار السراية

مثل الفئران، قبل أن يصل أول القواصة، حبسني في البيت واستدعى رئيسه، الأرناؤوطي بوراك، دلف ببشرة زرقاء باهتة، نثر الغرور أمامه، رماني بالازدراء والتعالي، برم شاربه وهو يستمع لأقوال الابنة المكلومة في شك واشمئزاز، ثم طلب مني إفادة لسبب وجودي، فناولته رسالة الهجين، قرأها قبل أن يضعها في جيبه، ويدخل الحجرة، غاب ساعة، ثم خرج فأمسك بتلابيبي: «لن تنطلي عليَّ حِيَلك يا سليمان يا سيوفي، تظهر مع كل مصيبة كفئران السفن، تمارس ألاعيبك لتتقرب وتتودد لرجل أفندينا، حتى إنك لم تتورع عن دس البارود في جسد حرمة مسكينة ماتت في وداعة، لتُوحي بوجود نية في القتل»، «إحم إحم.. نيتروجلسرين»، أصلحت له المعلومة، ثم حكيت الواقعة من بين ضروسي، فما كان من الغشيم إلا أن أخرج المنديل المغموس في زيت السكران والداتورا: «لقد خدّرت بنت الحرمة يا خبيث يا معدوم الضمير، ولما غابت عن الوعي، رشتت البارود وأشعلته لتوحي بوجود جريمة، هل لك أن تخبرني لمَ يحمل رسّام متجول في حقيبته الجلدية مبضع الحكماء ومنشارًا وأكياسًا؟ لمَ يحمل زيت السكران والداتورا؟»، «مُصور ولست رسامًا متجولًا»، أصلحت له المهنة، رفضت الإجابة عن الأسئلة، وطلبت استدعاء داغر بك، فما كان من الأرناؤوطي إلا أن جرجرني تجريسًا ووضعني مُكبلًا فوق حمار، أحاطني زبانيته، وساروا بي حتى قراقول الرميلة، وضعوني في زنزانة عفنة مزدحمة بالقتلة والأشقياء، تشبعت ملابسي ببخَر أنفاس كريهة وعرق وبول، مضغني البق والبراغيث، واضطررت ـ كي أجد موضعًا لجسدي ـ أن أستمع نصف الليل، إلى مرويات «عزوز البيومي»، بلطجي فشَّار في حجم ثور بلا قرون، تتساقط منه الأكاذيب بغشم يخجل منه إبليس ويتوارى، جلس في ركن، واجتر من ذاكرته عشرين بطولة من بطولاته، دمر خلالها مقاهي القاهرة، اقتحم سرايات باشواتها، وأجبر أمراء بشنبات أن يناموا في بيوتهم من المغرب، ولم أنتبه حتى سأله أحدهم بخبث: «في أي تهمة سجنوك يا معلم عزوز؟ انتكس الأخير للحظات لكنه تمالك نفسه، سب سبّة، وبصق نخامته على ساق أحدهم، ثم أفاد بضيق أن القواصة عديمي الضمير قبضوا عليه ـ والكثرة تغلب الشجاعة ـ لأنه اقتحم بنبّوته ورشة نجار «قزم» يُدعى سيد عجوة ـ تنبهت كقط التقط صرير فأر ـ بعدما حكت له فتاة هوى قصة رحلة ذلك القزم لإفريقيا، ودم الضباع الفريد الذي يجري في أوردته، ووقعه الحارق على قلوب العذارى الهِبل ناقصات العقل. فما كان من عزوز وبنخوة رجولة إلا أن قرر اقتحام دكان عجوة ليحطم كبرياءه وينكل به، ثم يكشف عن أيره ويفضحه وسط أهل الحي، فيُحوله من أسطورة، إلى خرافة وعبرة تتحاكى بها النسوة. وتصدى القزم لعزوز، وجد فيه الأخير عزمًا لم يجده في الرجال الطوال، وقبل أن يُكمل عزوز قصته، ارتفع في الظلام صوت بائس يقول: «وما سبب إصابة رأسك يا معلم؟»»، فأجاب عزوز، بأن خصمه كان أخف حركة، وأعلم بحدود دكانه ـ زي القرد ـ ورغم أنه حمله بسهولة وألقاه في عرض الشارع، إلا أن الصغير الخبيث قذف عزوز بطوبة أخلّت بتوازنه فهوى ـ حظ عوالم ـ ثم قفز فوقه وخبط رأسه بالشاكوش عدة مرات فأفقدته الوعي، مثلما هزم داودُ جالوت ـ عزوز لم يقل ذلك بالطبع ـ لكنه عقب في أسى: «لولا الشاكوش لقضيت على القزم، بشرفي، لأخصيه لما أخرج، ده إذا لقيت حاجة، هعهعهعهع»، ولم تكتمل فرحة عزوز البيومي، فقد سأله نفس الصوت البائس ثانية: «مَن الأطول عضوًا؟ أنت أم هو يا معلم؟»»، فما كان من عزوز إلا أن قام فخلع بنطلونه وقفز على السائل يريد أن يضاجعه، حتى فرّق الأشقياء بينهما، وأدركت ساعتها أن عجوة غريمي ليس بالخصم الهين، وأن عزوز لن يُجيب على السؤال حول عضو القزم أبدًا، لأنه قام بالقياس بالفعل.

ذلك القزم أرسل للتو بلطجيًّا في حجم الجدار، للسجن، ضربه بشاكوش على رأسه وأهانه وسط أتباعه،

ماذا قد يفعل بي إن تصديت له يومًا وقررت الانتقام، بسبب تلقيم وتلقيح أم صالح بدماء الضبع؟

أنتِ في اختبار صعب يا أم صالح.

في منتصف الليل سَكنت الزنزانة بعد صخب، وتعالى شخير الأشقياء، نهيق لا يقدر عليه الحمير، وضعت أطراف منديلي في أذني، حتى لا تتسرب الأفاعي مني إلى أرض الزنزانة، وبدأ ذهني بصعوبة في استجلاء الأحداث واستخلاص الحقيقة من بين الزيف والتشتيت، ثم ترتيبها على نحو يُكمل الصورة المهترئة، وقد دوّنت كل خاطرة بطرف قلم كوبية على رسغي حتى لا أنسى:

ذلك الهجين لا يبغي قتلًا قدر ما يبغي استعراضًا لقدراته على الافتراس، ولا معنى للتنكيل والتمثيل بالضحايا إلا لإنزال الرعب في قلوب الأسماء التالية في قائمته المزعومة. هناك صِلة بين القتلى، الثراء، الاتصال بالقصر، كُل على طريقته، ولا أُرجّح ضلوعهم في مؤامرة ضِد أفندينا؛ فهم في نهاية العمر، خِراف مُسنَّة مطيعة لا تبتغي إلا السكينة بين أرجل العرش. هل يتم التخلص منهم حتى لا يُفصحوا عن أسرار يكتمونها؟ ذلك ينتفي مع طريقة القتل الفاضحة، وربما هم عقبة أمام الهجين الذي يريد الوصول للحكم، سبع ضحايا، سبع عقبات، كصعود سبع سماوات لمقابلة الحي الذي لا يموت، نعم، فرقم سبعة مُقدس في الديانات القديمة.

أعتقد أن قتل ثلاثة حتى الآن كفيل ببث الفزع في الباقين، سيتكلمون، سيستغيثون ويصرخون بهلع، حتى ينجوا بحياتهم؛ فالهجين لم توقفه الحروب أو المجاعات، ولم يصمد أمامه عرش ملك أو إمبراطور، سيزحف على كل مَن يشتهيه فيتخلله ويخترقه ويرتديه ليعيش بداخله، الوقت يضيق، والقائمة تتناقص، دوري في الصف يقترب، وساعة الرمل في رسغ زاحف كافر، والأفاعي في جسدي تتكاثر وتتوحش، يا لها من نهاية مُفجعة لتاريخ سليمان السيوفي!

بعد ساعات نُودي اسمي، أفرج عني رسول من لدى داغر بك، رغم أنف بوراك الأرناؤوطي، خرجت أمامه مُتبخترًا، وكأن الليلة فرح أمي، ركبت عربة مُغلقة، صَعدنا من ميدان الرميلة إلى سراية القلعة في صمت، دلفنا من البوابة المُذهبة إلى رواق ثم دهليز، فحمّام فيه ماء دافئ، ساعدني خادم على الاستحمام، ولما خرجت كانت بانتظاري ملابس تناسب مُقاسي، ارتديتها ثم اتجهت إلى مبتور الورك. كان يجلس في غرفة واسعة خلف مكتب فخم محفور بالنقوش. جلست أمامه في صمت متأملًا العبد الأسود الذي يقف بالباب، بدا كمسرور السيّاف في جموده وثباته، ولاحظت بعد مراقبة أنه لا يرمش. لما انتهى داغر من قراءة الأوراق خلع المونوكل ورمقني بغضب مكبوت: «كيف سوّلت لك نفسك تخدير ابنة فرانكو؟»، فأجبته: «لم يكن باليد حيلة، كان عليّ فحص الجثمان، الحرمة همَّت إسحاق هي الضحية الثالثة»، ضربت الدهشة ملامحه، وأدركت في لحظة أن الشرود الذي علا وجهه، وراءه خيوط عنكبوت تتكوّن وتتواصل بين أسماء الضحايا، ترصد نمطًا متكررًا. صببت في أذنيه تفاصيل ما حدث في بيت الحُرمة همّت، وما قبله من أحداث، لم يقاطعني، رمقني بصمت حتى بدأت أُحصي النتائج وأرتبها من أجله: «سيدي، كل الضحايا متصلون بالقصر، وربما بأفندينا نفسه: عزت باشا مدير خزانة الوالي، عِصمت باشا رئيس طائفة التجار، والآن الحرمة همّت إسحاق، صاحبة فابريقة السلاح الأشهر في بر المحروسة، ومسئولة توريد السلاح الخصوصي بأرباب القصور والأمراء، الثلاثة من المقربين والمَرضيّ عنهم، مَن هم الأربعة الباقون؟ ولمَ لم يتم نشر أخبار تلك الحوادث؟ أكاد أجزم أنك تتوقع الاغتيال التالي».

بدت كلماتي الأخيرة اتهامًا صريحًا واريته بالنظر إلى السقف، رمقني المبتور ثم قام فدار حول مكتبه، أشعل غليونه، وتطلّع من النافذة للحظات طالت، قبل أن يلتفت: «لقد أخطأت بتكليفي لك إنفاذ تلك المهمة، لا أراك إلا أرعن تختلق الخرافات والحكايات لتحلل الريالات التي تتلقاها، إني أعفيك من المضيّ في البحث». لم أتمالك نفسي، ركبني شيطان الغضب، غير عابئ بالمثل القائل: «ارقُص للقرد في دولته»، وقفت وتطاير لعابي على لِحيتي: «لقد هاجمني الهجين، كَسر ضلعي، وأسرَّ لي بأنه وضعني على قائمة القتل، والآن تريدني أن أتخلى عن البحث؟ تطلب مني أن أصير ضحية الهجين التالية، لعلّك تُخفي أمرًا لا تريدني أن أعلمه»، رفع حاجبه: «عن أي هجين تتحدث أيها المعتوه؟»، «هجين القمر»، اقترب المبتور مني، سحب مقبض عكّازه فانفصل، شاهرًا نصلًا حادًّا مشقوق الحافة، وضعه على رقبتي بعد دفعي إلى الحائط: «هجين القمر؟ كان يجب أن أصدق رئيس القواصة منذ البداية، ما أنت إلا مجذوب من مجاذيب الصوفية، ضرب الجنون رأسك، لا تنفكّ تبني من الخرافات قصورًا. ارحل، فورًا، وتمنَّ من الله في كل صلاة ألا ألمحك مصادفة».

قالها وأشار إلى مسرور السيّاف فانقضّ عليّ، جذبني خارج الغرفة بأصابع حديدية، مَسح بجسدي بلاط القصر ثم ألقاني خارج البوابة.

في طريقي للوكاندة تعثرت خُطواتي، بحثت في السماء عن قمر يتربص خلف السُّحب المتآمرة، ذلك الكائن الذي تغزّل فيه القدماء وهم لا يعلمون أنه سِر شقاء أهل الأرض، أتحاشى المارّة كما يُتحاشى المجزومون، لا يُساورني الشك أن الهجين يُراقبني من ركن مُظلم في كل خطوة، يتحين فرصة الانقضاض، ليفرغ لحمي ويحشو جلدي بأطرافه، بعدما كفر بي مبتور الورك، طردني من جنّته لألقى مصيري، وحيدًا وقد لطختني لعنة أزلية من زاحف معدوم الضمير والحراشف.

وصلت إلى بيتي بأعجوبة، أغلقت أبوابي، نوافذي، وفتحَات جسمي الثماني، وتكوّعت في ركن تحت بطانية ثقيلة بعدما دهنت بالمراهم الحامية جلدي، وفرشت فروع اللبلاب على صدري، مُجترًّا مرارة الخيانة، مداويًا طعنات الغدر بصبر الأنبياء على الابتلاءات، مُقاومًا أرقًا عنيدًا كافرًا ينوي المكوث إلى يوم القيامة، لم تفلح معه عُشبة يوحنا، حوّلتني إلى ذئب مُستنفر متأهب متيقظ بعد التهام شجرة قهوة، جفّت جفوني وتقيحت، لثلاثة أيام متواصلة، لم تُراودني خلالها إلا فكرة واحدة: الهرب خارج القُطر، خارج الأرض، حتى داهمتني رؤيا في غفلة سريعة لم تتخطَّ ثواني، رأيت فيها مركبًا ذات شراع، تقودها جارية سوداء لم أرَ وجهها، ورياحًا تحملني جنوبًا للسودان أو الحبشة، أرض لن يطاردني فيها الهجين، مستنقعات وأحراش تحميني أشجارها الباسقة من نور القمر، قد أجد علاجًا قبلي للأفاعي السوداء التي تمرح في أوردتي، أو يهرسني فيل ليُريحني من الشقاء، وربما أنال حقنة مُعبأة بدماء الضباع، تُخلد اسمي في قلوب النساء وأحشائهن.

لذا توكلت على الله، واستبشرت حين رسم اللبلاب كلمة «فِر»، رَصصت حقيبتي بما خفّ حمله من غرفتي، لم أنسَ الكاميرا، لم أنسَ مراهم الوقاية من نور القمر، ولم أنسَ رسائلي، سيرتي الذاتية وتاريخ مسيرتي في رصد رحلة الزاحف وقصة هروبه من الكوكب الأحمر، ثم استقراره في باطن الأرض الأجوف وفي أجساد الخلق المغيَّبين. انتهيت، ثم دخلت غرفة عنتر، كان في حالة تأمل، ففككت جنزيره ووضعت عليه جلابية زرقاء فضفاضة بعد طيّ أجنحته، ثم لفقت يديه بالشاش ورأسه بشال حتى بدا كالناجين من حريق، عازمًا على إيداعه تكية الدراويش المكفوفين، فليس فيها من خدم البوابة وحتى الدرويش الأكبر، مُبصر

واحد، هناك سيجد التقدير الذي يناسبه، فهي ملاذ العاصي والجائع، والذباب اللاسع، لا يبخلون على نفس بتلقّي النور الإلهي، ولا يكشفون سر أعتى المجرمين إن أتاهم هاربًا، ما دام يطلب العلم والمعرفة الإلهية، سيُبجّلونه دون أن تراه الأعين، وسيسمعون كلماته وحكمته، فهو ليس زنّانًا كما يتراءى للبعض، سيُلقي من وراء ستره بحِكَم وتعاليم، كفيلة بأن تضعه في مرتبة الأولياء الصالحين، وإذا أسلم الروح بعد عمر طويل، فسيدفنونه في تابوت مكسو بالحرير الأخضر، ويبنون فوقه مقامًا يطل على الشارع، فوقه طربوش من الجوخ الأحمر، ويُعلقون على قضبان نافذته، صندوقًا خشبيًّا يضع فيه الهائمون دعواتهم وشكواهم.

وألقيت إلى عنتر بقرار الرحيل فأبدى سعادته في زيارة تكية المكفوفين، وسماع التواشيح: «ما أضيق الباب وأكرب الطريق الذى يؤدّي إلى الحياة، وقليلون هم الذين يجدونه»، لكنه عقّب: «ولكن ليس اليوم، فلدينا زائر»، لم أفهم كلماته حتى التقطت أذناي طقطقة في أخشاب الأرضية تحت وطأة خطوات ثقيلة، خارج الغرفة، ارتعش أنفه وتألقت عيناه فأدركت أن غريبًا في بيتي، أغلقت قفل الجنزير حول قدم عنتر خلسة قبل أن يستوعب، وتجاهلت أزيزه ورفرفة جناحَيْه حين خرجت من غرفته، حتى لا يشتبك المسكين في قتال. جرجرت أرطال الرعب وجنازير التشاؤم، ورفعت المصباح، على الضوء الخافت رصدته، كان يقف في الركن المُظلم بجانب المنضدة، يفحص حقيبتي، رفع غطاءها ونثر ما فيها، يومياتي على الأرض بجانب قدميه، وصور القتلى بين يديه، ودون أن يلتفت، وبلكنة جنوبية لا تُخطئها أذن، قال: «أتعلم أن لك مشية مُميزة يا سليمان أفندي؟ تبدو كالهدهد، لا يكاد كعباك يلمسان الأرض. سِرت خلفك حتى حيّ النحاتين، واصطدمت بك عنوة في زقاق المشاعلية»، قالها ثم أخرج من جيبه عُملة ذهبية، ضربها بإبهامه فطارت في الهواء لألتقطها ـ فأدركت كيف وصلت العملة إلى جيبي: «لا تنفك تنبش ورائي، هل علمت مَن أنا؟ أم تلزمك جثثًا إضافية لتدرك؟»

قالها ثم التفت، بلثام يُخفي وجهه، بدا بشريًّا أصيلًا إذا استثنيت عينيه اللتين تلمعان كأعين السنوريات، ورائحة غامضة يعجز أنفي أن يفسرها: «أتيت لتقتلني؟»، سألته فأردف: «لكُنت فعلتها حين التقينا أول مرة»، سألته عن مغزى تمثال الأسد، وحرصه على زيارة موضع القتل ثانية ليستعيده، فابتسم، أو كذلك قرأت في عينيه، عقّب: «الأسد علامة لن يفهمها إلا الجُناة المدوّنة أسماءهم في القائمة، أما الزيارة الثانية، فهي من أجلك، أردت أن أتعرف بالمغفل الذي يسير فوق خطواتي، مَن يضع قدميه على الأثر ويظن كل الظن أنه امتلك الحقيقة، كان عليَّ مقابلتك وجهًا لوجه، فأنفي لا يغفل رائحة الأغبياء». اقترب خطوة فابتعدت اثنتين: «اغفر لي قِصر النظر، وما كنت لأدّعي الفطنة في وجود سيد القمر، إنما هو اجتهاد من العبد لله في سبيل معرفتك»، ساد الصمت لحظات فاستشعرت قبول السؤال: «لِمَ أردت أن تبث الرعب في قلوب الضحايا قبل مجيئك؟ لمَ لم تقتلهم دون إنذار»، طقطق فقرات عنقه: «ربما أساعدهم على تقبُّل القدر المحتوم، أو أزيد تخبُّطهم وأذيب الدهون في أمعائهم كي يُكفروا عن سيئاتهم، ألم تلحظ أنهم لم يُجربوا الاستغاثة؟»، «ولاحظت أيضًا أنَّك تتعمد زرع الألم والتنكيل بأقسى الطرق، لا يراودني الشك في كونك تُريد، رغم اللثام الذي يُخفي وجهك المُشوه، أن تُعرف»، لم يبدُ عليه الغضب من ذِكر التشوه، ولم يبدُ عليه التأثر، فقط أردف: «القتل فن مُحرَّم، مثله مثل الرقص والغناء والشعر»، قالها وهو يتأمل برطمان الجنين «معدوم الملامح» قبل أن يدير غطاءه ليفتحه، دس أصابعه في الفورمالين الحافظ وأخرجه، تأمله للحظات، شم رائحته، لحسه استفهامًا، ثم أعاده إلى البرطمان ثانية: «أنت الهجين؟ ساكن القمر الزاحف؟»، نظر إليّ، أفلتت منه ضحكة

ولم يُعقب، كأنما ألقيت كلماتي على حائط بارد، تسللت أصابعي لسكيني استغاثة فبث الشلل في ذراعي بنظرة من عينيه المضيئتين، وازداد طوله شبرين، لم أملك سوى إطالة الحوار بيننا لعله يُفصح عن خيط أتبعه، أو أبطئ قضاء وقدرًا شاء الرب أن يكون تنفيذه على يديه: «ماذا تريد؟»، ساد الصمت قرونًا، ثم أجاب وهو ينظر للفوتوغراف: «صور الموتى»، مطلب شرعي وحق لكل كائن حيّ في الاحتفاظ بصور لأعماله الفنية. عرضت عليه طباعة نسخة مجانية، «لا أريد نُسخًا، أريد للعامة في البيوت والشوارع والمَحال أن يشاهدوا تلك الصور، أريدها أن تُطبع بعرض الصفحة الأولى لجريدة «الوقائع المصرية» في عددها القادم، وأن يكتب تفاصيل الحادث «مكتوبجي» قصر أفندينا بذات نفسه، ويُذيّلها بتوقيعه»، ألقاها وكأنه يطلب كوب ماء ورد، فأفلتت مني ضحكة عصبية، لم أكن أعلم أن أهل القمر يملكون حسّ الدعابة، ثم أدركت خطئي حين قذف برطمان الجنين «معدوم الملامح» تجاهي، ولولا انحراف طفيف لانكسر في وجهي بدلًا من الحائط. أخبرت الهجين أن ما يطلبه هو المستحيل الخامس، فجورنال الوقائع عاد للطباعة منذ شهر واحد فقط، بأمر من القصر، أُفرج عنها بعد سنين من المنع والانقطاع طوال عهد أفندينا الأسبق سعيد باشا، عدو الجورنالات والمجلات، كما أنها الجريدة الرسمية للقُطر، لسان القصر!

كأن لم يسمعني زفر بصوت مسموع، وانبعثت منه روائح عدم الرضا ونفاد الصبر، فعرضت عليه أن يرسل الصور للجورنالات الأوروباوية، فمعظمها معارِضة مُناوئة كالحريم الثرثارة، تشتهي الحكايات الساخنة والأخبار المثيرة حول حاشية أفندينا. اقترب، حتى لم يعد بيني وبين الحائط من خلفي موضع نملة، سَرت القشعريرة من رأسي حتى قدميّ، وجلجلت الأفاعي السوداء بداخلي، أجراس كنائس تعلن البشرى باقتراب حملة صليبية: «ألم تسأل نفسك كيف يُقتل ثلاثة أشخاص بتلك المكانة، ولا يصدر عن القصر بيان، أو يتسرب للجورنالات والدوريات خبر؟»، سأل ولم أملك إجابة، فقط تمنيت ألا أُبلّل سروالي في حضرته، جذب كفي وقبض على رسغي، ثم أغمض عينيه وتمتم بكلمات عجيبة: «بحق العمّار، وسُكان البحار، والآكام والحمّامات والأزِقة والأسواق، بحق العهد الذي تعاهدتم به على باب الهيكل الكبير، بعلشانش، مهراقس، شعمونهش، أجبني يا أحمر»، وما هي إلا لحظة، وخرج من وراء ياقته، عقرب أحمر، له زوج مخالب ضخمة، وذنَب بنهايته إبرة داكنة، تمشَّى على رقبته، كتفه ثم عضده فرسغه، وما إن استقر بأرجله الثماني في كفي المشدودة إلى قبضته، حتى ارتفع الذنَب وارتعش، استعدادًا للسع راحتي. لم أملك رفاهية الصريخ، ولا القوة الكافية للهروب من أصابع الهجين الغليظة، اقترب، ومن بين ضروسه همس: «لا تتحرك، ولا تصرخ، حتى لا يلسعك، فصبر العقارب قليل، إنه الآن يشتم رائحتك، يحفظها، يستطيع أن يستعيدها بمجرد ذكر اسمك، ويستطيع أن يتعقبك، من بلاد الصين، لن يوقفه ضارٍ أو طائر، ولن يستسلم حتى يأتيك فيغرس إبرته في إحدى عينيك»، احتمالية القفز من النافذة راودتني عشر مرات في عشر ثوانٍ، ولولا أصابعه التي تشبه الكلابات السرطانية، لفعلتها دون تردد، سكت للحظات، تأكد من نفاد الرعب في كياني ثم أردف: «أبلغ أسيادك تحذيري الأول والأخير، إن لم تُنشر صور القتلى ومن تحتها أسماؤهم وألقابهم، مصحوب ببيان وافٍ بالتفاصيل، في صدر جورنال الوقائع المصرية، العدد القادم ليلة السبت، سأستأنف القتل، ولكن تلك المرة ستكون الأضحيات أكثر سمنة، وأثقل وزنًا، وستصرخ كالخِراف حتى يصل صوتها للكافر إسماعيل فيتقلقل فوق عرشه، ولا تنسَ اسمي.. المشاعلي، فالتاريخ، لن يُكتب دوني».

تخشّب حلقي واحتقنت دمائي، هززت رأسي مؤمّنًا على ما قال لعلّه يستدعي العقرب، لكنه استطرد: «إن لم تُنفذ ما أمرتك، إن اخترت الهرب أو تنصّلت، فسيتبعك العقرب الأحمر حتى يجدك، ولو في آخر

الأرض»، قالها ثم تمتم بالكلمات الخفية، فتحرك العقرب، اتخذ نفس الطريق حتى توارى وراء ياقته، ترك بعدها كفي فسحبتها قبل أن يبدل رأيه، ثم مدَّ أصابعه للمصباح الذي أحمله، أدار فتيلته بهدوء فانطفأت الشعلة، ساد الظلام دقيقة كاملة، لم أجرؤ على الحركة، ولم ألتقط صوت رحيله، جحظت عيناي حتى كادتا تبظان من محجريهما بحثًا عن ظل يتحرك، ومرت دقائق طويلة، قبل أن أدس يدي في جيبي وألتقط الولاعة، احتكت أحجارها فاشتعلت وللعجب، الهجين كان يقف كما تركته، على بُعد شِبر مني، انتفضت، نظرت في عينيه فارتعشت النار وانطفأت، حككت حجر الولاعة بهلع حتى استجاب، وفي تلك المرة، لم أجد للهجين أثرًا!

أصابني شلل، وفقدتْ ساقاي القدرة على حملي فبركت على الأرض، حمار مهزوم ناءَ بحمله، حتى إنني لم أجرؤ على تتبعه أو مراقبته من النافذة، دعيت الله أن يقتل بشماف في طريق خروجه، أو يلكم أعمدة اللوكاندة حتى تنهار على رأسي فأرتاح، واشتعلت في رأسي حرب أهلية، بين شعب همجي، لا أحد من أفراده يستوعب الحوار الذي دار للتو بيني وبين الزاحف الأعظم، شيطان القمر، مُتجسدًا في هيئة رجل مفتول قابل للاشتعال، أعطاني رسالة واضحة، إنذارًا، وكلّفني بتبليغه لقوم فقدوا إيمانهم بي، يُريد أن يُعرف، مثلما أراد الرب أن يُعرف حين خلق الكون وخلق الإنسان.

الهجين لكنته جنوبية، قوته غير محدودة، لا تسري عليه القوانين الأرضية، لا يهزه سلطان العروش، ولا يأبه إلا لتنفيذ ما انتوى عليه منذ انفجر كوكبه واعتلى سطح القمر، لن يردعه رادع، سوى نَشْر صور الموتى في الجورنال الرسمي، ليبث الرعب في النفوس، ويكسو بصبغة الهلع مَن تشرفت أسماؤهم بالتدوين في قائمته الدموية، الهجين يُدشن مجده الأرضي في الجورنال الرسمي، يتجلى، طالبًا عون العبد لله، عارضًا العفو الشامل عن روحي، رافعًا سدًّا صخريًّا في وجه فيضان الدم قبل وصول الدور في القتل للاسم التالي، الحروب الأهلية في رأسي لا تنتهي عادة بانتصار فئة معينة، فدخان الخسارة يُظلل رأسي، ورئتاي تمتلئان برائحة الدماء، لا تترك خلية في مكانها، تُبعثرني، تُبدّدني، وتمارس الأفاعي السوداء بيع السلاح بين أعضائي لتؤجج العداوة والبغضاء.

لم ينتشلني من كبوتي إلا صوت خربشات أظافر أمي، قمت منزعجًا واقتربت، أزحت أغصان اللبلاب ووضعت أذني على الجدار، فنادت بصوت خافت: «سِليمان.. سِليمااان»، أجبتها: «نعم يا أم سليمان، أتريدين ماءً؟»، فصرخت بخَنفها الشيطاني: «صالح مش ابنك عشان أنت خول يا سليمان». لعنتها في سِري، وضربت الجدار بقبضتي حتى تورّمت، ثم التقطت الجنين «معدوم الملامح»، حكيت له حدوتة أمنا الغولة، ثم قبّلته ووضعته في برطمان جديد ملأته بالفورمالين، أفرغت بعد ذلك حقيبتي ووضعت فوتوغراف القتلى في ملف، وعزمت النية ألا أقضي ليلتي في غرفة باتت محطة من محطات الهجين وعقربه الأحمر.

أعلم أن اللجوء لمارستان ورش الجوخ بحي بولاق أمر مشين، لكن المضطر يركب الصَّعب، فبعد نوبة أرق تخطَّت الثلاثة أيام وانتهت بزيارة الهجين لغرفتي باللوكاندة، يتحول المارستان من ملجأ مُهمل للمجاذيب والمُعذبين بأمراض الدماغ المزمنة ـ عافانا الله وعافاكم ـ إلى جنة من جنان سلاطين العثمانلية، حتى وإن اعتبرني الحكماء مريضًا من المرضى، أو ممسوسًا بالجان، حتى وإن تسلسلت بجانب لمعي ساموبل

الذي يدّعي الألوهية، أو نِمت على ساق خليل كاظم الذي يضاجع القطط، لا بأس باصطناع المناخوليا أحيانًا، ولا مانع من حمّامات الماء البارد التي تصيب جسمي بالصدمة، التغيير سُنة الحياة، وعلى الأقل سأحظى بنومة آمِنة وراء باب حديدي يحميني، بعدما انقلبت حياتي رأسًا على عقب.

خُضت الشوارع فوق حمار استأجرته، مُراقبًا خيالي حين أمر أسفل مَصابيح الإضاءة لأتأكد أني أركب فوق الحمار وحدي، الأشجار تطرح ثمار الزقوم، تهز فروعها البوم لتهوي فوق ظهري، الوطاويط تتنافس لتشخ على رأسي، وتراب الأرض يكرهني. حتى لاحت بوابة المارستان الصدئة، خلعت قبعة الحكمة وتوضأت بمياه الجنون، طلبت اللجوء للاستشفاء برعشة مشلول وصِياح كصياح الديَكة، مُدعيًا رؤيتي لطائر عنقاء عملاق يطير في سماء القاهرة. استقبلني تومرجي ضخم الجثة، فوق رأسه قفص حديدي يحميه من اعتداءات المرضى، وعلى مريلته إفرازات النزلاء الصفراء، لم تبدُ عليه الدهشة مما قلت، فأمثاله اعتادوا الشياطين التي تطل من أعين المرضى، فقط سأل عن اسمي، عنواني، دونهما بخط رديء في سجل عتيق، ثم قبض على عضدي بأصابع عملاقة، جرجرني إلى ساحة تتوسطها شجرة جميز عتيقة أفضت إلى ممر ضيق في نهايته مغسل رطب، جرّدني من ملابسي دون أن يطلب مساعدتي، وضعني في سروال واسع فوقه قميص فقدَ أزراره، ثبّت الحزام الجلدي حول خصري، وأغلق أصفاده على رسغي، ثم وضع طوق ضبط النفس الجلدي على رقبتي، وجذبني من سلسلته، مكاري يجر حماره المطيع، تجاه حلة نحاسية ترقد فوق نار هادئة، رفع الغطاء وغمر الكوز، سحق أنفي بسبابة وإبهام، ثم صب خليط أعشاب النوم المُرة في حلقي، لم أتردد في تجرعها، «مَن قال إني أملك حق الرفض؟!»، رغم معرفتي بتأثيرها الذي يسلب الإرادة، قبل أن تحدثني نفسي بأن تلك الأعشاب طعمها مختلف، ربما تكون مسمومة، فبشماف صاحب اللوكاندة ابن هِرمة وإيده طايلة، ولن يتورع عن رِشوة تومرجي المارستان ليقتلني. وتملَّكني اليقين فتقيأت في غفلة منه، بعدما دفعني إلى غرفة مزدحمة بثلاثين نزيلًا وأغلق أصفادي على حلقة حديدية بالجدار.

قضيت ليلتي ما بين همس المجاذيب واستراق النظر إلى السحاب الخبيث من وراء قضبان نافذة السقف، مُتمتمًا بأوراد النجاة وكشف البلاء، داعيًا على داغر بك مبتور الورك بأن يقضم التمساح وركه الأخرى، ليسير بعصايتين البقيةَ الباقية من حياته، وعزيزة بنت الزانية، متمنيًا لها أن تُلقى في نار جهنم بعد أن يغزها الزبانية بالحِراب في مؤخرتها التي أعشق، حتى رُفع أذان الفجر، فساد الصمت بين المجاذيب، تيممت، وسجدت دهرًا، مُستحلبًا النوم، حتى توقفت الأرض عن الدوران، وحين رفعت رأسي، لاحت في السماء عنقاء عملاقة، بجناحين مهيبين، رأس نسر، وجسم أسد، وريش في لون الذهب، لم أصدق عينيَّ حين مر الظل العملاق، ولم أتمالك نفسي حين دارت دورة قبل أن تطير تجاهي، تُسدد منقارها المدبب إلى رأسي، وتغقغق بصوت أصابني بالطرش، اندفعت نحو النافذة بسرعة هائلة، دفعت القضبان بمخالبها فانهار السقف، لتحط بين المجانين في شموخ، التقمت اثنين لتُشبع جوعها، ثم دنت مني، تبولت لاإراديًّا، ثم انتابني خدر عجيب، مسلوب الإرادة عاجزًا عن الاستغاثة وغير مؤهل لرد فعل يُذكر، مدَّت منقارها وهمست في أذني: «سليمان! مش عاوز تشوف ابنك؟».

تلك لم تكن العنقاء، تلك كانت عزيزة «أم صالح سابقًا» عشيقة الضبع سيد عجوة، تقف أمامي ومن ورائها شمس ناصعة تشوي حدقتيّ، في غرفة ضيقة لا تمت بصلة للعنبر الذي صَلَّيت فيه الفجر على أجساد المجاذيب. عزيزة كانت تحمل بين يديها لفّة، بها طفل، ميّزت قدمين صغيرتين فانتعش فؤادي، وضعتُه في

حجري فتأملته، جسد طفل ورأس ضبع، فتح فمه ليتثاءب فلاحت الأنياب، وقبل أن أستوعب، قضم عضُدي فاستيقظت.. في البداية لم أستوعب لَمن تنتمي الركبة التي تضغط على صدغي الأيمن لتهرس الأيسر في الأرضية الحجرية، عظام وجهي تنشرخ، تتفتت، ويداي عاجزتان، كفي اليُسرى مربوطة بقدمي اليمنى مثل جَمل هائج يقاوم الذبح، أتأمل سِن إبرة غليظ ينسلت من جانب رقبتي بعد حقن سائل حارق لم أختبر ألمه من قبل، دقائق معدودات لم أميز فيها مَن يهاجمني، حتى بدأ مفعول المُهدئ يسري، ارتخت أطرافي كمنديل مُبلل ولانت عظامي، وهنَتْ عزيمتي ويئست من المقاومة، استلقيت على جانبي وبدأت في استيعاب مَن حولي، التومرجي ذو القفص الحديدي وتوأم له يُشبهه، الحكيمباشي ساسون، ومن ورائهم عزيزة في زيّ الممرضات الأبيض، تنظر إليّ بملامح قلقة مشفقة، كأني شيخ المجذوبين. علمت من الحكيمباشي بعد دقائق أني حين أتيت المارستان ليلًا، وتقيأت الأعشاب المهدئة، بدأت نوبة هلوسة لن أدوّن منها ـ حياءً ـ إلا الصريخ بصوت عالٍ، السَّب بأقذع الألفاظ، تجريسي لسيرة سيد عجوة والنداء على عنقاء تطير في سماء العنبر، وانتهت الفقرة بخلع سروالي وإخراج أيري في تباهٍ، والتبول على جيراني المجانين، حتى اقتحم التومرجي العنبر وهدأني بسرنجة وهو يُغمغم: «قلة النوم تعمل أكتر من كده».

في اليوم التالي أفقت، عاد إليَّ رشدي وانزوت هواجسي في شقوق الجدران، فأدركت أن السرنجة كانت تحوي مستخلص عشبة يوحنا وزيوتًا أخرى. زارني ساسون ليطمئن على حالتي، فطلبت منه نزع الطوق الجلدي والسلاسل، وأخبرته أني جئت طواعية، وهربًا، بعد لقائي بالهجين. نظر في عينيَّ بقلق، ثم همس: «عزيزي، أنت لا تتناول دواءك، جافاك النوم أيامًا طوالًا حتى تبدلت الحقيقة في عقلك بالأحلام، وقد استمعت بأذنيك ما اقترفته في الليلة الماضية، لا أريدك أن تشعر بالذنب أو تلوم نفسك، ولكن، هل تريد أن تقضي عمرك هنا؟ ـ وازداد همسُه همسًا ـ أفندينا أصدر أمرًا سريًّا بعدم خروج فاقدي الأهلية من العنابر، وإخصاء الميئوس من حالتهم حتى لا يتناسلوا فتنتشر أمراضهم بين الذُّريّات، ومَن تأكد مرضه فسيتم منعه من الزواج، وشدّد بعدم عودتهم للسكك والميادين، حتى لا يفسد وجه العاصمة حين تُستقبل الضيوف والخواجات، ما رأيك؟»، طلبت منه أن يُمهلني حتى آتيه بالبراهين والأدلة على صدقي، فقام يتمشى، فراشات الصبر تطايرت من حوله، فتح الباب وأشار للتومرجي ذي القفص: «سليمان أفندي سيشرفنا في المارستان بضعة أيام، ولن يخرج قبل أن نتحدث ثانية»، وأُغلق الباب، على رأسي.

قضيت ساعات طويلة قبل أن تأتيني عزيزة بالطعام، تُخفي عشقها المزيف بملامح صارمة، حتى انفردنا، فسألتني عما جاء بي إلى المارستان بعدما زُرت سطحها وركلت دجاجاتها وبشّرتني بغلام حليم. واجهتها بيقيني، حول علاقتها الآثمة بالمدعو سيد عجوة، وكيف اختلط الشبق بالخيانة في عينيها وقت وداعي، وكيف تلقيت سهام الغدر بصدر مفتوح، وكيف أن «النخلة لمّا تطرح قوطة تبقى نخلة شرموطة»، وما كان منها إلا أن صفعتني قبل أن أسترسل، ثم هزت أردافها: «عااااجوة!! قال عجوة قال!!»، ثم شهقت: «ده حيَاالله بوصة، عُقلة صُباع، لا بيهش ولا بينش»، وحين سألتها: «كيف عرفتِ؟»، أخبرتني بأنها ذات يوم، ولما كان الفضول قد بلغ بفتيات الحي وجيرانها من النسوة عنان السماء، أرادت أن تأتيهن باليقين لترتاح النفوس من التنهدات الساخنة، فطلبت من سيد عجوة الصعود إلى الشقة بحجة إصلاح درفة الدولاب، في غياب أنور أفندي، ثم راودت القزم عن نفسه، وقالت هيت لك، حتى ظن أن الحظ أتاه، خلع سرواله، فقربت المصباح وتلقت الصدمة، فدماء الضبع التي حُقنت في عروق سيد عجوة، لم تكن سوى أعشاب كركديه مغلية مع الينسون.

انتهت عزيزة من سرد قصتها فجلجلت بضحكة رنانة، ثم احتضنتني ورقّ صوتها وهي تهمس: «بقا يا عايب، يا ساكن الزرايب، تشك في سيرة وسمعة عزيزة الشبكشي؟!»، وأمسكت بكفي فتذكرت قبضة الهجين والعقرب الأحمر للحظة فسحبت يدي، قبل أن أستجيب لها مستدركًا، مصمصت شفتيها في حنق، ثم فردت أصابعي على بطنها الناتئ، فأفلتت مني ابتسامة، وضممتها بحنان، فقلبي قلب أرنب يفيض بالغفران، ناولتني جرعة أخيرة من العشب المهدئ، وطلبت مني الراحة حتى تهدأ أعصابي وتصفو مُخيلتي وأغادر مارستان ورش الجوخ بسلام.

أغلقت خلفها الباب فبركت في ركن، ألعن الشك والظنون، وأتحسر على خيالات أعاقت مركبي في البحر، وضلالات صنعت في شبكتي الخروم، خروم تسللت منها الحيتان والحوريات والأخطبوط، وما باليد حيلة، وكما قال الحكيم ساسون، يجب أن أتوقف عن لوم نفسي وجلد الذات، فالزمان ملعون يقترب من نهايته، قيامة تدنو، تتربص بنا دون أن نشعر، وجنس بشري بلغ قمة الغرور، ماذا سنرى بعد اختراع التليجرافات الكهربائية؟ أي جنون ينتظرنا بعد ماكينات الخياطة Singer؟ هل سنطير يومًا مثل الحمائم؟ أو نبلغ القمر فننسفه بالبارود؟ إنها النهاية المفجعة يا أفندية، والحمد لله على سلامة الوعي من الخرف حتى الآن.

سبَّحت بعدد أناملي وتلوت في سرّي أوراد الغوث، حتى طهرني البكاء من خطيئتي وغسل صدري، فأغمضت عينيَّ، غبت عن الدنيا لساعة أو يزيد، حتى حان المغرب، تسلل صوت الأذان مع أشعة الغروب الحمراء من بين القضبان، ثم لاحت جرادة، حكَّت أجنحتها فانتبهت، رددت السلام فتمشّت على الجدار ثم دارت دورتين قبل أن تحط فوق كتفي اليُسرى، اشتكت من قلة الزرع، وسوء معاملة جرادات تربت بينهن، وغياب الضمير في البيع والشراء، ثم مصمصت شفتيها، واختتمت أخبارها بحكمة: «تحت البراقع سم ناقع»، وقبل أن أتمعن في المَثل سألتني: «بالحق، ماذا كانت عزيزة لتفعل إذا اتضح صدق رواية سيد عجوة حول دماء الضباع التي تسري في دمه؟»".

قالتها ثم ألقت السلام وطارت، مُوارِبة الباب لقبائل التتر والصليبيين حتى يدخلوا المارستان إن شاء الله آمنين.

خلال يومين من الإقامة في مارستان ورش الجوخ، مارست السمع والطاعة بين يدَي التومرجية ذوي الأقفاص الحديدية، وتحت إشراف عزيزة الشبكشي، إن كان لك عند الكلبة البلدي الحبلى حاجة قُل لها «يا ستي»، شربت الأعشاب المنومة بالكوز، وبصقتها في الأركان، اندمجت مع المجاذيب، غنّيت وفلّيت القمل وتحملت انتفاضاتهم الهستيرية، وتقبلت بصدر رحب زيارة حُرمة عقيم وطلبها المرور فوق وجهي وأنا مُكبل ومغمض العينين ـ حتى لا أكشف قعرها ـ سبع مرات، لتنفك عقدة رحمها، وتنجب طفلًا كما وصف لها العراف. صدقني التومرجية والمجاذيب والنمل، ولم يصدقني الحكيمباشي ساسون، ابن اللئيمة لا تنطوي عليه الأعراض، ما إن نظر في عينيَّ وسمع إجاباتي عن أسئلته حتى أدرك بخبرة يهودي، أن النوم يُجافي عينيَّ، وأن الأرق مزمن، وأن عقلي يعمل بكل طاقته كقطار بخاريّ يلتهم في الدقيقة ألف رطل من الفحم، فأنا إذن، لا أتناول العشبة المهدئة. ربت على كتفي وطلب مني ـ وكأنه اختيار ـ التمهل في الخروج ليطمئن على حالي، حتى اضطررت بصنعة لطافة وخفّة يد نشَّال أريب أن أسرق مفاتيح طوقي الجلدي من جيب التومرجي، وأتسلل في جنح الليل هاربًا.

«قالوا للمشنوق غطّي رجليك؛ قال إن رجعت عاتبوني».

في طريقي للقلعة كتبت رسالة لمبتور الورك حول زيارة الهجين لغرفتي، وطلبه نشر صور القتلى في جورنال الوقائع وكذا وكذا، أدخلها الحارس إلى جناحه، مُرفقًا بها ظرفًا يحوي صور الموتى، وانتظرت في حوش الديوان ساعة، قرضت فيها أظافري حتى وصلتُ إلى كوعي، قبل أن يخرج الحارس برسالة مقتضبة ووجه صارم: «تمام».

في غرفتي باللوكاندة، كمنتُ يومين، أوصدت أبوابي ونوافذي، بيات شتوي وددت لو اكتمل بشرنقة تُغلفني فتخفيني عن الأعين، لعلّي أُخرِج فراشة، أو ذبابة، أو أموت بداخلها فيتحنط جسدي كأجساد الفراعين، فالهجين يترصدني، والعقرب الأحمر لا يكاد يغادر مُخيلتي، أراه في كل غفوة وأنتفض مع كل ظل يتحرك. وحين انقطعت الأسباب وضربني اليأس في مقتل، دلفت إلى رفيق الدرب عنتر، رفعت عصابة عينيه ثم سألته المشورة، فتململ في جلسته، شخصَ ببصره للسقف وغاب لدقائق، ثم طلب الحشيشة، سحب أنفاس النارجيلة، ثم أخبرني بكلمات يُغلفها الوجل: «إيمانك يخلصك، فالعقرب الأحمر عدو عظيم، يعود لأزمنة تسبق بُناة الأهرام، لا يخدم إلا أسياد الجنوب الجبارين، أسيادًا لا تعرف الهزيمة». سَرت قشعريرة على جلدي وغمرتني الشفقة على سليمان السيوفي، فناولني ليّ النارجيلة، سحبت نفَسًا أشعل السعال في رئتيّ ولم أتمالك نفسي فبكيت، ضمني بثلاث أرجل ثم همس: «ذلك العقرب مُحقق غايته ولو قامت الساعة، لن ينفعك هروب وإن بلغت قعر مُحيط، ولا سبيل لنجاتك إلا بالعمل الشاق والتركيز، فعقلك يفقد وهجه حين تتناول العشبة المسمومة، وحين يتجلى عدوك اللدود»، سحب نفَسًا لم يُخرجه، ثم أردف: «سِر على خطواته، ضع نفسك مكانه، وفكّر في الرابطة التي يُخفيها الأسياد. قطع طريق الهجين يكمن في كشف سِره ومُباغتته، وبينكما ميعاد لا تفوته، في منزل الضحية الرابعة، ستجمعكما جلسة»، انتهى فسكت، كما تسكت العواصف، دون مقدمات، أغلق ثلاثة آلاف عين وهامَ في ملكوته، وضعت العصابة على عينيه وأغلقت الباب بهدوء، عاقدًا العزم على تنفيذ نصيحته.

بدأت بحثي بمد الخيوط الرفيعة فوق مَسار حَركة الهجين في غَرفتي، لرصد آثار زيارة بدون ميعاد. بصمة قدم أمام الشبّاك أرشدتني لمكان تسلُّله إلى الغرفة، رصصت فوقها حبَّات الأرز وراء بعضها البعض فأفضت بمقاس قدمه، ما بين نمرة خمس وأربعين وست وأربعين. الهجين ـ وليس شكًّا في مقدرته على الطيران ـ قادر على تسلق الجدران، أو النزول بسهولة من سطح اللوكاندة، لكنه قبل أن يفعل، دهس وحلًا فيه عفونة خضراء جافة. ألقيت نظرة من النافذة إلى الشارع فوجدت الأرض جافة يكسوها التراب، ثم ميزت بصعوبة حبلًا مشدودًا، بين السطح ورافعة بير الوطاويط، فالتقطت شمسيّتي وقفزت سلالم اللوكاندة، وما هي إلا لحظات حتى اقتربت من البئر التي حفرها «ابن حنزابة» وزير بني الإخشيد، لنقل المياه إلى سبعة أسبلة تروي الناس بين خطّي باب زويلة وجهة الخليج.

لقرون، ظلت البئر مَصدرًا للري والارتواء، وفألًا للخير تتوارثه الأجيال، وعنوانَ إرشاد لعابري السبيل والتائهين، مواكب موالد أهل البيت يقضون لياليهم متحلقين حولها مستأنسين، وزفّات الأعراس لا تكتمل حتى تمر بها ويُسقى العريس شربة ماء من دلوها تُبشره بالخلفة الصالحة.

وتناثرت الحكايات حول بِركات مياه البئر التي لا تنضب، والعذوبة التي تروي الحلوق وتأسر القلوب، كان أكثرها تأثيرًا، حكاية مفادها أن البئر بعد أن تتعمق في الأرض عدة أميال، تنحرف شرقًا وتَعبر أسفل البحر الأحمر، ثم تتوغل في أراضي الجزيرة العربية حتى تصل إلى خزان مياه غويط، يخرج منه فرع آخر، في نهايته، بئر شيدها عاشق العُشاق، شاعر العرب المِقدام؛ عنترة بن شداد. بئر شهدت لقاءاته السرية بمعشوقته الآسِرة؛ عبلة، في ليل الصحراء، تحت الأقمار المكتملة، حيث هنئ بخلوات أشعلت جذوة الغرام، خلوات جعلت من عنترة، أفضل مَن نطق بالغزل في شُعراء العرب.

أما الحكاية على الطرف الآخر ـ بئر القاهرة ـ فقد اتخذت مُنحنى آخر، حيث اتفق الناس بدون اتفاق، أن مَن دقّق وتمعّن في مياه البئر ليالي اكتمال القمر، وألقى إلى البئر ببارة أو قرش، فسيرى وجه حبيبته التي لم يصادفها بعد، وسيكون حُبهما جارفًا كاسحًا مثل فيضان النيل، مثل حُب عنترة لعبلة. ولا أعلم أي شقيٍّ اختلق تلك القصة المهترئة، وأي عقول مريضة صدقتها، ربما هو تاجر أقماع سُكر الذي يفرش بضاعته بالجوار، أو بائع الورد العجوز، أو درويش من دراويش تكية المكفوفين، يسير حافيًا ويصرخ كل بضع دقائق: «حيّ»، أراد أحدهم أن يخلق حول البئر سوقًا رائجة لتجارته، مُستغلًّا شغف الناس بمعرفة الغيب، وتفضيلهم أساطير ألف ليلة وليلة، على حقيقة ناصعة البياض.

الحكاية كانت كافية لتتحول البئر من سقاية العطشى، إلى كعبة المُحبين، وازدحم المكان بالعُشاق، من كل صنف ولون، في أعمار بين البلوغ والرشد، يُريدون وجه الحبيب، وزاد الطين بلة أن البعض أكد رؤيته لوجه فتاة جميلة في البئر وأقسم أمام الخلق بأغلظ الأيمان. ومرت السنين، وفي يوم أغبر، استيقظ رجل ورع ليصلي الفجر، وفي طريقه للمسجد أراد السُّقيا، فأرسل الدلو للماء ولم ينغمس، اصطدم بجسم رخو، قرب الرجل مِصباحه فاكتشف جثة طافية، واتضح بعد استخراجها أنها جثة شيخ المسجد. انحنى المسكين، مُمنيًا نفسه بعِشق كعِشق العُشاق، أو ليملأ قفطانه بالقروش، فاختل توازنه، تخبّط في حجارة البئر فانشق رأسه فغرق، شهيد بئر عنترة.

ما الذي يفعله فينا القمر؟

منذ تلك الليلة انقلبت الآية، غطّى التشاؤم وجه البئر، كره الناس الشرب منها والاقتراب، قطعوا حبل

الدلو، وعزفوا عن استعمال مياه الأسبلة المجاورة، وانتعشت سوق السقائين من جديد، يجلبون المياه من النيل في قِرَبهم، خير من البئر الملعونة.

وخلال سنوات، جفّت البئر، تحولت إلى فوهة مهجورة، بالوعة مُقبضة للنفس، قبل أن تتخذها الوطاويط سَكنًا لها، وتهبها الاسم الذي التصق بها منذ مائة سنة؛ «بير الوطاويط»، اسم تسبب في خوف الصِّبية، وانتصاب شعر الكبار عند الاقتراب ورؤيتهم للأجنحة الجلدية الداكنة، ولجهل غير محمود، أقر الاسم شيخ الحي، وثبته في السجلات، ليُنقش على يافطة في بداية الشارع ونهايته: «سكّة بير الوطاويط».

حين اقتربت من البئر، فحصت الحبل الموصول بالسطح، لم أبذل الجهد لمعرفة ما حدث، قذف خطّافًا إلى السطح وثبته برافعة البئر الصدئة حتى ينزلق في سهولة حين ينتهي من زيارتي. فحصت المكان على ضوء مصباحي فعثرت على نسيلة جلد سوداء لا تتعدى ربع البوصة، نتشها حديثًا مِسمار بارز في طرف البئر، نسيلة تنتمي للرداء الذي كان يرتديه، قطعة من جلد ثور مدبوغ، تفسر الرائحة التي أشتمها في حضرته، وبالطبع رصدت بصمات قدميه حول البئر، وحين شرعت في الرحيل، ناداني الفضول، همس في أذني أنه لم يسبق لك أن نظرت بداخل البئر، أو كنت بذلك القُرب، نظرت حولي لأتأكد أن لا أحد يراقبني، ثم أخفيت وجهي وألقيت حصاة، خبطت في أرض رطبة ولم يتبعها وطوطة، فمددت مصباحي، وعينيّ من خلفه، تأملت الأحجار العتيقة، ودائرة الظلام في قعرها، وقبل أن يتسلل إليَّ الملل وأبتعد، هبّت ريح خفية، من أسفل البئر، أطفأت فتلة المصباح فلمحت العينين. زرقاوان، رموش طويلة، فم مُكتنز، ملامح ساكنة داكنة، تنادي في استغاثة. ملأني الوجل ونشع عرَق الرهبة على جلدي، لكني لم أجرؤ على الابتعاد، تيبّست في مكاني، حتى نفضني مُواء قطة، سوداء فاحمة ذات عينين زرقاوين، لم تتحرك حين هششتها يومًا أمام غرفتي، وبدون مقدمات، اندفع من البئر سِرب وطاويط، تجاه السماء، حمم بُركان مَحبوسة لآلاف السنين، أصدروا صريرًا رفيعًا يثقب الآذان، كان تصريحًا كافيًا بالهرب، ركضت بعزم ما أملك، ألوح بشمسيتي حول رأسي كالملبوس حتى لا يضربوني بأجنحتهم اللزجة، تعثرت فسقطت على ركبتي، ثم وصلت باب اللوكاندة فقفزت السلالم وأغلقت بابي بالأقفال وسط دهشة بشماف، اتخذت ركنًا، ورددت سورتَي الناس والفلق مرارًا وتكرارًا، حتى هدأ روعي ولاح نور الشمس.

أنا مؤمن بالجن، فهو مخلوق مذكور في العهد القديم والقرآن وكل سِير الأقدمين، أسمع الحكايات عنه منذ وُلِدت، من جدّات هرمات بأسنان مخلوعة، وأعمام خاضوا البحار السبعة، يحكون أساطيرهم في ضوء شموع تُضخم الخيالات، وتجعل من الفئران ديناصورات، قابلوهم في ألف هيئة: جديان وماعز، كلاب ذات رأسين وقطط سوداء، لكني لم أؤمن قط بأسطورة بير الوطاويط، وظهور وجه الحبيبة فوق مياهه، ذلك كان عبثًا منذ ساعات، الآن أقاوم رعشات يدي وحين أغمض، أراها، تنظر لي باستغاثة، والقطة ترمقني، وما كان مني إلا أن توضأت فصليت ركعات لم أُحصِها، ونظرت في فروع اللبلاب فقرأت كلمة «جلب»، والخط لم يكن رقعة أو نسخًا، فلم أفهم ما أراد الوحي، فقررت استئناف رصد زيارة هجين القمر لأنشغل. تحت العدسة، التقطت شعرة لا تمتّ لي أو لعزيزة بصِلة، اختلافها يكمن في طولها، تسع بوصات، وتجعيد ينتمي لجسد خَمريّ، وضعتها تحت المجهر بعد نقعها في محلول البوتاس الكاوي فانفصلت عنها دهون لحم وزيت خروع، خلطة عطارة تنتمي للطبقات الدنيا، كما علمت بعد حرقها، أن عمر الجسد المفتول الذي يستغله الهجين يتأرجح بين ضفتَي الخمسين.

انتهيت فمسحت غرفتي بحثًا عن أثر أغفلته، عن عقرب أحمر قابع في ركن مُظلم ينتظر ذِكر اسمي بأمر هجين جبار، ليتحرك تجاهي فيغرس إبرته في عيني وأنا نائم، أتخيل المشهد، الألم، وعجزي عن نزع ذنَبه من بؤبؤ عيني، ثم نجاحي، فأنتفض، أقوم، أفز، أفحص أسفل الكرسي الذي أجلس عليه، وأتسلح بيد مغرفة تحميني، ثم أرتخي، مُتمتمًا أوراد الحماية، مُتمنيًا أن يستجيب مبتور الورك، بطباعة صور القتلى في جورنال الوقائع المصرية، وإلا، فلن يتوقف القتل، ولن يستقيل العقرب الأحمر من وظيفته، وسيمسّ الجنون عقارب الساعة أيضًا، لتركض في فرحة، مُعلنة حتفي. ثم تُراودني العينان الزرقاوان، فتاة البئر، أو كما تقول الأسطورة، الحبيبة التي لم أقابلها بعد، حبيبة أكدت بظهورها في قاع البئر، أن الأسطورة حق، وأن عزيزة خائنة بحق، وأن قصة الحب الساخنة، شائنة، كسمكة فسيخ عفنة، وكما قال الشاعر: «النساء هن الدواهي والدوا هُنَّ، لا طيب للعيش بلا هُنَّ، والبلا، هُنَّ»، لتشتعل النار في صدغي، وتمتد لشعري ثم تمسك بالستائر من حولي، أكاد بالكز أن أكسر ضروسي حين يتراءى لي وجه سيد عجوة، أير الضبع الذي لطَّخ ودنَّس، عاب وشوَّه عزيزتي، عشيقتي، سابقًا، زوجة المخفي أنور أفندي أبو شمعة، وأم صالح الطالح.

لم يبرد رأسي قبل أن أتجرع ـ على مضض ـ كوبًا من عشبة يوحنا المنقوعة، حتى لا تغمرني الكآبة وتصطبغ الجدران من حولي بالسواد، حتى لا تجتاح الغرفة أسراب الجراد، ويهاجم عقلي ألف زلزال، حتى لا يفيض النهر من أذني، بتماسيحه وأسماكه وجثث البقر النافق من الطاعون، حتى لا تشمت بي الأفاعي السوداء وتقيم الأفراح وتذبح الخراف، وحتى تتوقف تلك النغمة المُلحة في رأسي، رغبة لا تتفاوض، لا تطلب بأدب، رغبة تأمر، تُصر وتُشدد، تبدأ بهمس، ينتهي بصراخ يصم الآذان، بفم يُبعثر اللعاب، يكاد يلتصق بجبهتي، حريصًا ألا يلمسها، مباشرة أمام البقعة التي تتوسط العينين، مكان السجود، مكان زبيبة الصلاة التي فشلتْ في الظهور، مكان طلقة الإعدام في تهمة خيانة عظمى، فوق الأنف ببوصة ونصف، كلمتان تخترقان الجبهة، تتكرران بملل، ورتابة لا تتوقف، لا تيأس، لا تنهزم...

«اقتل عزيزة».

يوميات / نمرة ٤٥

خلال الأسبوع الماضي؛ لم يُنادِ الباعة بجورنال الوقائع، ولم يُنوه الديوان بسبب تأخر الطباعة أو ميعاد الإصدار.

خلال الأسبوع الماضي، لم ألمح ظلًّا للهجين في نور القمر، ولم يظهر العقرب الأحمر في الجوار.

خلال الأسبوع الماضي، لم تأتِ عزيزة لتسأل عني بعد هروبي، ولم يزُرني الحكيم ساسون ليستأنف الحوار.

خلال الأسبوع الماضي، لم أفتح بابًا أو أوارب شباكًا، وحين اشتكت معدتي، تلثمت، صعدت سلالم السطح، زحفت على بطني واقتطفت الخضراوات خلسة قبل أن يشعر الحمام في النهار.

خلال الأسبوع الماضي، فقدت أرطالًا إضافية، وسيصير وزني بالسالب بعد أيام، وسيصيبني كالكلاب السعار.

خلال الأسبوع الماضي، هاجمتني الضباع في الأحلام، مُواء قطة سوداء خلف الباب، وخربشات أمي خلف الجدار.

خلال الأسبوع الماضي، لم تنزل الرسالة في يد الملاك، لم ألتقط وحيًا من السماء، وليس في الأمر اختيار.

خلال الأسبوع الماضي، لم يخرج عنتر عن صمته، ولم ترسم فروع اللبلاب كلمة أو قرارًا.

خلال الأسبوع الماضي، لم أكتب بالدفتر يومية، ولم أُردّد من الوجل وِردًا للواحد القهار.

خلال الأسبوع الماضي، امتنعت عن تناول عشبة يوحنا، فاشتعلت حروبي الأهلية، تناثرت جثث القتلى في كل ركن، قبضت على عشرين جاسوسًا للسلطان عبد العزيز، ومائة حمار كانت تأكل لفائف الأسرار.

خلال الأسبوع الماضي، شحذت سكاكيني، وبما تبقى من شجاعتي، قررت الفرار.

إلى حتف، إلى مركبٍ نيلي به خرق، إلى مستنقعات إفريقيا، إلى النار.

قُل عني «مُخن»، جِعرًا، صرصارًا.

فخلال الأسبوع الماضي، كنت أعاني الانهيار.

حتى صاح بائع الجرائد في التاسعة وعشرين دقيقة من صباح الأحد: «جورنال العسكرية، الديلي تلغراف، يعسوب الطب، الوقائع المصرية، اِقرا حادث الاغتيال، اِقرا حادث الاغتيال»، سقطت من النافذة فوق رأس البائع، جذبت الجورنال، ودون أن أُسدّد الثمن بعثرت الصفحات، وكانت المفاجأة: صورة مرسومة بعرض الجورنال، تُمثّل رجلًا فارع الطول يجلس على كرسي فخم مكسو بالقطيفة، في حضرة سيدتين ببنوار مسرح، يتسلل من ورائه قاتل، يُسدد طبنجة لرأسه، ومن فوق الرسم عنوان: «مقتل الرئيس الأمريكي إبراهام لنكولن علي يد «چون ويلكس بوث» في تياترو فورد خلال حضور مسرحية «ابن العم الأمريكي»».

يا للهول! اغتالوا مُحرر العبيد؟ الرجل الذي دعا لإلغاء الرق منذ ثلاث سنوات، الرجل الذي ألَّب عبيد الجنوب على أسيادهم وأغراهم بصكوك الحرية وأشعل فتيل الحرب الأهلية، لا أكاد أتخيل كيف يعيش العالم بلا عبيد؟ وكيف تُعمَّر البيوت بلا جَوارٍ؟ والأعجب، كيف استجاب آلاف الحمقى لتلك الدعوة الهمجية

التي لا تراعي دينًا أو عُرفًا، البك الطويل الأبله، أراد للأمريكاويين أن يُبطلوا سُنّة تحرير الرقاب؟ بل وسُنّة الاستمتاع بمِلك اليمين! يريدهم أن يُطلقوا آلاف العبيد الذين بذلَ أسيادُهم الأموال من أجل شرائهم وإطعامهم وتربيتهم، ومن قبلهم الجلّابة الذين تعرضوا للأهوال في رحلات اصطيادهم وخطفهم وتكبيلهم، بخلاف التفاوض المرير مع زعماء القبائل لتسليم عدد مُحدد من أسرى الحرب بين القبائل والمذنبين، وفحص العفيّ منهم، والذي حُقن بالمُهيجات ليخدع التجار وقت شرائه، ثم عبور المحيط بهم وسط أهوال العواصف والأعاصير، ناهيك عن الأوبئة التي يحملونها من بلادهم، مما اضطر الجلابة في أحيان كثيرة لإلقاء العبيد في المياه أحياء، حتى لا تنتقل العدوى لزملائهم ويفرض المستورد غرامة مالية. ألم يسأل لنكولن نفسه أين سيذهب العبيد حين يُسرَّحون؟ لم يسأل لنكولن من أين سيكتسب العبيد قوتهم ومن أين سيأكلون؟ إنه الجنون المُبين، تقاليع آخر الزمان، علامة من علامات الساعة، ومن رحمة الله أن تلك هي نهاية كل مُروّج للبِدَع مُبدِّل لسُنن البشر.

مُلّاك العبيد الآن سينامون مُطمئنين، أما أنا، فقد حانت نهايتي، ونفخ إسرافيل في بُوق قيامتي، فعِناد داغر بك بلغ عنان السماء، المبتور يستهزئ بما قدمته من دلائل وبراهين، في صور وكتابات، ويرفض هدنة الهجين تعسفًا، بل إنه يُقصيني عن التحقيق ويطردني بمهانة وتحقير، الآن ستستأنف عجلة القتل دورانها، وستهرسني بعد أربع ضحايا، بلسعة عقرب أحمر، أو بموتة شنيعة ستتسبب في ابتسامة من جانب فم السلطان العثماني، ثم إقامة الأفراح والليالي المِلاح أربعين يومًا بلياليها، وبإذن المولى، سيعقبها زلزال يُصيب الأستانة، مثل الذي أصاب الإسكندرية سنة ١٣٢٣، وسيسقط العرش بالسلطان عبد العزيز في شق بالأرض يصل إلى مخبأ الهجين الزاحف فيلتهم رأسه.

وركبني الهم، كما لم يركبني يوم وفاة خالي فتحي، مشيت مكدورًا مغلولًا لا أدري إلى أين تأخذني قدماي، أكاد أكشف فمي وأنفي غير عابئ بالكوليرا التي تنتشر كالجراد، أو ألقي بنفسي إلى النيل فأحتضن جاموسًا نافقًا من الطاعون حتى أرتاح. وساقتني السكك إلى الدفترخانة، وما إن تأملت المبنى ولافتته، حتى رنَّت في رأسي كلمات عنتر: «فكِّر في الرابطة التي يخفيها الأسياد، قطع طريق الهجين يكمن في كشف سره»، حين تأتي العلامة من الله، اغتنمها دون تردُّد أو تفكير. دخلت إلى المبنى وطلبت الاطلاع على دفتر المواليد الخاص بعزت باشا الدفتردار وعصمت باشا حسن، والحرمة همّت إسحاق. فقُوبِل طلبي بالرفض القاطع، حتى أبرزت ساحر القلوب، فاتح الأبواب ومُبدِّل القناعات؛ البقشيش، فنزلت الدفاتر من فوق الرفوف وحدها، نفضت الأتربة عن نفسها واستلقت بين يديّ، استغرق الفحص والتدقيق ساعات، اطَّلعت على ملف عزت باشا، ابن محمد باشا الدفتردار، زوج «نازلي» ثاني أكبر بنات محمد علي باشا، وأحد ثقات القلعة الأصليين. الأب عمل كمسئول حسابات لجميع الدفاتر ومُباشريها من حُكام الأقاليم، قبل أن يعهد إليه محمد علي باشا بخوض الحملة الانتقامية من الملك «نِمر»، ملك مدينة شندي بالسودان، لحرقه ابنه إسماعين حيًّا سنة ١٨٢٢ ميلادي.

أما عصمت باشا، فهو ابن حسن باشا بوشناق؛ قومندان فرقة الشركس عهد الباشا محمد علي، والتي كان لها شأن كبير في تدعيم عرشه بعد زوال فِرَق الألبان التي أفناها عمدًا في حربه على الوهابية بالحجاز. ورث عصمت باشا ثروة عظيمة عن أبيه، لكنه تجنب الانخراط في الجندية مثله، تزوج مرتين، من مسك هانم ومن حرمة أقدم، ولم يُرزق بأولاد. جيل الآباء ينتمي لدائرة الثقة الأولى في القلعة، وتوريث المناصب أشد تأثيرًا

من توريث الذهب. أما الحرمة همَّت، فقد شذَّت عن النمط والمذهب، فهي سيدة عِصامية، أصولها ترجع إلى قرية فقيرة بالدلتا، أبًا عن جد عملوا في الحِدادة وصُنع السيوف والخناجر، وغير مُدوّن عنها سوى أنها جاءت إلى القاهرة في سنة ١٨٠٩ ميلادي، وتزوجت بالمدعو فرانكو جابريال «الشاعر الأعور».

الله يخرب بيتك يا عنتر، عن أي رابط تتحدث؟ لم أكن لأسأل اللهَ فيما أعطى، ولن أتبطر على النِّعَم التي وهبني إياها يومًا، ولكن لمَ تكون معجزتي ذَكر ذبابة لا يطير؟ لمَ لم أوتَ عصا أشق بها بحرًا كعصا موسى، أو بُراقًا حكيمًا يعرج بي إلى السماء السابعة، لا أكاد أتخيل كيف سيحملني عنتر يومًا لما فوق أحبال الغسيل في السطح! ناهيك عن دخولي بين الملائكة والأنبياء على ظهر ذُبابة! اللهم لا اعتراض.

فحصت باقي ملفات رجال الباشا المقربين، بحثًا عن قائمة الهجين المبشرين بالقتل، نقلت الأسماء والبيانات إلى مُفكرتي، وملحوظات الموظف، ثم خرجت من الدفترخانة أحمل فوق رأسي ناقة حُبلى يركبها جمل، فالدافع وراء الهجين كالدخان، غائم هائم، لا تُدركه الأيدي وإن أدركته النفس، ولأتنبأ بالجريمة القادمة سيكون عليّ حصر ألف ومائة باشا يحومون حول أفندينا كالأقمار حول المُشترِي، من بينهم ما يزيد على المائة والخمسين من المقربين، ثم الأربعة المبشرين بنَيْل لقب أضحية الهجين. وقع القتلة التالية سيكون مؤلمًا حاسمًا، والانتظار أشد ألمًا، وإن كان في الحياة أيام مُتبقية، فلأعِشها بقلب بحّار فقدَ مركبه واستقر على لوح خشب زان في عرض بحر ينتظر الفرج، كما يقولون: آهي ليلة وفراقها صُبح، وإن كُتب على سليمان السيوفي الموت، فمن العار أن يرحل محَرومًا مكسور القلب بسبب عزيزة الفاجرة بنت الكلب، فخير لي أن أقع بين براثن هجين، من أن أعيش مخدوعًا في كنف امرأة جامحة.

المجد لجارية مهيضة الجناح ملفوفة القوام تُسعد قلبي المخلص البريء، ويا رازق الفرخة بديكها، ارزقني بواحدة أفرتكها.

مررت بالخمّارة فاشتريت زجاجة كونياك ثم اتجهت للعطار، ابتعت خلطة لدرء سُم العقرب الأحمر مُكونة من حنظل وثوم وليمون وبابونج، بالإضافة لبذور الكتان والملح، آخذ بالأسباب حتى لا ألوم نفسي، وبالجنيهات الأخيرة في ثروتي المجيدة توجهت إلى وكالة «المحروقي»، جنة من جِنان السماء، كلما مررت بها سَال لُعابي على بضاعتها، واندفعت الدماء في عروقي ساخنة حارقة، تشوي الأفاعي وتُبعثر أشلاءها.

وكالة «المحروقي» هي المُنافس الأول لوكالة «السلحدار» في توريد وجلب الجواري والعبيد، يأتون بهم من الجهات الأربع رغم مُضايقات الحكومة التي تنتهي ببقشيش شهري ثابت للقواصة، وهدايا من أنقى سلالات نسوة الأرض لقصور أفندينا وبيوت الأمراء والباشوات. ورغم الإلغاء الأوروباوي ولا سيما الإنكليزي الذي أقره الملاعين بقانون في برلمانهم الشيطاني سنة ١٨٣٤م، ورغم الواقعة التي حدثت في النيل قُرب دارفور منذ سنوات وأسفرت عن احتراق سفينة مُحملة بمائة عبدٍ وجارية بعد إشعال أحدهم النار في نفسه رغبة في الانتحار، إلا أن وكالة المحروقي لم تهتز ولم تتأثر، بل وأكثرَ القائمون عليها ـ وهم ناس فُضلاء وأهل فطانة ـ من استيراد العنصر الشركسي البضّ الأحمر، والمغربي البربري اللامع لتعويض الخسارة، ولم يتخذوا الجشع في الأسعار مسلكًا لحل الأزمة.

اليسرجي كان مُزركش الثوب، تحسبه عن بُعد امرأة تُدخن النارجيلة في فتور، حتى تقترب، كيف ما زلت أبتلع ذلك الطُّعم الذي جرى استخدامه لجذب الزبائن منذ الأزل؟ الفتى اللين كان يستند الباب الضخم ذا المزلاج التمساحي، تعلوه يافطة «وكالة المَحروقي»، وعلى الحائط بجانبه التصقت صِفحة جورنال تحمل

خبر اغتيال «أبراهام لنكولن»، وفوقه كتب الخطاط: {وقَل جاء الحق وزهق الباطل، إنّ الباطل كان زهوقًا}، ومن تحته: «سِعرنا اليوم، للغد لن يدوم»، ما إن رآني حتى ترك لَيّ نارجيلته، وأشار لعبد صغير فاقترب بصينية تحمل أكواب العرقسوس: «شِفاء وخمير على عيونك، عبد أم جارية؟ شركسي، بربري، حبشي؟»، أجبته: «جارية»، وكنت لأتوسل إليه العمل في الوكالة، لكني طلبت ـ كما علّمتني الحياة ـ أن أخوض جولات الانتقاء، وأن أتعالى وأتحدث بزُهد وكأني مُرغم على الشراء مُضطر، وأن أستمتع، وأخفيت عليه أنها المرة الأولى التي أشتري فيها جارية، ابتسم: «محسوبك رضوان، اسم بوَّاب الجنَّة، تفضل».

دلفت وراء رضوان إلى طُرقةٍ مغروس في أحجارها أعواد النعناع والريحان والبخور الهندي المُعتبر، انتهت بفناء مربع مزروع، تتوسطه نافورة أندلسية تطفو عليها الزنابق، وأرائك خشبية عليها وسائد مخملية استلقت فوقها جواري الشركس والألبان والأباظية واليونان، في لامُبالاة سَاحرة، يهمسن كالحمائم ويضحكن في سلام، لا تبدو عليهن أمارات حزن أو تيه، ينتظرن الفرج على يد مُشترٍ يُوفر لهن حياة كريمة بعد سفر وعرض في الأسواق وعناء انتظار مرير. ما إن رأينني حتى أكبرن، وقطّعن أيديهن، وقلن حاشَ لله، ما هذا بشرًا، إنْ هذا إلا مَلَكٌ كريم. فمال رضوان على أذني: «الجارية تُشترى بالعين وتُرد بالعيب، أودعها حريمك أو حريم أحد أصدقائك، لثلاثة أيام، النسوة يفتنُ بعضُهن بعضًا، شرطي الوحيد، ألا تضاجعها، وإلا فقدت حق ردها، بعد أيام معدودات ستأتيني شاكرًا وتشتري أختًا لها»، هذّبت شعري وخلعت نظارتي الزرقاء وتخللت صواني القشطة فحصًا وتدقيقًا، حتى أشعلتْ إحداهُن جذوتي، فأشار اليسرجي إليها فقامت بتثاقُل، اقتربت، قطة شيرازية لا تأكل إلا الرمان والعسل، مدَّ رضوان يده وفك عقدة ردائها الشفاف من خلف رقبة كإبريق الذهب، فسقط بين قدميها، ولو أمامي عزيزة الآن لوضعتُها في ركن وتفقت عليها حتى ماتت غرقًا، ثم ناولتها لشكيب عبد الصمد ليُشرحها بيديه العاريتين: «اسمها تَجن، شيشانية، لا تُشخر، ولا تصر بأسنانها أو تتكلم أثناء النوم، قلوية المذاق، عَرقها كعَرق الخيل، وليست شرهة للطعام، مليحة القعر، مُكتنزة، مد يدَّك»، وسحب رسغي دون أن أسأله ودسّ كفي فيما بين وركيها، «الدفء» لا يُقاومه إلا كافر بهيم معتوه، رمقتني دون كلمة، بعينين في لون الرماد، ثم عضَّت شفتيها، فلم أدرِ كم من السنين مرت، وكم من نوى البلح صار نخلات باسقة، قبل أن يسحب يدي، ويضعها على نهد مغرور لم يركع من قبل، ففارت دمائي، ودون أن أرفع كفي عنها سألت رضوان عن ثمنها ـ إن كانت تُقدر بثمن ـ فأجاب: «لُقطة تُغتنم؛ فاليوم يوم احتفال بزوال كبير مُحرري العبيد، وهي ليست بِكرًا، ذلك السبب الوحيد لرفض شرائها كحريم لأفندينا. ألف وتسعمائة قرش من أجل طلّتك البهية»، رفعت يدي من فوق قمع السُّكر قهرًا، جبرًا واضطرارًا وذُلا واعتراضًا، فلم يكن في جيبي أزيد من عشرة جُنيهات، ابتسم رضوان وقد استشعر محِنتي، فعرض ألفًا وثمانمائة قرش، ولم يقرأ في وجهي سوى النقص والخزي والعار، فأشار للجارية الشيشانية فرفعت رداءها، وعادت إلى أريكتها بعد أن رمتني بالاشمئزاز. سألني: «كم معك؟»، فأخبرته أن تسعمائة قرش هي كل ما أملك، فابتسم ثم وضع يده على كتفي: «أتعلم، إن الله يُحبك، ولأجل وجهك البشوش، سأعطيك نصيحة لوجه الله، إن أردت مُتعة من مُتع هارون الرشيد؛ جارية تُشعل شمعتك وتُرضي نفسك، ولودًا، تُنجب الذكران، لاخترت الخلاسي، العرق الذي يتخلّق من بين الحبشي والبيضاء، أو المغربية البربرية، فهن خير من البيض الكسلانات اللاتي يتقاعسن من ثقلهن عن الرقص والفرفشة، ويمرضن بالشرود وسقم المزاج، ولكن تسعمائة قرش! عليك أن تُشخشخ جيبك قليلًا يا أفندي»، البعيد عديم المفهومية! «أقول له ثور، يقول احلبوه».

صعدنا إلى الدور العلوي، إلى حُجرات ضيقة جلست فيهن النسوة الحبشيات والسودانيات والمغربيات، متجاورات مقرفصات، شبه عاريات، أشجار كاكاو تعلوها ضفائر غليظة، فحصت وتمعّنت، طالبت بالسير تارة، وبالجري تارة أخرى، رفع وخفض الأذرع، وبالرقص، للتحقق من مرونة المفاصل، ولم يغلل يدي إلا أثمان تجاوزت ما أملك، حتى فاض الكيل بالجاريات، بالشمس، وبرضوان الذي وقف بالباب مُدليًا دلوه ليقيس عُمق كرامتي، وقبل أن يتسرب اليأس إلى قلبي، وفي طريق الخروج استوقفني: «أتعلم، إنك ابن حلال مُصفًّى، لديَّ جوهرة سوداء كنت أدَّخرها لقبطان بحري لم يَصدُق في وعده»، قالها وغمز بعينه المُكتحلة، ثم فتح قفل باب غرفة شرقية، وأشار إليَّ فدخلت وراءه. الظلام كان سائدًا رغم تسرب أشعة الشمس من بين أخشاب السقف المتداعية، قضبان سجن من النور، مُبهرة للعين، تنغرس في الأرض، يتخللها غبار مُتطاير وذباب هائم، مدَّ يده فاخترقها ونادى في الظلمات، مثلما نادى المسيح يومًا على أليعازر من بين الموتى: «قشطة.. يا قشطة.. هلُمّي فاخرجي»، بعد قرون، تحركت على الأرض أصفاد، كرر نداءه فقامت، اقتربت بهدوء، تخللت قضبان الشمس فبعثرت الغبار، شجرة أبنوس إفريقية تقف على قدمين في ليلٍ حالِك بلا قمر أو نجوم، شفتان في لون حبوب القهوة، وضخامة البلح، نهدان عنيدان وحشيّان، فوقهما حلَمتان مثل دوايتَي الحِبر، ضفيرة سميكة خشنة تتدلى قُرب الركبة، وبطن منقوش بندوب بارزة، تُشبه حزامًا عريضًا من النباتات، فوق خصر زيَّنته ثلاثة مخالب في عرض كف النمر، ووحمة بيضاء ناصعة في حجم حبّة توت، فوق الفخذ اليمنى. قال اليسرجي: «قد تبدو لك حتى الآن مجرد جارية سوداء»، ثم أزاح القماشة المُتسخة عن عينيها، وبعد لحظات طالت، رفعت جفنيها، بثقل، عن بُحيرتين جنوبيتين، تسبح فيهما حدقتان زرقاوان.

بعد كوب عرقسوس بارد ساعد في تهدئة روعي، قصَّ اليسرجي على مَسامعي منشأ تلك الأبنوسية، عثر عليها جلّاب الوكالة في رحلته لغرب الحبشة، مُلقاة بين الأشجار على ضفاف النيل، تُصارع الموت، غائبة عن الوعي مَبقورة البطن من ضارٍ هاجمها ولم ينلها، في انتظار تمساح ليُكمل ما تبقَّى منها، فما كان منه إلا أن أوقف السفينة، وأرسل المركب ليلتقطها، داوى الجرح بالكيّ وأطعمها حتى أفاقت، ولما كانت زرقاء الحدقات وتلك سِمة نادرة في أبناء الزنج، أبقى عليها لنفسه، ولما وطأها حدّثني أن بين ساقيها فوهة بُركان تُلقي الحمم، وأنها أصبحت تميمة الحظ في رحلته، أصاب تجارة عظيمة، وأكرمه ملوك القبائل، وعاد سالمًا غانمًا بسفينة مُحمَّلة بأفضل أنواع العبيد دون مضايقات القواصة.

انتهى من حكايته ثم أخبرني أنه سيبيع الجارية بتسعمائة قرش فقط، سألته عن السبب، فأخبرني بأن ذلك من أجل لونها الأدهم، والجرح الغائر أسفل بطنها، ومن أجل الوحمة البيضاء الناصعة التي تُشوه فخذها اليُمنى، وكانت سببًا في تسميتها قشطة، وحين سألته عن الجلّاب الذي عثر عليها واتخذها خليلة، وكيف طاب له عرضها للبيع بعد عشق! ضحك: «الجلّاب مثل القنفذ، لا ينحضن ولا ينباس»، ثم أخبرني بأن كل جلّاب يرجع من رحلته وبصحبته جارية محظية، يعصرها كعود القصب، قبل أن يُلقيها في الوكالة، مُصاصة مُستعملة.

ثبت بالتجربة، أن تجاهل علامات المولى، يُورث الغباء والفقر في الدنيا والآخرة، وليس من قبيل المُصادفة أن أُقرر شراء جارية فأتجه لوكالة المحروقي بدلًا من السلحدار، أقابل يسرجيًّا ويكون اسمه رضوان، اسم بوّاب الجنة، ثم تُعرض عليَّ الأجناس والألوان، ولضعف الجيب لا أحظى بجارية تُناسب قروشي، وقبل أن

أرحل، ألتقي بالقطة التي صادفتها مرتين من قبل؛ «قشطة»، لا يستوي أن يكون التشابه في عينين زرقاوين، وجلد أبنوسي فاحم، ووحمة بيضاء ناصعة في نفس المكان بالفخذ اليُمنى. وداهمني إحساس لم أختبره من قبل، أرجف صدري وأشعل النار في وجداني، تلك هي المهمة الأولى من المولى عز وجل للعبد الفقير سليمان جابر مختار ناجي سراج مهران عيَّاد ذكي نصر أبو صبيحة السيوفي. فتمهيدًا لنزول الرسالة، وتلقّي كتاب السماء الجديد؛ كتاب القرن التاسع عشر الذي سيمحو البؤس والشقاء عن البشر ويهزم هجين القمر، فعليَّ إنقاذ جارية جريحة بائسة، أتتني يومًا في صورة قطة جائعة، سأشتريها وإن كانت بمائة ناقة من نُوق المغاتير البيضاء باهظة الثمن، سأشتريها وإن كانت بذهب الأرض كُله.

حين أتممت الصفقة، ووضعت الجنيهات التسعة ـ وعلى قلبي زي العسل ـ في يد رضوان، فتح الباب وفك الأصفاد عنها، ومن وراء القضبان راقبت الماشطة تنتف إبطيها وعانتها، ثم قرفصتها في طست، وصبَّت فوقها الماء والصابون، مرشتها بالليفة والحجر حتى تعكّرت المياه بالطين والعَرَق. وما إن شرب جلدُها الماء حتى انتفضت حلماتُها وتحفّزت، وسَرت على الجلد الأسود لمعة فضيّة، خنجر من العقيق الأسود مُرصع بياقوتتين في لون السماء، حقًّا؛ لبّس الخُنفسة تِبقى سِت النسا، وما إن تهيأت قشطة، ومُسحت بالزيوت العطرية، حتى أسدلت عليها الماشطة رداءً أبيض، وأغلق اليسرجي على خصرها حزامًا جلديًّا مُزودًا بزوج من الأصفاد لمعصميها وناولني المفتاح.

استأجرت حمارًا حجازيًّا عريض الظهر والمؤخرة، حملني ومن خلفي قشطة مُستغربة شاردة، حاولت أثناء الرحلة تجاذُب أطراف الحديث لكنها لم تنبس ببنت شفة، حتى راودتني الظنون أن اليسرجي ربما أخفى عني أنها خرساء، أو ربما الخجل متمكن منها من صدمة البيع والشراء. ولما كنت أعلم بعض الأمهرية الحبشية من عِشرة جيرة قديمة، قلت لها بابتسامة: «أنتِ كونجو»؛ بمعنى أنتِ حلوة، نظرت في عينيَّ طويلًا ولم يبدُ عليها الفهم، فأعدت سؤالها: «مِزاء؟»؛ بمعنى غذاء؟ رمقتني بجهل مُطبق، فقرصتها، تأوّهت، فأيقنت أنها ليست خرساء، وأيقنت أيضًا أنها ليست من الحبشة كما أخبرني رضوان الكلب زبّال الجنة، يا تُرى ماذا أخفى عني أيضًا؟ كظمت غيظي واتجهت إلى مسمط الأسيوطي شرق ميدان الرميلة، اشتريت من أجلها كارعًا عجميًّا، وربع رطل نيفة بالبقدونس، ثم اتجهنا للوكاندة بير الوطاويط.

في بهو اللوكاندة، تجاهلت نظرات بشماف الوقحة، وكأنه الهواء، «تفُّوا على وش الرَّزيل، قال دي مطرة»، مَررت من أمامه ويدي في يد قشطة، صعدنا إلى غرفتي، أغلقت الباب وراءنا بالقفل، وجالت عينا قشطة في المكان دون أن تتحرك خطوة، تأمَّلتِ الأثاث والجدران واللبلاب في صمت، ثم شردت في صورة الجارية السوداء، أمام ضريح الست الوالدة المُغطى باللبلاب، وكأنها تعلم ما يُخفي وراءه، اتجهت للصورة، وحملقت، فأخبرتها أني بمشيئة الله صانع لها صورة مثلها، وأشرت للكاميرا. لم يبدُ عليها فهم، فسحبت رسغها، أجلستها على شلتة، ووضعت على الطبلية الكارع والنيفة، نظرت للطعام في صمت، ورغم الجوع البادي في عينيها لم تمُد يدها، وأدركت بالفهلوة أنها قد تكون مثلي، عازفة عن أكل اللحم، فقدمت لها الفول والجبن القريش، فتجاوبت بعد تردُّد، والتهمت في نهَم، بأسنان ناصعة، وأنامل من الشوكولاتة. تأملت عينيها، مُتسائلًا عن القصة التي يُخفيها ذلك البحر الأزرق، كيف كانت رحلتها عبر أحراش القارة المتوحشة؟ وما الحيوان الذي هاجمها وترك على لحمها الجروح؟ وكيف نجت منه؟ وأدركت بعد قليل أن الإجابات لن تنكشف دون لُغة مشتركة، ولكن على الجوهرة السوداء أن تطمئن أولًا، وأن تعتاد مسكنها

الجديد حتى أجد الكلمات المناسبة. وضعت لها وسادة محشوّة بالريش، وانتقيت من دولاب ملابسي رداء حريريًّا كان للمرحومة نعيمة الشركسية التي ماتت غرقًا في النيل، ولباس بفتة، تركته عندي سميرة المجنونة ذات الشامة قبل أن تختفي بلا رجعة، ساعدت قشطة على ارتدائه، وبدت فيه فاتنة رغم الشرود الذي يعتريها. ثم جاء وقت التعليمات الخصوصي، وضعت كفي على باب غرفة عنتر، خبطت خبطتين فأصدر الزاهد طنينًا خافِتًا، فخافَت قشطة، ثم التقطت الكرباج السوداني المُعلّق على الحائط، ولسعت الأرض بضربة، فارتعدت، مُدركة التحريم، ثم أشرت للكاميرا، ولوّحت بالكرباج، فضمَّت ساقيها خوفًا، فأشرت لبرطمانات الفورمالين، حقيبتي الجلدية، ألواح الكولوديون، أوراق يومياتي، دوايات الحبر التي تُشبه حلماتها، كُتبي، ملابسي، اللبلاب على الحائط، كيمياء الفوتوغراف في الزجاجات، الهواء السابح حولنا، والمِصباح، حتى لا تحترق، وراودتني نفسي أن أخرجها من الغرفة لتنام على عتبة الباب، لكني تراجعت، وتكومت قشطة في الركن مستندة على الحائط، وقد أدركت أن التحريم في دنياها الجديدة، هو الأصل، لكني طمأنتها بابتسامة، ورقيتها بورِد السكينة والهداية، بنيَّة دعوتها لدين الإسلام فَورَما أستكشف اللغة التي تفهمها، ورسم اللبلاب على الحائط كلمة «نوُّو» بتشكيل من شدَّة وضمة، فأدركت أني على الصراط المستقيم، وأن قشطة ما هي إلا القطة السوداء التي جاءت لزيارتي، وماءت ببابي دعوة لشرائها، مُعجزة من الوهّاب القدير، يَشدُد بها أزري في مواجهة الهجين، أتمنى أن تكون قبيلتُها من آكلي العقارب الحمراء، أو ممن يحقنون في الذكور دماء الأسود، خير من الضباع أو النسانيس. الآن سأنام بعدما رششت على منافذ الغرفة الكمون والملح وعين العفريت درءًا للعقرب، وسأستأنف اليوميات غدًا أو بعد غد، إن كان في العُمر بقية.

يوميات / نمرة ٤٦

تلقيت اليوم رسالة مختومة من «مِسك» هانم أرملة عصمت باشا: «أرجو الحضور في تمام الثامنة مساءً بسراية عصمت باشا رحمه الله وأسكنه فسيح جناته، نمرة سبعة سكة المقياس، مع جلب عدة الفوتوغراف خاصتكم؛ وذلك لالتقاط صورة اجتماع ليليّ، وأرجو منك التحلّي بالكتمان للأهمية»، وذيّلت رسالتها بختم يحمل اسمها «مِسك القلوب». الولية المكلومة لن يهدأ بالها حتى تحل اللغز، تظن أنها تنبش وراء قاتل بشري استعمل الخنافس، ولا تدري أن زوجها قد واجه ماردًا هجينًا يسكن القمر. ربما ستُطالبني بالجنيهات التي دفعتها نظير البحث قبل اختفائي! وربما ستدفع جنيهات إضافية للتشجيع!

ارتديت سُترتي القطيفة السوداء، البومباغ الحريري، قفازي الأبيض، قبعة أفرنكية تُضفي عليَّ صفة الخبير العصري، والعصا المبرومة ذات مقبض رأس الصقر، «الألافرنكا كما يجب أن تكون!». تظللت بشمسيتي فوق حِمار حتى بلغت الضفاف فاتخذت مركبًا، عَبر بي حتى جزيرة الروضة، وتمشيت تحت أشجار الجميز العتيقة حاملًا صندوقَ الكاميرا فوق كتفي، حتى لاحت سراية عصمت باشا. حين عبرت البوابة الضخمة، عرَّفت الخادم العجوز اسمي فنظر في دفتره، ثم تسلم قبعتي والبالطو والعصا، علقها على حائط مُزدحم بالمُتعلقات الشخصية، وأشار إلى السلالم فارتقيت وراءه. الهمس كان مُبهمًا، غمغمة رجال ونساء، تتسرب من صالون الخنافس، فتح الخادم الباب، ثم أشار بالدخول.

الصالون، تم تنظيفه وتبديل الأثاث، مع إضافة بيانو، ولوحة زيتية لمنظر طبيعي، بحيرة وشجرة وفتيات بفساتين بيضاء وملائكة، أما الجمع، فكان سبعة أشخاص، الأرملة «مِسك القلوب» تتوسط الحضور بفستان أسود مُطرز وشبك يتدلى فوق جبهتها والعينين، تتحدث بملامح قلقة مع رجل في منتصف الأربعين، مُكتحل العينين ووسيم، ورجل آخر، بَدين، ذي لِحية بيضاء كثيفة مثل الأرنب، ونظارة سميكة، لم أتشكك للحظة أنه خواجة باخوس اليوناني، الجواهرجي الشهير وزوجته الجميلة آديلين «الصديقة الحميمة لجشم آفت هانم زوجة أفندينا الثالثة». على اليسار وبداخل سحابة من دخان السيجار، وقف حافظ باشا أغا، ابن إبراهيم أغا، أغات باب القلعة عهد الباشا الكبير، وصاحب فابريكة النسيج الكبرى ببولاق، ومن أكثر شنبات المحروسة عناية ـ بعد أفندينا ـ رغم صَلع مهيب في وسع الصحراء الغربية، بجانبه حرمه نمرة خمسة، فاتنة بيضاء تصغره بمائتين وخمسين عامًا. في الركن، بجانب الطاووس النحاسي، وقف خنزير البرَك، ضبع السِّكك، الرمِّي، بوراك الأرناؤوطي، مفتش قواصة شرق جهنم إن شاء الله، قطعة خيار مخلل لا أدري مَن الذي دسها وسط طبق الحلوى، وبالطبع ليس لتلك الفصيلة وليفة صالحة لزيارة الأكابر من الناس.

ما إن دخلت حتى التفتوا نحوي جميعًا، رمقوني للحظة، ثم عادوا لثرثرتهم وكأن العبد لله كلب ضال مَر بخرابتهم، مال بوراك على الحُرمة مِسك، صَب في أذنيها استنكارًا واستقباحًا، فابتسمت بكياسة وهمست بكلمة، ثم انسلتت فاتجهت نحوي، تجر حزنها، وذيل فستانها، قبّلت يدها السليمة وسألتها عن جرح الأخرى، فحمدت الله على الحال: «رغم أن الذراع لم تعد تتحرك»، ثم همست: «سليمان أفندي، أشكرك على تلبية الدعوة، تعمدت عدم البوح في رسالتي عن سبب الزيارة، حتى لا تتردد في القبول، أتعشم ألا تندم على موافقتك»، هززت رأسي بابتسامة مصطنعة وتلوّى قولوني من مجهول لا أعلمه، وقبل أن أشرع في المُجاملة

وأخبرها نفاقًا أن «تعبك راحة يا سِت الكل» سألتني، إن كنت عثرت على خيط يقود للقاتل، فأخبرتها ـ تحليلًا للجنيهات الخمسة حتى لا تطالبني بها ـ أن الحادث ليس جريمة فردية، بل وراءه مؤامرة محبوكة، وأن مقتل عصمت باشا بقِدر الخنافس، ليس إلا جريمة في سلسلة جرائم بدأت بعزت باشا الدفتردار، وانتقلت من بعده إلى ضحية ثالثة، الحرمة همَّت إسحاق، سلسلة تحكمها أسباب مبهمة، وقائمة مُحددة مسبقًا، تحمل أسماء سبع ضحايا، تم شطب ثلاثة منهم.

ضرب الفزع وجه الحُرمة فقلت لنفسي، كنت لتنزفي من أنفكِ وعينيكِ يا حرمة إن عرفتِ بشأن هجين القمر، ثم باغتتني بسؤال، عن داغر بك، وما رأيه في هذا الأمر، فتحيرت، بين البَوح بما بدر منه من إقصاء مُهين، وتنحية عن المهمة، وبين الكِتمان لحفظ ماء الوجه، وكان الكذب دائمًا وأبدًا، مُنجيًا من المهالك، أخبرتها أن أمر القضية بيدي، وأن داغر بك يثق في رأيي ثقة عَمياء، ثم سألتها إن كانت أو زوجها على صِلة بإحدى الضحيتين، فأخبرتني أن زوجها وعزت باشا كانت تجمعهما صداقة قديمة، أما المدعوّة همّت إسحاق فهي؛ والكلام لها، «عاهرة عتيقة، لها ماضٍ، خطّافة للرجال وتستحق الحرق»، ولم أسألها إن كانت راودت عصمت باشا يومًا، فهي مَن تطوعت: «الأَوْلى أن تسأل مَن الذي لم تُراوده تلك العجوز الشمطاء؟ بعد قتلها زوجها أصبحت زي فوطة الحمّام كل ساعة في وسط»، ثم استدركت نفسها، مسحت الدموع حتى لا يسيح الكحل، واستطردت: «سنعقد الليلة جلسة تحضير أرواح»، تبخّر ريقي في لحظة، ثم أردفت: «سيُدير الجلسة البروفيسور «باسكال راندولف»، وأشارت للرجل الأربعيني الكحيل: «طبيب الأرواح الأمريكي وخبير الماورائيات ذائع الصيت، فهو في زيارة عاجلة للقاهرة، واستطعت أن أحجز معه موعدًا، سيدعو روح الفقيد الخجولة للحضور، والحلول في جسد البروفيسور، وربما ينجح في التحدث إلينا وإفشاء اسم قاتله أو أوصافه»، ولما استفسرت عن الحضور، أجابتني بأن الجمع مَطلوب لسلامة الجلسة، حيث يجب أن تكون هناك أرواح شاهدة، وأن يكون العدد فرديًّا، ومن أصدقاء الفقيد المُقربين، حتى يطمئن بوجودهم ويستأنس الحلول: «المطلوب منك، التقاط صورة جماعية للحاضرين قبل الجلسة، وما يظهر في الصالون أثناء التحضير من ظواهر، دون حركة، دون صوت، ودون حدود للعدد. صور كما تشاء، وإن التقطت خيطًا أو كلمة تقود للقاتل، فسأجذل لك العطاء».

قالتها وتأملت وجهي، تريد أن تقتل الرفض في صدري وتهزمني بسيف الحياء. ضاقت بي السُّبل فاستفسرت عن فائدة التصوير، وعلمت منها أن ذلك هو طلب الخبير الروحاني الأمريكاني، ليُدلل على صِدق قدراته، وليوثق الزيارة في كتابه العلمي الذي يُعدّه عن تحضير الأرواح، كما أنه يعتقد أن الفوتوغراف يُسجل أحيانًا ما لا تراه الأعين»، وقد احتاطت للزيارة بوجود بوراك الأرناؤوطي الذي كان صديقًا مُقربًا لعصمت باشا أيضًا.

يا حرمة، تحتاط من الحية بالثعبان؟ ربنا يوفق البهائم.

أخرجت الكاميرا من الصندوق ونصبتها، وقررت استخدام لمبات المغنيسيوم لتقوية الإضاءة لحظة التصوير، ثم شرعت في تركيب ألواح الكولوديون، بوَجل يملأ صدري، ويفيض من بين الضلوع، فقد قرأت مقالًا في صحيفة الديلي تلغراف منذ شهور، يتحدث عن الجلسات الروحانية التي تُخاطب الموتى، وذلك البروفيسور «باسكال راندولف»، خليط عجيب يجمع بين إنكليزي وفرنصاوي وألماني وهندي من سكان أمريكا الأصليين، وهو من الداعين لإلغاء العبودية، ويُروج لفكرة أن الزنج مُقدر لهم الانقراض إن لم

يُهاجروا إلى الهند، هُراء ودَجل وشعوذة، وكَتب مغرضة وجمعية علمية تُكرِّس لأفكار مُهرطقة، ها هو ذا أبراهام لنكولن، مسيخهم الدجال الذي أراد إلغاء الرق، قد اغتيل، وستنتشر فُلوله كالنمل بعد تدمير جحوره، ليبثوا خبث وظُلم المساواة في أدمغة الأمم فيُفسدوا العقول، علامة من علامات نهاية الزمان. الحرمة المسكينة «مِسك» تتعرض لاحتيال مُستتر، شأن كل الأرستقراط المُدلّلين الذين لا يُدركون حجم ثرواتهم، خاصة حين يترملن، بل وتُتوج الجلسة بدعوة «بوراك الأرناؤوطي»، الرجل الذي يُشبه أولاد الخنفسة «لا يتّاكلوا، ولا يتلعب بيهم». اقترب مني، حامَ حولي. ضبع جائع، رمق الكاميرا باستخفاف، ثم خفخف كالخنزير: «لولا داغر بك، لدُفنت في القرقول، لعلّك تعتقد أنك بتلك الألاعيب ستصير يومًا من القواصة، أخشى أن وجودك في المارستان الذي هربت منه أقرب، ولا تظنني غافلًا عن امتصاصك لدماء الأرملة يا ساكن لوكاندة الوطاويط»، تجنبت الاصطدام بشنبه وهو يلتفت للجمع، ودعوت الله في سِري أن يكون اسمه في قائمة الهجين القمري، وإن لم يكن، فسأقترح إضافته في الزيارة القادمة.

حين انتهيت من ضبط الكاميرا، رُصّت الكراسي للسيدات، وحُشر بينهم الدجال الروحاني الأمريكاني، ومن ورائهم اصطفّ الرجال، التقطت الصورة على إضاءة النجفة ـ وتعمّدت أن أطلب من بوراك تحريك وجهه لترتعش ملامحه ـ قبل أن يجلسوا حول مائدة خشبية مُستديرة أتى بها الخدم. ثمانية كراسي، جلسوا جميعًا، رجل فامرأة فرجل، عدا كرسي شاغر بجانب مسك هانم، وُضع فوقه شماعة تحمل قميصًا أبيض كان لعصمت باشا، وأمام كلٍ منهم كوب زجاجي نِصف مملوء بالمياه، تسبح فيه زهرة لوتس زرقاء نضرة. أُطفئت شموع النجفة، وأُشعلت سبع شمعات فوق المائدة، وتركت الشمعة المقابلة لقميص الباشا وكرسيه مُطفأة. أُغلقت الستائر والأبواب، ووقف العبد لله في زاوية مُقابِلة للمائدة، وجهت العدسة للجالسين، وضعت لمبة المغنسيوم الأولى، واستعددت لضغط الزناد، ثم بدأت فقرة الشعوذة.

المسيخ الأمريكاني، طلب من الحاضرين بسط كفوفهم مُنفرجة الأصابع على المائدة، ومُلامسة الأنامل بحيث يصنعون دائرة مُغلقة، ثم أمرهم بإغماض الأعين والتزام الصمت التام، وحدجني بنظرة آمِرة، وسبّابة ناهية أمام فمه حتى أذعن، ثم أغمض عينيه هو الآخر، لعشر دقائق، كانت كافية أن تعتاد عيناي الظلام، راقبت ساقَيه الثابتتين تحت المائدة، يديه اللتين لم تتحركا، الستائر الساكنة من ورائه، ونار الشموع التي كفت عن التمايل والارتعاش، أبحث عن الخدعة، الملعوب، عن المُساعد الخفي الذي يمسك بالخيوط الشفافة ليبث الخوف في الجالسين. ولكن، لا شيء، ولا أنكر أن الصمت والشموع، دقات قلبي العالية والجراد السكير الهائم حول رأسي، والهمهمات التي بدأ الروحاني في إصدارها، بلُغة لا أفقهها، هيأت لي أن زهور اللوتس في الأكواب تلتف، بل هي تلتف، مثل عَبّاد شمس، بلا شمس، تتجه لقِبلة الكرسي الشاغر، هيأت لي أيضًا أن الظلال المعكوسة على الجدران من حول الجالسين، تتضاءل، تتقزم، وكأن الشموع تستطيل، بل الشموع تستطيل، كفروع اللبلاب، ترتفع فوق رءوس الجالسين، وتتضاءل الظلال على الحائط، عدا ظِل واحد لم يتضاءل، ظِل قميص الباشا، تضاعفَ حجمه على الحائط من ورائه، ولم يكن ذلك ما أفزعني، ونصب شعر جسدي، لقد كان الرأس، الرأس الذي نما للظِّل، رأس يعتمر قِدرًا لها ذراع، خرجت من فتحة الرقبة. لقد حلّت روح الباشا، حفير الخنافس، وحتى يكتمل الفزع، اشتعلت شمعته دون أن تمسها نار.

لانت ساقاي من تحتي، أعواد سباجيتي مسلوقة، انتابتني البرودة وتعرَّقت، وتشابكت أحبالي الصوتية

فتعصّت الصرخة على الخروج، الظَل الثامن يتحرك، الظَل الثامن ينظر تجاهي، دعوت الله أن تكون كلمات بوراك الأرناؤوطي صحيحة، أفضِّل أن أصير مجذوبًا مُخرفًا، أسكن المارستان إلى الأبد، على أن أجتمع في غرفة مُغلفة مع روح قتيل يرمقني. ضغطت زناد الفوتوغراف ـ لاإراديًّا ـ والتقطت صورة، لعلها تكون صورتي الأخيرة، وفتح ظِل القتيل فمه في صرخة مُدوية، بلا صوت، وأشار نحوي، فتوقف قلبي لحظة، ضربني الدوار، وسالت من أنفي الدماء ساخنة، قبل أن تنتهي الهمهمات بغتة، ويأمر السيد المسيخ الجالسين بفتح أعينهم دون كلام، وما هي إلا لحظة حتى استوعبوا أن شمعة القتيل أُوقِدت، وأن الظِّل الكبير على الحائط وراءها، صار له رأس، فصدرت عن النسوة صرخات كتمتها الأنامل، تلاحقت أنفاس «مِسك» هانم، وجحظت عيناها حتى كادتا تخرجان من محجريهما، فضغط المسيخ على رسغها تثبيتًا، وأمرها بالصمت والهدوء احترامًا لروح الباشا.

بعد لحظات، ساد الهدوء وسكنت الظلال، فتمالكت نفسي، بدّلت لوح الكولوديون ولمبة المغنسيوم، ثم التقطت صورة أخرى، ظِل الباشا أشاح بنظره عني، وبدأ المسيخ الأمريكاني في الهمس في أذن الجواهرجي حتى يترجم للعربية: «هل تحضرنا رُوح الفقيد العزيز عصمت باشا؟ إن كانت الإجابة بنعم فالطَّرق على المنضدة مرة واحدة، وإن كانت الإجابة بالنفي، فالطَّرق مرتين»، ساد صمت طويل، ثم ارتعشت الشموع من رياح لا مَصدر لها، قبل أن نسمع خبطة واحدة، ارتعدت فرائص الحاضرين، ورجوت مثانتي ألا تفضفض عن همومها، فالوسيط الروحاني المُعتبر لم تتحرك قدماه تحت المنضدة، المسيخ كان مسيحًا، وكنت أنا رئيس المجلس الأعلى لليهود الذي ظلمه وأنكره.

مرت لحظات، حتى تمالكت الأرملة نفسها: «أيتها الروح المُعذبة، روح عصمت باشا، نرجو منك الإرشاد والتوجيه، حتى تستريح في مقامك الأبدي، وتستريح أرواح أحبائك في العالم الفاني، هل تعلم مَن الذي قتلك؟»، بعد صمت، سمعنا على المائدة طرقة، اهتزت الأكواب، ولمحت البول يسح بسلاسة بين قدمَي زوجة الجواهرجي اليوناني، روح الباشا تعلمُ قاتلها، تلاحقت أنفاس مسك هانم وانتعش وجهها بالأمل، واعترى الحاضرين ترقُّبٌ صامت، كصمت القبور، حتى بوراك الأرناؤوطي، رغم كونه من فصيلة الضباع التي تأكل فريستها قبل قتلها، كان يعتصر أصابع حافظ باشا أغا من الرعب حتى كاد يكسرها.

السؤال الثالث جاء بعد أن أخرج الوسيط من جيبه مِحبرة، أدار غطاءها ودسَّ سِن قلم، ثم وضعه على ورقة في منتصف المائدة، وأمر الحاضرين بالتزام تلاحُم الأيدي والصمت، قبل أن يطلب من الروح كتابة اسم القاتل، اتخذ الأمر دقيقة، ثم اهتز القلم، وبالكاد انكتمت الشهقات. ثوانٍ إضافية، قبل أن يتحرك بضعة سنتيمترات، ثم ارتفع في الهواء بغتة، فندّت عن إحدى النسوة صَرخة، وضغطت أنا على الزناد فالتقطت صورة، وضيّقت عينيّ في محاولة يائسة لرؤية خيط شفاف يرفع القلم الذي ظل معلقًا للحظات قبل أن يهبط على الورقة ليكتب حرف «أ»، ثم توقف، انحبست الأنفاس، قبل أن يتبعها بحرف «ل»، الـ.. ماذا؟ طالت اللحظات، ثم انكتب حرف «م»، وتبعه «ش»، ولم أبذل جهدًا إضافيًّا لأستنتج قبل أن ينتهي، أنه يكتب «المشاعلي»، انتهى القلم من الكتابة ثم ارتفع أعلى المائدة، كاد أن يلامس النجفة، ارتج، وهبط بسرعة فاستأنف الكتابة، حفر الورقة بثلاثة أحرف أوقفت الزمن، وغيّرت مصير الجلسة، «هـ»، «ن»، «ا».. المشاعلي هُنا! ماذا يقصد؟ وكانت الإجابة أن سقط القلم ميتًا على المائدة، وتخضّب القميص بدماء داكنة، نشعت من فتحة الرقبة ونزلت حتى الأكمام، فصرخت النسوة، خرقن طبول الآذان دون استثناء، ثم قُمن

يتعثرن في ذيول فساتينهن، وفشلت محاولات المسيخ الأمريكاني في تهدئتهن، وتخبط الرجال في كراسيهم، فاتجه بوراك للباب، حاول أن يُدير المقبض، ولكن الباب كان مغلقًا بالمفتاح، خبط بعزم ما أوتي وصرخ في الخدم، فتضاعف الهلع، ونزف القميص حتى أغرق السجادة، ثم انطفأت الشموع بغتة، بريح لا مصدر لها، فتحركت من مَكاني، باسطًا يدَيّ للأمام حتى لا أخبط أحدهم، الخدم يدفعون الباب من الخارج بأكتافهم: «أين المفتاح؟ مَن أغلق الباب؟»، زحفت تجاه الباب، جاحظ العينين، حتى اصطدمت بحائط فتكوّمت. الأرملة تصرخ، تنادي اسم زوجها، الظلام يستدعي أسوأ وحوشي، والصريخ يمضغ أعصابي بأسنان فأر صحراوي مُدببة، وما هي إلا لحظات، قبل أن ينكسر كالون الباب ويندفع الخدم حاملين الشمعدانات ليُبددوا الظلام، المسيخ الروحاني يقف قُرب النافذة، النسوة مُنكمشات يحتضن بعضهن بعضًا في الركن، الجواهرجي يقف وراء بوراك الأرناؤوطي مُتحفزًا، وحافظ باشا أغا، كان الوحيد المتماسك الأعصاب، جالسًا على كُرسيه أمام المائدة، في نفس وضعيته، لم تُروعه الظلمة ولم ينفعل، فقط كان.. بلا رأس!

قلت منذ زمن، إن للتنفس رتابة مُملة، ولضربات القلب، وقْع، يشبه خبطات مُرعبة على أبواب البيوت في الليل. وما تحمله الحياة من آلام، ومن فزع، من رغبات مكبوتة، ولهاث خلف الذهب، وتكالُب على السطوة والنسوة، كفيل بأن يُعيد المرء التفكير في جدوى الصمود والمُضيّ، ما دُمنا ننتهي إلى النسيان، إلى الفقد، إلى التلاشي، ولنا في قبور الفراعين عبرة، فالملوك العِظام الذين ناكحوا الأرض قرونًا، وأورثوها لأبنائهم كي يحبِّلوها، ما لبث الزمان أن بعثر أمجادهم بين أيدي اللصوص والغُرباء، وبِيعت أجسادهم المُحنطة في الأسواق؛ لذا فعلى المرء أن يختار النهاية بيديه، في الوقت الذي يعتلي فيه قمة هرمه، قمة صحّته، قمة سعادته، خير من انتظار الموت الذي يُباغتنا في أسوأ حالاتنا، حين نصير مهجورين، مُخرّفين مُتعفّنين، ومَتخُومين بالأفاعي السوداء.

ولأن العبد لله، ليس من عبيد الأرض الهالكين، فريد من نوعي منتصر على مَن حولي بقوة الفهم ودقة البصيرة، مبروك، ومُرسل من السماء، ومؤيد بالمعجزات، ورغم الكآبة التي تملأ رئتَيّ بالدخان، وخيانة عزيزة التي طعنت كليتي اليسرى، ومرض عنتر المزمن، فقد عَهِدت لنفسي أن أمهد طريق الحقيقة لَمن هم دوني، وأن أنقذ مَن لا يَصلحون للحياة، بالقضاء عليهم دون تفكير أو ندم.

لقد حذّرت داغر بك من الاستخفاف بالهجين، وها هو ذا قد نفَّذ وعيده، وما إن أضاءت المصابيح صالون سراية عصمت باشا، وأشعل الخدم الشمعدانات، حتى تأكدت أن الزاحف الأعظم لم يقتنص ضحيته الرابعة فقط، وفي نفس المكان الذي قضى فيه على ضحيته الثانية، بل إننا أمام فنان مُجدد، رسام لا تُسعفه الألوان، وشاعر لا تسعه الحروف واللغات. فبعد انهيار زوجة حافظ باشا «مقطوع الرأس» وسقوطها على الأرض، وبعد صريخ الأرملة «مِسك» المتواصل مما استدعى تلقيها صفعة من كف العبد لله، وبعد أن تقيأت زوجة الجواهرجي على السجادة الفارسية الغالية، استفاق بوراك الأرناؤوطي من هول الصدمة، فأمر بخروج الحريم من الصالون والإبقاء على الرجال، ثم استدعى حُراسه بنفخة في صفارته النحاسية، صاح فيهم آمِرًا متقمصًا روح نابليون بونابرته، بمسح أنحاء السراية، ومُحاصرة المخارج والمداخل، ثم أغلق الباب والتفت نحوي، يُخفي الوَجل ورعشة في يده، ويُتمتم بالاستغفار (زيّ المراكبيَّه ما يفتكروش ربنا إلَّا وقت الغرق). سألني إن كنت رأيت شيئًا، أو التقطت بالكاميرا ظِلًّا للقاتل، فأخبرته أن

العين لم تلحظ شيئًا خلال وميض المغنسيوم، وأن عليّ طبع الصور حتى أتأكد، وقبل أن يبذر شكوكه من حولي أو يطلب العون، أزحته، والتقطت مصباحًا من يد الخادم، تفقدت الستائر وما وراءها، دولاب الفضية والمسافة الفاصلة بين البيانو والحائط، لا شيء، الهجين تبخّر من الصالون بفعل السحر، ثم اتجهت للجثة، غاص حذائي في الدماء اللزجة، تأملت عروق الرقبة التي ما زالت تضخ بوهن، وضايقني كثيرًا عجزي عن التحدث مع جسد بلا رأس، فدوّنت الملاحظات حتى أتفقدها.

إلى حافظ باشا أغا،

تحية طيبة وبعد،

فعليك ألا تجزع، فقد مِت ميتة شرفاء اليابان، في زمن يخجل الإنسان من العيش فيه، لقد اختار الهجين من أجلك، أن يتولى أصعب المهام وأجدرها على الوقوع في بئر العار إن أصابه الفشل، اختار أن يكون «الكيشاكونين»؛ المُحارب الياباني المُضحّي الذي يقف خلف الخطّائين ليُطيح برءوسهم، رحمة لهم، بعد أن يبقروا بطونهم بسيوف الساموراي الحادة. مُحارب جريء، نصله مسنون ومُصنفر على أجود الأحجار، سريع كالبرق، يشق الهواء بلا صوت ليهوي على العنق فيبتره بلا تردُّد، سكين يشق قالب زبدة، قبل حتى أن تُدرك أو تستوعب، ليطير رأسك وهو يفكر، يحلم ويطمح، بأعين ترمش، وفم يُردد آخر حكمة آمنت بها، قبل أن تسود الظلمة ويسكن الكون من حولك. اعلم يا سيدي أن وضعية جسدك لا تنم عن تشنج، كنت تُمارس الرجولة وتدّعي الشجاعة في وجود الروح، والموت جاءك أسرع من طلقة بارود، باغتك السيف من اليمين، حيث انثنت حوافّ جلد الرقبة للداخل، خاض بحرية، ثم خرج من اليسار، حيث تهتك الجرح وانفتح، بسيف لا يزيد وزنه على ثلاثة أرطال، ولا يقل طوله عن متر، هوى على رقبتك دون ميل، ودون أن يصطدم بالترقوة رغم الظلام، ضربة واحدة، دون أن يضطر للإمساك بشوشة شعرك ـ أنت لا مؤاخذة أصلع لا تملكها ـ لتثبيتك، أو بإحدى أذنيك، وإلا استغثت وقاومت، أو كتبت جوابًا تحكي فيه ما حدث، تمزّق لحمك، وكُسرت فقرات عنقك بطقطقة تاهت وسط صرخات النسوة، ولأن كُرسيك مسنده عالٍ، ومؤخرتك عريضة مثل كنبة إسطنبولي، فقد حافظت على توازن جسدك وصلب ظهرك رغم فقدك لرأسك.

حين انتهيت من الكتابة وانحنيت لألتقط الرأس حتى أفحصه، وبعد مَسح أسفل المائدة والأركان، لم أجد للرأس أثرًا، وكأن الباشا جاء في الأصل بدونه، أو التقطه الهجين حين طار، وقبل أن يسقط على الأرض، في الظلام! ثم خرج بهدوء! من أين خرج؟ فالنافذة والباب لم ينفتحا. أشعلت شموع النجفة دون المَساس بالجثة، والتقطت عدستي المُكبِّرة، لأتتبع نقاط الدماء، ومن العجب، أن كل ما عثرت عليه كان نثرة مُكثفة على الحائط الأيسر، تجاه خروج السيف من الرقبة، مما أوحى إليّ بأن المشاعلي، الهجين، الزاحف، «مسرور السيّاف»، ربما ضرب العنق بعد أن وضع على الرأس كيسًا بلا مسامّ، أو لأنه يملك عينين كأعين السنوريات، ترى في الظلام الدامس، شق العنق والتقط الرأس قبل أن يمس الأرض.

بعد دقائق، أعلن حرس الأرناؤوطي خلو السراية من القاتل، تسلل منها وذاب مثل الملح في الماء، فجأة انتفض الأرناؤوطي مثل البغل المُتعافي، يعض مَن يمشي أمامه، ويرفس مَن يمشي وراءه، أراد تفتيش حقيبتي والكاميرا الخشبية فرفضت باستماتة، حتى لا يحترق الفوتوغراف الذي يحوي صور الجريمة، وحين استخرج سكيني من سُترتي، أقنعته بعد مُعاناة، أنها مخصوصة للحماية فقط، فتش بعدها حقيبة الوسيط الأمريكاني، بحياء، قبل الإفراج عنه، وتحفّظ على كاميرتي، ثم أرسل في استدعاء داغر بك.

وقفت في الطرقة وأشعلت سيجارة، وشرعت في ترتيب أفكاري لحصر المشتبه بهم. استثنيت السيدات، وقارنت هيئة الوسيط الخواجة، بجسم الهجين الذي زار بيتي يومًا، وكان البَون شاسعًا، فالهجين عريض الكتفين مفتول العضلات، والوسيط هزيل، له أكتاف امرأة، أما الجواهرجي اليوناني باخوس، فسِنّه وهيئته لا تساعدان في بتر رأس فأر، لم يبقَ إلا بوراك، الطول والعرض يتشابهان، والصوت يسهل تغييره، الوحيد الذي يملك سلاحًا، وإن لم يحمل سيفًا، الوحيد الذي بدأ الجلبة وخبط على الباب، تأملته من بعيد، ولولا جبهته التي لا تحمل أثر حرق لاتهمته.

بعد دقائق قطع خيط التفكير اصطدام أحد القواصة بالشمعدان النحاسي، ولعجب، لم يترنح الشمعدان أو يسقط من ثقله، فهو من النحاس غير الأجوف، اقتربت فأمسكت بجذعه، ورفعته بعد جهد مُضنٍ، حين وصل داغر بك: «ماذا تفعل؟ تعالَ ورائي»، دخل الصالون يدب بساقه الخشبية مُنزعجًا مفزوعًا، تأمل الجثة وقاوم التقيؤ، ثم نظر في عينيَّ مليًّا وزفر: «ماذا حدث يا سليمان أفندي؟»، قرأت له فحوى ما دوّنته في مفكرتي، وأضفت إليه ما توصلت إليه بشأن الهجين، وخبر زيارته غرفتي، وما حدث من بعد إقصائي، ولم أنسَ التشدق باللوم والعتاب. استمع بحرص، ثم استطرد: «لقد نهيتك عن الخوض في تلك المسألة، ففي عينيك مَسّ، وفي كلماتك جُنون، وهأنتذا تنحشر..»، قاطعته: «دون إرادتي»، رمقني بغيظ ثم أكمل: «ويكون لك نصيب في حضور القتل، لا أجد في نظرتك للأمور عقلًا أو وعيًا، ولا في مظهرك العجيب ما يَطمئن له البال»، وما هي إلا لحظة، وأتى من أقصى ميدان الرميلة قواص يسعى، انتهى من نهيجه ثم قال: «لقد وجدنا رأس حافظ باشا أغا».

انطلقت بنا خيول عربة داغر بك، يتقدمنا العبيد الحُفاة بالمصابيح، يُفسحون الناس بالزجر والعصيّ، حتى وصلنا إلى ميدان الرميلة، الجموع كانت تسد سلالم بوابة العِزَب، شُق لنا طريق بينهم، فصعدنا لنكشف المشهد المهيب، رأس حافظ باشا مشبوكة بخطاف من خطاطيف الماشية، يمُر من العنق في التواء، ليخرج من أسفل اللسان المُتدلي، ومُعلق طرف الخطاف الآخر بمقبض البوابة الكبير، وفي الفم، حُشرت العملة الذهبية بداخل ورقة مطوية، استخرجتها ففضضتها، وقرأت فيها أبيات شِعر لابن القيم:

إذا كنت لا تدري فتلك مصيبةٌ

وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم

وتحتها كُتب: «تلك أضحيتي الرابعة، ويتبقى في رقبتي ثلاثة رءوس ظالمة، كان يجب أن تستمع لساكن لوكاندة بير الوطاويط، قبل أن يسبق السيف العَذَل»، امتقع وجه داغر بك، فحدثتني نفسي: «ادّي العيش لخبَّازِينه ولو ياكلوا نُصُّه، ولا تكن حمارًا حجازيًّا عنيدًا».

أنزل القواصة الرأس ووضعوه في زكيبة، ثم أمرني داغر بك باتباعه، دخلت وراءه إلى القلعة، وقفنا في حوش الديوان بجانب النافورة الأندلسية، وفورَما صرف الحراس والقواصة، وقبل أن أسأله عن بيت الشعر المكتوب في الورقة ولماذا امتقع وجهه حين قرأه، أخرج من جيبه رسالة، ووضعها في راحتي، قرأت فيها بيت الشعر الذي انحشر في فم حافظ باشا، وتاريخ اليوم، فالهجين أرسل ميعاد القتل. قال مبتور الورك: «حين استقبلت تلك الرسالة، لم آبَه، ظننتها مُداعبة من شخص سمج، الآن آمنت أن القاتل يُراقبني، وللتوّ تحدث عنك فأنصفك، ولا أملك إلا أن آمرك باستئناف البحث، مع الامتناع عن ذِكر أمر هجينك المزعوم أمام العامة، حتى نكشف هوية القاتل، هل تشك في فرد بعينه؟»، استجمعت أفكاري، وحاولت أن

أتجاهل القمر الذي يتجسس عليَّ من بين السحاب، استأذنته فدهنت يدَيَّ ووجهي بالمرهم الواقي، وعرضت عليه الوقاية، فأبى مُشمئزًّا كالجُهال، قبل أن أسحب نفَسًا وأفند له ما توصلت إليه خلال الأسابيع الماضية: «لقد لاحظت أن القتلى الأربعة، عدا الحرمة هِمّت إسحاق، ينتمي آباؤهم للرعيل الأول من جيل القلعة، رجال مُخلصون مُقربون من الباشا الكبير، كما لاحظت أن القاتل بعمده التشهير والتمثيل بالضحايا، يطلب أن يعلو صوته، وتشتهر قضيته، يريد للسادة أن يفزعوا، ويريد للعامة أن يعلموا، وربما يثورون؟». هز داغر بك رأسه مؤمِّنًا على كلامي ثم أشعل غليونه: «مَن قال لك إن الحرمة همّت لم تكن من المقربين؟ لقد كانت مورد السلاح الأول للباشوات والأمراء عهد الباشا الكبير»، عقّبت: «ذلك يدعم نظريتي، فللقاتل ثأر يطلبه»، امتقع وجه داغر بك: «نحن في أيام عَصيبة، الخلافات بيننا وبين الباب العالي تتفاقم، وأفندينا مُشتعل غضبًا، ربما هناك خائن بيننا، شخص يعمل لصالح الباب العالي يريد إثارة البلبلة بقتله رجالات الباشا؟ لا أستطيع أن أُطيح برءوس القوّاصة، وأزجّ في السجون بكل مَن تحوم حوله الشكوك»، طلبت منه ضبط النفس، ثم أعدت رصّ الأفكار مثل الفحم فوق المعسل: «القتلى كدرجات السلم، ترتفع مرتبتهم وأهميتهم من الأدنى إلى الأعلى مكانة مع كل قتلة، أتوقع أن يكون الضحايا الباقون بداخل القلعة، في دائرة أفندينا المقربة، ربما أحد النظّار، أو أفندينا بذات نفسه». أطاح داغر بك بغليونه إلى الحائط: «ليس هناك مَن يجرؤ على ثأر كهذا، وليس هناك رابطة حقيقية بين القتلى حتى الآن»، التزمت الصمت لحظات حتى هدأ ثم أردفت: «هناك مساران لا خروج عنهما، إما أن القاتل مُكلف من الأستانة بأمر من السلطان الغادر عبد العزيز الأول كي يغتال رجال القلعة المقربين، فتضعف همة أفندينا، وتنكسر شوكته، وهو ما أستبعده؛ فلو أراد القضاء على الباشا نفسه لاختار السم؛ الوسيلة الأسرع في تحقيق الهدف، فلا معنى لجرح الجسم ما دام قطع الرأس يختصر الزمن. أو، أن القاتل يحمل ثأرًا قديمًا، في تلك الحالة، لا مفر من أن هناك سرًّا يجمع الموتى». وتوقفت عن الكلام فجأة حين صعق رأسي صُداع غريب، سهم من الحديد اخترق جبهتي، فوق حاجب عيني اليمنى مباشرة، وضعت كفي على عيني لاإراديًّا، وصدرت مني آهة، وكِدت أسقط على ركبتيَّ، فتوتر مبتور الورك، وقبل أن يستدعي الحرس تجمعت نثرات الصورة المهترئة في ذهني دفعة واحدة، فتمالكت نفسي، وطمأنته أني بخير، ثم أخبرته أن: «هناك رابط يا سيدي، رابط مَر من تحت عينيَّ دون أن أنتبه؛ فالقاتل يغتال ضحاياه بطرق عجيبة، حرق بعد قطع أير وحشره في الفم بالقوة، ثقب رأس بالخنافس تحت قِدر مُحكم، دس السيانيد في التبغ، وقطع الرأس بسيف ثم تعليقه في باب القلعة»، طُرق عفا عليها الزمن، طُرق لا تنتمي لذلك العصر، ألا يبدو ذلك مألوفًا لك؟»، لمعت عيناه بما قصدت فأردف: «طُرق المماليك في القتل»، أمَّنت على كلامه وأحكمت الاستنتاج رغم الألم الذي ينشر جبهتي ويغوص في فصّي الأيمن: «القاتل كان يبث رسالة واضحة، تعود لزمن المماليك؛ فالضحايا، وآباؤهم من قبلهم، كانوا حاشية الباشا محمد علي، تجمعهم صِلة وثيقة في زمن مليء بالخيانات والمؤامرات، كانوا مخلصين، ولكن ذلك لا يعني أنهم لم يظلموا أحدًا، كما أن للاغتيال علاقة بالمال، فالقاتل ترك مع كل منهم، عُملة ذهبية فئة العشرة قروش، محَفور عليها تاريخ سك «١٢٢٣هـ»، مما يعني سنة ١٨٠٨ ميلادية؛ أول عملة تضربُها دار سك العملة في عهد الباشا، ربما أراد أن يُذكّرهم بما استحلّوه في كروشهم يومًا، فلا أعتقد أنه يدفع لمَلَك الموت ثَمن نقلهم إلى العالم الآخر مثلما اعتقد الإغريق والرومان! ويُلقب نفسه بلقب يبعث الرعب في النفوس؛ «المشاعلي»؛ مسئولي الإعدام عهد المماليك الغابر، وأخيرًا، الأسد الخشبي الأسود؛ إشارة الإعدام، علامة نزول العذاب، وليست مصادفة، أن يكون رنك الأسد، هو علامة السلطان المملوكي

الظاهر بيبرس، أقوى سلاطين المماليك، كما لا يجوز للضحايا أن يجهلوا كَنهه، فلا معنى أن يُرسل القاتل رسالة مُبهمة قبل زيارته، بل أكاد أتخيل أن وقع رؤية الأسد الخشبي على الضحايا، كان اليأس التام وانقطاع الرجاء. إذا أردنا أن نمنع اغتيال الثلاثة الباقين، فعلينا أن نُشهر أمر القتل ونفشيه بين كبار الحاشية؛ باشوات وبكوات وأمراء، وأن نكشف صورة لتمثال الأسد المُذيل بتوقيع المشاعلي، في الوقائع المصرية، وننتظر، أول مَن يرفع يده بين رجال الحاشية القدماء، لنصنع منه طُعمًا».

حين انتهيت من الخطبة العصماء التي لم أتنفس بين كلماتها مرة، نفذ السَّهم الذي اخترق جبهتي من مؤخرة رأسي، طار أسرع من طلقة بندقية، ساحبًا عقلي معه، فاصطدم بحائط قريب، في الشام. سقطت من فوق جبل سانت كاترين، لأستقر على أرض حوش الديوان، بين قدمَي مبتور الورك، كان ذلك آخر ما أدركته، لا أدري كيف حُملت؟ لا أدري كيف رقدت فوق كنبة مكسوة بالقطيفة الحمراء؟ في صالون مُذهب لم أرَ له مثيلًا في الأرض، ولا أدري لمَ يداي مُكبّلتان؟

اتخذ الأمر مني لحظات حتى تعرفت وجوه الحاضرين، داغر بك مبتور الورك كان يقف في نهاية القاعة. بجانبي طبيب يُخرج سرنجة حديثة من ذراعي، علمت بعد قليل أنه الألماني «دي ليو» بك؛ كبير أطباء أفندينا، ورجل فخيم ذو كرش مهيبة يرتدي بذلة ألافرانكا مُزينة بدبوس من الياقوت، يُشبه أفندينا طِبق الأصل، اتضح بعد لحظات، أنه أفندينا إسماعين بذات نفسه، انتفضت، وحاولت أن أفز احترامًا، فاكتشفت أنني مربوط بذراع الكنبة. «استرح، قالها أفندينا بصوت رخيم، وفهمت بعدها أني كنت أتحدث مع داغر بك حين سقطت فجأة في حوش الديوان، هبوط حاد، تبعته تشنجات عضضت فيها يد أحد الحراس وهو يرفعني، كان ذلك حين لمحني أفندينا من نافذة عالية، فطلب لقائي، خاصة حين علم أني سليمان السيوفي. حكيت ما حدث، منذ استكراني داغر بك للتحقيق في أول قتلة، وحتى فحصت رأس حافظ باشا التي عُلقت في باب القلعة. وأراد أفندينا أن يستزيد من علمي، فتجاذب أطراف الحديث معي حول السلطان عبد العزيز الذي يكرهنا جميعًا، وطلب مني النصح والمشورة فأخبرته، أن الخبيث لا يُعالج إلا بالخبيث، فشيمة سلاطين العثمانلية الغدر، ولا ننسى ما فعلته السلطانة «صفيَّة» زوجة السلطان مراد الثالث، حين ذبحت ثمانية عشر ابنًا لزوجها من زوجات غيرها، فوق أسِرّتهم، في صباح يوم وفاته، لتُنصِّب ابنها محمد الثالث سُلطانًا للعثمانلية. فوافقني الرأي، وأثنى على مفهوميتي وتقديري للأمور، ثم نادى الخدم فوضعوا النارجيلة بيننا وشددنا أنفاس الود والصداقة، حتى اطمأن لوجودي فصرف الخدم، وأسرَّ لي هامسًا ـ بعد أن وضع سن الأفيون تحت لسانه ـ أن الإشاعات المُتداوَلة حول تآمره وعمه سعيد باشا على قتل أخيه الأكبر، وولي العهد الشرعي «الأمير أحمد رفعت» في حادث سقوط القطار من فوق كوبري كفر الزيات، حقيقة، ليست محض صدفة أو نظرية مؤامرة جامحة، فالجسر كان مفتوحًا عن عمد، والمكابح كانت مرفوعة. «ومنذ توليت العرش، بات يزور أحلامي، كل يوم، يقف بين أشجار الحديقة، في الظلام، ينظر في عينيَّ بلوم حتى تنحبس أنفاسي وأكاد أختنق قبل أن أنتفض مفزوعًا». وتحشرج صوت أفندينا فبكى مثل طفل، عزيز قوم ذل، ولم أتمالك نفسي، ربتُّ على كتفه وبكيت معه، وأحفظته دعاء، يصرف الأرواح الهائمة، ثم قررت مشاركته الأسرار حتى أخفف عنه، فحكيت له قصة نعيمة الشركسية التي غرقت في النيل وهي تستحم، ثم مِلت على أذنه فأسررت له بأنها لم تكن تستحم، بل كانت بصحبتي، تجلس في القارب الخشبي وقت العصاري، فارجة ساقيها الشركسيتين وقد انتهت من رغيف كباب مُعتبر لم تكن تعلم أنه وجبتها الأخيرة، فالعبد لله تغدى بها قبل أن تتعشى به، وما لبث السّم أن تولى الدفة، احتقن الوجه الصبوح، تلوى من الألم،

ضاقت الأنفاس، رفست بقدميها مثل الذبيحة وتشنجت، ثم خمدت وفاضت الروح، فربطت ساقيها بحجر، وألقيتها في الماء لتغوص بين جثث الأبقار النافقة، ذلك نفس المصير الذي كانت تُضمره من أجلي، وكما يقولون: «جت الدُّودة تقلّد التعبان اتمطَّعت، قامت اتقطَّعت»، فعناية الله جعلتني أكتشف المؤامرة الكبرى قبل تنفيذها، الشركسية لم تكن إلا جارية من جواري السلطان عبد العزيز الأول، أرسلها إليّ لتتقرب مني وتُعاشرني، ثم تتخلص مني بدسّ السم في طعامي، أدركت ذلك بالصدفة البحتة، ولولا النباهة ما نجيت، فقد رصدت بائعًا متجولًا، يمر تحت اللوكاندة ظهيرة كل يوم ليُنادي: «حبّ العزيز، الربع أبو قرش، حلو ولذيذ، الرُّبع أبو قرش»، وما كان من نعيمة إلا النزول إليه، كل يوم، لتشتري قرطاسًا، ترغي مع البائع الذي يرمقني، ولا يعلم أني أراقبه من النافذة، العبيطة كانت تبث له أخباري، ولا تعلم أني أفحص القرطاس الورقي كل يوم، وأني عثرت على صورة للسلطان عبد العزيز عدة مرات، بين مقالات الجورنالات.

بعد صمت، أثنى أفندينا ـ الذي أصرّ أن أناديه إسماعين بلا ألقاب ـ على الحذق واليقظة والفطانة التي رآها في تصرُّفي، فاغتنمت الود، وأسررت له بأني غير مطمئن لفكرة ترعة السويس، وشكيت له وطأة الضرائب، خاصة على أهل الجنوب، ووجوب إلغاء السخرة في أشغال حفر الترعة، وكذا تعويض الفلاحين عن فقدانهم الماشية جراء الطاعون البقري. شكرني، ووعدني التفكير في الأمر، قبل أن يصحبني في زيارة إلى غرف حريمه الشركسي لأنتقي منهن واحدة بدل التي غرقت، عربون محبة؛ لفتة كريمة منه ونُبل لم يعد الزمان يجود بمثله. وكان ذلك ما أيقظ فؤادي وأجلى بصيرتي. فأفندينا، الرجل الكُمَّل، سليل المجد والشرف، لم يستطع كظم الحقد والحسد في قلبه، فمقابل صداقته، والشرف الذي ظن أنه أسبغه على سليمان السيوفي بلقائه ومشاركته الأسرار، أراد أن يستحوذ على عنتر! وكما يقولون: «يا أشُخ في زيركُم، يا أروح ما آجِي لكم»، فإما أن أتوسط له بالدعاء حتى يُبعث معي، نبيًّا، مثل هارون لموسى، بشرط أن يستضيف عنتر في قصره الجديد، ويضعه في قفص ذهبي ليعرضه على زُواره الأوروباوية، أو، يُرسلني مُكبلًا في مركب للأستانة، ليستفرد بي السلطان الآثم ـ مواليد برج الدلو ـ عبد العزيز الأول. لم يقلها صراحة، لكنه نوّه حين مر بصورة للسلطان، مُعلقة على الحائط، فتوقف عندها، ونظر لي نظرة ذات مغزى. كيف علم بوجود عنتر؟ لا بد أنه يُراقبني من خلال بصّاصيه، لم أشُك للحظة في ضلوع الكلب بشماف، ولن أستثني بوم الشجر من التلصص على نافذتي، وإن كان السلطان عبد العزيز بجلالة قَدره يغار من ذكائي وعلاماتي الحمراء على مؤخرات جواريه، ويعتبرني عدوّه اللدود الأول بعد قيصر روسيا، ألا يجدر بإسماعين باشا أن يحذو حذوه؟

ولأن العبد لله مُحنك أريب، صاحب فطانة، ولا يجوز لله أن يختصني عبثًا من دون خلقه لفهم لغة النبات والتحدث إلى الذباب، فقد اصطنعت اللين والانقياد، واعتمدت الحيلة ومارست الدهاء، أتلقى كأس النبيذ بابتسامة، ثم أسكبه في حوض الزرع، يناولني سيجارًا فاخرًا ويشعله من أجلي، فأحبسه بين أصابعي، وأتحجج بضيق النفس قبل أن أطفئه، لم تكن ألاعيبه لتنطوي عليّ، فكم تناقلت الألسن حِكايات حول إتقانه دس السم في طعام خصومه.

ولا أدري حقًّا متى انتهت الزيارة، فبسبب الألم الذي اعترى رأسي لا أكاد أذكر كيف خرجت! هل صاحبني أفندينا حتى البوابة؟ هل قلّدني نيشانًا أو مَنحني نوطًا للشجاعة؟ هل أهداني كيسًا من الذهب؟ كيف امتطيت الحمار؟ وكيف وصلت إلى اللوكاندة؟ ومَن الذي سرق كيس الذهب من جيبي؟ لا بد أنهم

رجال أفندينا، أرسلهم ليتعقبوني، ويتحينوا الفرصة لاستعادة الكيس مني، فأفندينا مثل القَراد، ما يركبش إلا على الجتت الضعفانة.

حين وصلت اللوكاندة، كان أول ما فعلت، أن أفرغت ألواح الزجاج من الكاميرا، ووضعتها في المحلول المُظهِر، وانتظرت شبح عصمت باشا الذي لاح في جلسة التحضير، حتى يتجلى في الفوتوغراف، ولكن ما رأيت كان مُثيرًا بحق، فالصور كلها، بيضاء ناصعة، مِما يعني أن الضوء تسرب للألواح الحساسة، ولم يكن ذلك ما أدهشني حقًّا، فحين أضأت المصباح، وفحصت الكاميرا من الداخل، كانت الدماء تصبغ كل ركن فيها!

اتخذ الأمر مني ساعة لتنظيف الدماء، وساعات أخرى ليرتخي شعر رأسي من هول المشهد، أشعلت البخور وقرأت سورة الجن وعِديّة يس، وسأحاول النوم، عازمًا الابتعاد منذ الغد عن تلك القضية النجسة، فرأسي مُنهك من أحداث ليلة أمس، ناهيك عما حدث من أهوال وشدائد يشيب لها المرء في الأسبوع الذي مضى، سأوافيك في اليوميات القادمة بأخبار عزيزة، وما كان من شأن قشطة السودة التي تقيم في غرفتي.

في الأسبوع الذي سبق حضور جلسة التحضير الروحاني، وقعت أحداث جسام، جعلتني أفكر مليًّا في وقعها وخطورة سردها على آذان العوام إن تسربت، وكذا جدوى تدوينها في اليوميات من عدمه، عاملاً بالمَثل القائل: «تقرا مزاميرك على مين يا داود!». ثم تغلبت الرغبة في السرد ـ من أجل وعد وعدته إياك أيها الحكيم ـ كي ينصلح حالي ويخلو بالي، ولتكن تلك اليوميات التي طلبت مني كتابتها وثيقة تاريخية، وسجلاً أمينًا لما حدث في المعركة الأرضية القمرية بين العبد لله والهجين والتي دارت رحاها بدءًا من سنة ١٨٦٥.

كنت وقتها قد قررت التمتع بالأيام القليلة الباقية من حياتي، ضاربًا بالعقرب الأحمر والأفاعي السوداء التي تنخرني عرض الحائط، تناسيت أمر الهجين بالاستعاذة والتعويذة، وتلاوة سورة القمر، فلا جدوى للفزع من نهاية قد تأتي على يد هجين زاحف وأنا في حِمى المولى، نبيّ تحت التدريب، يُؤيده بالمعجزات، وما كان مني إلا أن نظرت في المرآة، وقلت لنفسي، تهيَّأ يا سُلُم حتى تنزل عليك الرسالة، وافرح بما آتاك ولا تبخل، حتى يأتيك اليقين.

وكان أكثر ما يشغل بالي ويُقلق راحتي، عدم وجود لغة تواصل تجمع بيني وبين قشطة، مُعجزتي الإفريقية. في اليوم الأول سخَّرت مجهودي في خوض أسواق العبيد، جمعت عشرات اللهجات واللكنات من أفواه الجلابة واليسرجية الذين يخوضون مَجاهل إفريقيا حتى مصبات الأنهار، دونتها في مُفكرتي، وألقيتها على أُذنَي قشطة لينفك لسانها، ولا جدوى. في الليلة التالية، برقت في رأسي فكرة جهنمية، فخير لُغة تجمع الشامي على المغربي؛ هي النكاح. وحين يعجز الفم تتكلم الأجساد، وحتمًا ستموء تحتي أو تصرخ بكلمة تكون بداية الوصال. اقتربت منها، قبّلت رقبتها، نظرت لي طويلًا ثم التصقت بالحائط، وامتلأت العينان الزرقاوان بخوف يشوبه خجل، أعدت الكرَّة، لامست صدرها فانتفضت، ففككت رداءها فارتعشت، وازدادت بالحائط التصاقًا، ابتسمت لأُهدئ من روعها، فأغمضت عينيها في استسلام، ولما سقط آخر ما كانت تلبسه، بدت كتِمثال لامع من البازلت الأسود دبَّت فيه الروح، احتضنتها، قبّلتها بنهم، ثم جذبتها إلى الكنبة فاستمسكت باللبلاب، ظننتها تتمنع، فحاوطتُ خصرها وانتزعتها، خربشتني مثل قطة أصيلة، وما إن أدبرت حتى لمحت أسفل ظهرها، في نهاية عمودها الفقري، قبل عجيزتها ببوصة، ذيلًا صغيرًا!

اتخذ الأمر مني لحظات حتى تمالكت نفسي، رمقتني بعينين ملؤهما التوحش، وبخَّت مثل القطط، فالتقطت الكرباج وكرسيًّا، واستعذت بالله من الشيطان الرجيم وقد أدركت ساعتها لِمَ باعها الجلاب بسِعر بخس؛ لأنها ليست من البشر، بل بنت الأبالسة هي أقرب للقردة والنسانيس، ولا تملك لغة تتحدث بها غير المواء والخربشة، أو هكذا ظننت، حتى فاضت الكلمات من شفتيها الغليظة: «آي أأسوجيها إيمو راني، سي دو آني آجواري تيني كا ندو كا إيمو يو»، لم أستوعب كلمة مما قالت، لكني أخفضت الكرباج فسكنت، ثم أشارت إلى صورة الجارية السوداء على الحائط وقالت: «دي.. دي»، «ماذا تقصدين؟ هل تعرفينها؟»، كررت كلماتها حتى ترقرقت عيناها، فاقتربت منها، جثوت على ركبتيّ ومددت لها كفي، نظرتْ في عينيَّ طويلًا ثم مدَّت أناملها، ابتسمت مُطمئنًا، وحاولتْ عيناي ألا تتلصصا على الذيل الذي يتحرك خوفًا. أسدلت عليها رداءها، وغرفت بعض الفول الحراتي مع اللبن، ووضعته بجانبها تحت حائط اللبلاب لعلها تأكل. غمغمتْ بهمس مُبهم، ثم نحبتْ بصمت، قبل أن تنام، لساعة كاملة. تأملتها، وأدركت لِمَ لم ألحظ

الذيل حين اشتريتها من الجلاب، فالضفيرة الغليظة التي تتدلى من رأسها حتى الركب، كانت كفيلة بإخفاء معالم ذيل يتحرك، بالإضافة لخديعة الجلابة في بيع البضاعة المعطوبة. نصبت أرجل الكاميرا والتقطت لها صورة، ثم اقتربت منها لأتأمل الذيل، فقرات عُصعُص، بطول سبع بوصات، اتخذت طريقها خارج الجسم، ذيل أسود لامع يتحرك في هدوء، فوق عجيزة بضّة عضلية التركيب، لم أشك للحظة أن المسكينة نِتاج تزاوج بين البشر والقردة! وحين دقّقت النظر في صورة الحائط التي تُخفي وجه أمي، الجارية السوداء التي طلب سيدُها التقاط صورتها منذ سنين، لاحظت التشابه، فعدا العينين اللتين لم تكونا زرقاوين، والضفيرة التي تبدَّلت بشعر خشن مستدير، الملامح كانت قريبة بشكل كبير، ربما هي أم لها، وربما هي فقط، تشير إلى واحدة من فصيلتها، ماذا تعني الكلمات التي تفوّهت بها؟ من أي قبيلة أتت؟ وما سِر الخصر المجروح بالمخالب؟ تكاثرت الأسئلة حتى غلبني النوم، لأستيقظ بعدها فلا أجدها، مسحت أركان الغرفة بعينَيَّ حتى لاحظت أقفال غرفة عنتر المفتوحة، والسلسلة التي لم تعد مُعلَّقة في صدري، وأصبحت معلَّقة بالباب. دلفت على أطراف أصابعي، قشطة كانت جالسة على الأرض، في وضع تربيع، عارية ومُغمضة العينين، ساكنة كصخور النيل الملساء، أمامها عنتر، على بُعد بوصات منها، في وضع تسديس، وجه في وجه، لا تخافه ولا يهابها، يُصدران همهمة ذات نغمة، وطقطقات، لها وقع روحاني عجيب، وما إن شعرا بوجودي حتى قامت قشطة في هدوء، وخرجت من الغرفة برشاقة، وذيل يتحرك في غبطة.

حين سألت عنتر عما دار بينهما، وكيف تسللت إلى غرفته، أخبرني أنه مَن أوحى لها بالدخول إليه، ثم مسح رأسه وسحب نفَسًا من سيجارة أشعلتها له، وأسرّ إليَّ بأن المخلوقة السوداء من نسل ملوك الجنوب، وأنها خائفة وهاربة من مصير أغبر، تبحث عن أخت لها، توأم، افترقا منذ سنين طويلة حين خطفها الجلابة من قريتها التي تطل على النهر، ولم تعلم عنها خبرًا طوال سنين، حتى رأت صورتها على حائطك. سألته عن الجرح الذي يُزين بطنها، فأفاد أنه حدث جراء يد نمر أسود ذات مخالب، بترها الجلابة بعد اصطياده، ثم ربطوها في مقدمة حربة، حاولوا بها اصطياد قشطة. أما الجلاب الذي هامَ بها عشقًا، فتلك قصة خرقاء، كذب وافتراء، فالمركب الذي احترق في النيل قرب دارفور منذ سنوات، وأسفر عن موت مائة عبد وجارية، بعد إشعال أحدهم النار في نفسه رغبة في الانتحار، كانت تعويذة من السحر الأسود، صنعها ساحر قبيلتها، بغرض التضحية بأبناء القبيلة الذين اختطفهم الجلابة، قبل وصولهم للأسواق وبيعهم بمهانة، ولم ينجُ من الحريق إلا الفتاة ذات الحدقات الزرقاء، ليصطادها مركب عبيد آخر ويأتي بها للقاهرة. «وماذا بشأن الذيل؟»؛ قال عنتر، إنه وراثة عتيقة، ومتعة في المضاجعة فاتت بني الإنسان، فمنذ نزل البشر عن الشجر، ضمر استخدامه وقلّت فائدته، ولما كان التزاوج بالقبائل المجاورة ملعونًا في قبيلتها، لم ينتشر الذيل.

ولما سألت عنتر كيف فقه لغتها، ومن أي قبيلة جاءت، أطفأ سيجارته وأردف: «هل يقدر أعمى أن يقود أعمى؟ أما يسقط الاثنان في حُفرة؟ لا تستعجل القدَر يا سليمان؛ فكُل شيء بسبب، وكُل شيء له أوان»، ثم أغمض عينيه وغاب في ثبات عجيب.

حين جن الليل، أشعلت مصباحي واقتربت من قشطة، نظرت إليّ فأشرت إلى صورة أختها ثم أشرت لها، كي تفهم أني أدركت ما مرَّت به، ثم أشرت لنفسي ونطقت اسمي «سليمان» كي تعرفه، وما هي إلا لحظات، ونطقته سليمًا، متبوعًا بكلمة «ويني».. «سليمان.. ويني»، لا أظنها سبَّة، وقد تكون سيدي. رمقتني في صمت ثم اتجهت نحوي، أمسكتْ بكفي ووضعَتها فوق جرح بطنها، ونطقت بكلمات لم أفقه منها شيئًا، ثم

بدأت في تمثيل ما جرى، من محاولة لاصطيادها على يد الجلابة، وسقوطها من فوق الشجرة قرب النهر، مجروحة وفي عِداد الموتى، ثم إنقاذها واحتراق المركب. وخانتني عيناي، لم أستطع منع نفسي من تأمل ذيلها العجيب، فقالت: «انزي نزاي»، ذلك حتمًا اسم الذيل في لُغتها، اقتربت، سمحت لي بلمسه ومداعبته، وما لبثت حرارتها أن ارتفعت، كادت تشتعل، وأدركت أنها اهتاجت حين أصدرت ذبذبات التزاوج مثل القطط، فوطأتها، بجموح لم أختبره من قبل، بل قل، وطأت الليل بنجومه وكواكبه وعفاريته، حتى لم يعد بإمكاني تمييز شيء في الغرفة عدا بياض عينيها، زُرقة البحر الهادر في الحدقات، الأسنان الناصعة، الوحمة البيضاء في منتصف الفخذ، وفوهة بركان حمراء ترمي بشرَر، صهرتني، وتولّى الذيل قذف الحمم في وجهي وإشعال الكنبة من تحتنا، فتبخرت عزيزة، وتفحمت كل النسوة من قبلها، حتى أذن الفجر، فانطفأت النار السوداء، بعدما تركت على صدري رمادًا مُعطرًا، وخربشات قطة، ودون أن ترتدي لباسها، رشفتْ من اللبن رشفة بلَّت نهديها الأبنوسيين، ثم تكومت بجانب حائط اللبلاب، شاردة في صورة أختها، وخشيت للحظة؛ أن تستمع لهمس أُم، لن تدخر مجهودًا لتُشوّه سمعة ابنها وتفضح طفولته البائسة. وتحركت الشمس فوقها، فلمع الذهب والفضة تحت جلدها، ولم أتمالك نفسي من العجب، نصبت الكاميرا، والتقطت صورة، طبعتها ووضعتها بين يديها، فتأملتها طويلًا، ثم نظرت لصورة أختها على الحائط، فمسحت على ضفيرتها، وأشرت إليها بالصبر، قبل أن أرتدي ملابسي، وأتوجه إلى شوكت نجيب؛ السيد الذي اقتنى أختها يومًا، وطلب مني تصويرها نظير أجر مُجزٍ.

لم أنسَ البيت؛ لأنه قريب من الحارة التي تسكن فيها المدعوقة المحروقة عزيزة بدرب الجماميز. صَعدت السلالم وقرعت مقبض باب على شكل ريشة، ففتح خادم نوبي، طلبت منه مقابلة صاحب البيت فأشار إلى الصالون، وبعد انتظار، حضر الرجل. تذكّرني دون جهد، وحين اعتقد أني جِئته ساعيًا إلى رزق، أخرجت صورة الجارية السوداء التي صوّرتها يومًا بناء على طلبه، فامتقع وجهه، ومن خلف نظارته لمحت الألم يتمطى، قبل أن يهمس: «فتحية.. ماتت منذ ثلاث سنوات»، ثم قام ومدَّ يده في عجرفة: «تشرفت يا أفندي»، فاستمهلته: «هل كان لفتحية أخت؟»، قطب جبينه فعاجلته: «هل كان لها ذيل؟»، ضرب الغضب ملامحه فأغلق باب الصالون ثم التفت: «ماذا تريد يا أفندي؟ مَن وراءك؟ أتنتمي للبعثة الإنكليزية أم النمساوية؟»، أخبرته أني لا أنتمي إلا للقلعة، وأخرجت له مظروفًا من مظاريف داغر بك المختومة، ودعوته لقراءة جزء من الرسالة يحثني فيها على الحضور العاجل، فما لبث أن صدقني، ثم جلس على الكرسي، وحكى ما كان من شأن الجارية فتحية.

لم يكن اسمها فتحية حين لمحها في وكالة «السلحدار» تتوارى بين الجواري، ونعم، كان لها ذيل قصير لامِع، علم بوجوده حين اشتراها، كانت مجرد جارية تمتلك أعجوبة يطيب له استعراضها أمام الأصدقاء في جلسات السمر الخصوصي، حتى وقع في غرامها، فأطلق عليها أجمل اسم في الوجود؛ فتحية، اسم الست والدته رحمها الله.

رويدًا رويدًا، بدأ شوكت نجيب في اصطحاب فتحية إلى الحفلات والسهرات، ألبسها فساتين عَصرية حرص في تفصيلها أن تُخفي ذيلها، وخصص لها ماشطة، تمر بها كل أسبوع لتروض شعرها الثائر المتمرد، لم يعد يعبأ بالنظرات التي تتبعه، تجاهل الهمس والوسوسة، ولم يخفَ على كل مَن حوله أنها أصبحت زوجته غير المُعلنة، ذلك لم يُخفف الحزن الذي تحمله فتحية في عينيها منذ وطأت قدمُها سوق الجلابة، ولم يرطِّب

قلب والد شوكت على حبيبة ابنه السوداء، والتي رفض بسببها بنات الأكابر من الأعيان. ومما زاد الطين بلة، أن شوكت فاتحَ والده في الزواج من فتحية؛ لأنها تحمل حفيده، وكان رد الأب صفعة خرمت طبلة أذنه: «أتريد أن يكون نسلي من جنس القرود يا ابن الكلب؟!».

بعدها بأيام، داهمَ الأب غرفة فتحية، مُستغلًّا سفرة تجارة لابنه خارج العاصمة، عرَّى الجسد الأسود ليتأكد من الشائعة التي تلازمها منذ باعها الجلاب، وحين رأى الذيل، هَاج وماج واستغفر، ثم أقسم إن تلك الجارية ليست إلا بنت الشيطان ذات نفسه، وسيمنع تلك الزيجة بكل ما أوتي من قوة. ضُربت فتحية بالكرباج حتى تمزق ظهرها، تلقت في البطن خبطات حتى أُجهِض ما تحمل، ثم كبّلها العبيد، ونُودي الحلاق فبتر الذيل بمنشار صغير، صرخت فتحية صراخًا تردد صداه في أركان المحروسة، وانتفضت الطيور فوق الأغصان من وقعه. الأب كان حريصًا ألا تموت المخلوقة السوداء، حتى يكسر قلب ابنه، كي يعلم أن الحب مشروط، وأن أُمًّا سوداء البشرة، تملك ذيلًا، لا يليق بها أن تعمّر إلا أغصان شجرة، وحتى يفهم، أن كل إنسان بربوره على حنكه حلو، حتى ينتقده الناس.

النزيف كان متفجرًا مثل عين ماء ساخنة، يشفط الحياة من قعر الأضحية السوداء؛ فتحية، لكن ذلك لم يمنعها، وبحلاوة روح باقية، أن تنقضّ على أذن الأب فتقضمها وتمضغها ثم تبتلعها في نهم، قبل أن يهشم الأب رأسها بمكواة حديدية.

ماتت فتحية، ومات قلب شوكت نجيب حين عاد من السفر، دفنها، ودفن الذيل بجانبها، ملفوفًا في قطعة حرير مُعطَّرة بالمِسك، في مكان مجهول، بعدما ذاع خبرها، وراسلته بعثتان إنكليزية ونمساوية طلبًا لفحص جثمان «فتحية أم ديل». وما هي إلا أيام حتى تفاقم جرح أبيه، وطالته غرغرينا قال عنها الحكماء إنها نار مسمومة، تسري في دمه، ولا سبيل لإطفائها، تسللت من أذنه إلى رقبته، ثم امتدت إلى ذراع بتروها دون تخدير لضعف مُزمن في عضلة القلب، قبل أن تصل إلى ساقه. وما هي إلا أيام حتى مات والد شوكت بعد أن شاهد أعضاءه تسبقه إلى القبر. رحلت فتحية دون أن يعلم شوكت لُغتها، دون أن يعلم قصة جلبها من إفريقيا أو اسم قبيلتها، دون أن يعلم سِر الذيل، ومغزى الحزن الدفين الذي يسكن عينيها، ماتت ولم يبقَ منها سوى الصورة التي التقطها العبد لله.

شكرت الرجل ورحلت بعد أن أخبرته إجابة السؤال: «الزيارة سببها شغف أفندينا بالنميمة والحكايات»، تلقى الكلمات بأسى، هز رأسه في أسى وأغلق بابه. سِرت في الطرقات حاملًا في صدري نعيًا مُتأخرًا قررت ألا ألقيه على أذن قشطة، لن يفيد المسكينة معرفة مصير توأم افترقت عنها منذ سنين، الكذب سيد الأخلاق، ما إن رددتها في نفسي حتى صادفت أنور أفندي أبو شمعة؛ زوج عزيزة النجسة، لم نتقابل من قبل، لكني عرفت ملامحه حين زار عزيزة في الاسبتالية يومًا وراقبتهما من النافذة. استوقفته بلُطف، خلعت طربوشي في أدب، عرّفته نفسي باسم مُستعار يسهل نسيانه دون أن أخلع نظارتي الزرقاء، ثم همست في أذنه بأني فاعل خير، قبل أن أصبَّ في أذنه سِر عزيزة اللعوب، وما كان من شأنها مع النجار ابن اللبوة المُلقب بسيد عجوة، تطاير الشرر من عينَي أنور أفندي، وكاد أن يمسك بتلابيبي حين أخبرته أن عزيزة بررت ما اقترفته بأن: «البعيد مأبون، ما يحلالوش غير نوم الأحباش»، تدفق العرَق غزيرًا من جبهته، أغرق قميصه وألان مفاصله، طلبت له كوب عرقسوس من بائع متجول، وتركته على كرسي قهوة قريبة، محزونًا مغمومًا، قبل أن أختفي فلا يستدركني ليسألني مَن أنا.

حين رجعت إلى اللوكاندة، وجدت قشطة قد وضعتْ لمستها على ما أُحل لها لمسه من أثاث الغرفة، نقلَت الكنبة التي التقينا فوقها إلى اليسار تحت النافذة، وأحاطتها بالشموع المشتعلة تقديسًا، اقتطفتْ بعض فروع الريحان من الحوض لتُزين إطار صورة أختها، ورسمتْ على الحائط بقطعة فحم من النارجيلة، بنتين سوداوين تشبكان أيديهما، ومن ورائهما بجعة بيضاء وشجرة وارفة. ابتسمتُ وقبّلت يدها، وواريت الغم، ثم التقطت قطعة الفحم، تحريت مكانًا خاليًا بجانب رسمتها، وبدأت في وضع خطوط قصة من وحي لقائي بشوكت نجيب.

رسمتُ أنثى تُشبه قشطة، لها ضفيرة غليظة، ثم أشرتُ لصورة فتحية فهمستْ: «تابيوا»؛ غالبًا هي «فتحية» بالإفريقي، أدركتْ أني أرمز لأختها، فهدأتْ ملامحُها، استأنفتُ، رسمتُ مركبًا مليئًا بالعبيد، يرسو في ميناء، وشابًّا يُمسك بيد فتحية ليُقبّل أصابعها، فابتسمتْ قشطة بأسنان كاللؤلؤ، وما لبث أن ظهر رجل بَدِين بملامح صارمة، وضع الأصفاد في رسغ فتحية ووضعها على حمار، فاستولى القلق على زُرقة عينَي قشطة، ثم رسمتُ قضبانًا، ومن ورائه أختها التوأم، فدمعتْ عيناها، قبل أن يظهر الشاب الذي قبّل يدها في بداية الحائط، تسلّلَ من النافذة وكسر أصفاد فتحية، حررها واختطفها على حصان أبيض، قبل أن ينتفخ بطنها، وتُنجب طفلًا، نصفُه أبيض والنصف الباقي أسود، فضحكت قشطة بصوت عالٍ، شبّكت أصابعها، وترقرقت عيناها بدموع الفرحة، فرسمت أطفالًا كثيرة حتى نهاية الحائط، ثم رسمتُ مركبًا آخر، فرمقتني بِحيرة وتساؤل، رسمت فيها أُسْرَة «تابيوا» الجديدة، يضحكون مِلء الأفواه، قبل أن يبتعد المركب، إلى جزيرة جميلة، فوقها نخل وبجع أبيض وفواكه فوق شجر وارف، خفتت ابتسامة قشطة وإن لم تغادر وجهها، أدركتْ أن توأمها تعيش سعيدة، في أرض بعيدة، مع زوج يُحبها وأطفال يملئون حياتها، فاطمأن قلبها، واحتضنتني بعفوية، قبل أن نسمع الخبط الهادر على باب الغرفة.

ما إن فتحت الباب حتى اندفعت عزيزة كالعرسة الهاربة من كلب، بملاءة لف وبُرقع يُخفي الملامح، ألقتهما على الأرض في عصبية وصرخت: «ما الذي فعلت أيها المجنون؟»، فأخبرتها أن ذلك جزاء كل مَن سوّلت له نفسه خيانة سليمان جابر السيوفي، ركضت للمائدة المتخمة بالبرطمانات، بعثرتها بغضب حتى استخرجت برطمان عشبة يوحنا الفارغ: «أيها الملعون، لقد امتنعت عن تناول العشبة»، وأطاحت بالبرطمان في وجهي، قبل أن تلحظ «قشطة» التي تكومت في الركن خائفة. جحظت عينا عزيزة: «ما هذه؟ حقّة، كل فولة مسوّسة لها كيَّال أعور، وإيه اللي بيلعب ده كمان؟ ديل!»، يا لنسوة! لن يُخفين غيرتهن حتى وإن وقفن أمام المولى يوم الحساب. التزمتُ الصمت، ولم يزدها ذلك إلا اشتعالًا: «يا وسخ يا رمّة يا رمرام، أنت قلت لجوزي إن بيني وبين سيد عجوة كلام؟»، فأجبتها بهدوء: «بل قُلت الحقيقة في زمن يخشى فيه الشجعان التحدث بلسان الحق، قلت إن الجنين الذي تحملينه يا ست هانم في أحشائك، ليس ابنه، وليس ابني، بل ابن عجوة الكلب»، فما كان منها إلا أن قفزت فوقي، جاموسة مُتوحشة، خربشت رقبتي ونتفت ذقني، وفي اللحظة التي ألقيتها أرضًا، دبَّت أصابعها في عيني فأعمتني، ونتشت سكيني الصغير من جيبي، وكادت ترشقه في صدري لولا دفعة من قشطة التي اعتلت ظهرها في خفة، وجذبت شعرها فسقطتا أرضًا، تقلبتا فوق السجادة، مثل الشاي واللبن، قطتان شَرِستان ما كانت كلابُ الأرض لتُفلح في التفرقة بينهما، مواء أسود وصريخ أبيض، شد شعر، قرص بز ونشب ظفر، معركة لم تحدث من قبل في حريمي، ولم تنتهِ حتى

استطاعت عزيزة تخليص نفسها للحظة، التقطت السكين، وقبل أن أصل إليها هويت به على ذراع قشطة، ولما عاودت الكرّة، ولأن عودها مدملك، خانها القبقاب، فانزلقت، ارتفعت الساقان الرخاميتان اللتان اعتادتا الجلوس فوق كتفي، وسقطت مؤخرة الرأس فوق حافة الطبلية التي أكلنا عليها الفطير بالعسل، سمعت طقة مكتومة؛ فقرتان تخاصمتا، تبعها نزيف من أذن عزيزة، علمت منه، أن السر الإلهي قد صعد.

لم أصدق أن عزيزة قد ماتت حتى لامستُ العنق وافتقدتُ النبض بين أناملي، انكفأت على بطنها لأتنصت، لعلّي أنقذ جنينًا لا ذنب له فيما اقترفت أمه من آثام، التقطت السكين ومزقت الساتان ثم غرست أسفل منتصف البطن، خُضت بأصابعي في الأحشاء الساخنة، وما هي إلا دقائق حتى استخلصت جنينًا ميتًا في حجم أصبع السبابة، له وجه ضبع بلا أسنان، وشنب يشبه شنب سيد عجوة، وضعته في برطمان نظيف، بجانب إخوته، وصببت فوقه الفورمالين، وسط ذهول أزرق في عينَي قشطة التي ضمدت جرح رسغها، ووضعت عليه بعض البُن.

أرجو أن تصدقني أيها الحكيم، العبد لله لم ينوِ قتل عزيزة مثلما قتلت نعيمة الشركسية يومًا، ومثلما قتلت أمي دون سبق إصرار أو ترصد، بل كان ذلك محض تدبير من العليّ القدير، ولِمَ لا؟! ألم يقتل العبد الصالح غُلامًا وهو بصحبة موسى، بأمر من الله؟ بل ووكزَ موسى رجلًا من أعدائه فقتله؟ ثم غفر الله له، ولا تفرقة في حكم الله؛ فالأنبياء مُتساوون في المغفرة، وكُل ما أردت، كان الانتقام من عزيزة، أن تتلقى جزاء خيانتها لسليمان السيوفي، ولكن، لا يُدرك المرء كُل ما يتمناه.

جلست أفكر كما فكر قابيل يومًا وهو ممسك بفكّ الحمار الذي قتل به أخاه هابيل، من أجل امرأة، ماذا يفعل بالجثمان؟ ثم ظهر بالأفق غراب يُعلِّمه الدفن، وهأنذا أنتظر غرابًا أو ثعبانًا أو عنقاء، تُلقي على مسامعي اقتراحًا غير الدفن. كان ذلك حين أتاني جواب الحُرمة مسك القلوب، قرع الباب بشماف الفضولي، فواربت الباب وتلقيت الجواب الذي يدعوني لزيارة عاجلة، وما كان مني إلا أن انتهزتها فرصة لأعيد ترتيب أفكاري، وإيجاد الوسيلة المُثلى للتخلص من جثة عزيزة.

دون مساعدة من قشطة التي جنحت إلى الركن البعيد، جرجرت جثمان عزيزة، ولففتها بالسجادة التي تغلغلت فيها الدماء، ثم رسمت بقطعة الفحم على الحائط وحشًا مُخيفًا ذا فم مفتوح، يقف خلف باب، وأشرت إلى باب الغرفة، ففهمتْ قشطة ألا تفتح لشخص حتى أعود. احتضنتها، وتأكدت من إغلاق باب الغرفة ورائي ثلاث مرات، وكان ما كان من أحداث جرت ودوّنتها في اليومية السابقة: جلسة تحضير أرواح، مقتل حافظ باشا، العثور على رأسه مُعلقًا بباب القلعة، مقابلة داغر بك، الألم الرهيب الذي اجتاح رأسي، ثم لقاء أفندينا «إسماعين»، صداقة مُريبة، وسرقة كيس الذهب، ثم العودة للوكاندة بير الوطاويط، مُنهك الأعصاب. وبمجرد فتحي للباب كانت تنتظرني بلوة سودة بالمعنى الحرفي للكلمة! أغرب مشهد قد يراه بشر؛ قِشطة، ملاك الليل، جالسة القرفصاء في ركن الغرفة، عارية، مُخضبة بالدماء، أمام جثمان عزيزة مشقوق الصدر، البِزاز مُتدلية على الجانبين، الضلوع مفتوحة كوردة ناضجة، وبين أصابع قشطة الفاحمة، قلب عزيزة، تنهشه بنهَم.

راقبتها للحظات قبل أن تلحظ وجودي، وللعجب! لم يصدر عنها ما يُوحي بالخزي أو الاستحياء حين أدركتني، استولى عليَّ رعب لم يزُرني منذ هاجمني الهجين في بيت عصمت باشا، سَرَت على جلدي قشعريرة ولم أتمالك نفسي فتقيأت، ثم تمالكتُ نفسي فصرختُ فيها، توقّفتْ عن الأكل للحظة، ثم اندمجتْ ثانية،

تقطع بأسنانها الشّغاف، وتَمصمص الشرايين كأعواد السباجيتي. اندفعتُ نحوها، هششتها مثل راعٍ يهش نسرًا يأكل جيفة نعجة من نعاجه، ولم تأبه، واضطُررت في النهاية إلى مواجهة خوفي والقبض على عضدها بعزم ما أوتيت وسحبها بعيدًا عن الجثمان.

جلست قشطة بجانب الحائط دون أن تتوقف عن المضغ، حتى ابتلعت ومصمصت أصابعها، الدم يخضب نهديها والرقبة، وحتى ضفيرتها الغليظة صارت أطرافها قرمزية، لم أجد لغة أو رسمًا أرسمه بالفحم على الحائط أستطيع من خلاله سؤالها: «لِمَ رفضتِ الكوارع العجمية والنيفة، والآن تأكلين قلبَ إنسان؟»، حين طال الصَّمت، أدركتْ قشطة حيرتي، ولمست الغضب في وجهي فهمست: «زاندي»، «أين سمعت ذلك الاسم؟»، لا وقت للرموز يا ليلة سوداء بلا نجوم. صمتت للحظات، وبالمصطلح الذي ابتكره المغامرون الأوروباوية أردفت بخجل: «نيام نيام». فتراجعت خطوة، ولو استطعت، لرجعت حتى يوقفني سور الصين العظيم، سَرتْ على الجلد قشعريرة في ارتفاع فيضان، وتوارت الأفاعي السوداء في عُروقي وغلّقت الأبواب. ربي، لقد تقبلت أمر الذيل على مضض، وإحقاقًا للحق لقد كان مثيرًا حين وطأتها، وتغاضيت عن البشرة السوداء من أجل العينين الزرقاوين والنهد المتوحش الوثّاب، لكن أن تكون جاريتي الأولى التي اشتريتها بكل ما أملك، معجزتك المُهداة ونعمتك المُسداة، سليلةَ قبيلة «آكلي لحوم البشر» والمعروفين بنيام نيام! قبائل الزاندي ـ الآن فهمت ـ أخطر مُتوحشي القارة السوداء، ذلك ما لم يختبره أُولو العزم من الرسل، ولا حتى أخي يونس، فالحوت الذي التقمه لم يمضغه حتى. الآن حصحص الحق، وفهمت لمَ وضع الجلاب الأصفاد في يدها حين سلّمها لي، ولمَ عزلها في غرفة وحدها دونًا عن زميلاتها، الآن أدركت لمَ لم أفقه لُغتها؛ لأنها لغة أكثر القبائل رعبًا، والجلابة، لا يملكون جرأة اختراق أراضيهم، وإن استطاعوا، فعليهم أن يواجهوا فكوكًا لا يردعها رادِع، وسَحرة، أشعلوا النار يومًا في المراكب التي اختطفت أبناء القبيلة، دون ندم.

حمدت الله أنها لم تأكلني بعدما وطأتها، ودعوت الله ألا يكون الذبابُ العملاق من الأطباق المفضلة في قبيلتها، ما كنت لأتحمل فَقْدَ عنتر أو افتراسه، ويبدو أنها قرأت أفكاري، فانزوت إلى الركن، وجعلت تلعق أصابعها مثل القطط تنظيفًا للدماء، وترمقني بخجل كلما تلاقت الأعين.

حين استجمعت شجاعتي، أغلقت الأصفاد على رسغَي الأبنوسية، لم تقاوم، ثم فتحت أقفال غرفة عنتر، ودلفت إليه طلبًا للمشورة. رفعت الغطاء عنه فرمقني بجيش من الأعين اللائمة، وقبل أن أسرد ما حدث، قال بضيق مكبوت: «لا تحكم على آخر، دون فهم وتراحُم، الفتاة السوداء لم تحتقر جيفة عزيزة، بل اختارت أن تكرِّمها، وتستخلص ما فيها من قوة؛ لذا أكلت قلبها، تلك شريعة قبيلتها، مثلما فعل البشر منذ آلاف السنين، ألا يأكل جنسك الحيوان؟»، أجبته بتسرع: «ولكن عزيزة ليست حيوانًا!»، فاعترى عنتر غضب لم يأتِه منذ زمن، ضرب الهواء بجناحيه، وقذف بإناء الطعام إلى الحائط فحطمه، ثم اقترب مني وأوحى إليَّ بصريخ داخلي كاد يُفتت عقلي: «أيها الجاهل، حين اصطاد البشرُ الثيران، كانوا يتنافسون للفوز بالأير، ليكتسبوا الفحولة، وحين أكل ملوك الشمال قلوب أعدائهم كانوا يلتمسون الحكمة والشجاعة. أكل لحم البشر كانت عادة مارسها الإنسان قبل أن يغطيه الغرور والنسيان»، جثوت على رُكبتيَّ في أسف، فانزوى إلى الركن ليهرش رأسه ويحُك أرجلًا لم تعد تتحمل ثقله، حشوت حجر النارجيلة وناولته اللَّيّ في صمت، دخَّن حتى هدأ، ثم طلب مني ضبط النفس، والتخلص من بقايا عزيزة في هدوء، واحتضان قشطة دون لوم،

وتهذيب أظافرها: «هي الخلاص»، قالها وأعطاني ظهره مُنهيًا اللقاء.

كل حمار غشيم، يحتاج ذبابة كبيرة تلسعه، لإبقائه على قيد الحياة.

ما كنت لأجد مثوى لرفات عزيزة خيرًا من مقام أمي، فهما يملكان نفس الرائحة. حشوت صدرها باللبلاب حتى لا تُداهمها الحموضة، وضغطت على الضلوع حتى عادت لمكانها وقد تكسّر ما تكسر، ثم أحكمت السجادة حولها بالحبال، شرنقة مثالية ربما تُفضي إلى صرصار ناضج. استأذنت اللبلاب في إزاحة الفروع مسافة تسمح بالعمل، قبل أن أخرق الحائط الهش بالمطرقة، وأحشر رأسي في المساحة الخالية. ألقيت السلام على أمي فأمطرتني بسباب سليط مُمل لا ابتكار فيه، فأردفت مُقلدًا الخنف: «نعم أنا العار يا ست الكل، مُتشكرين»، وتجاهلتها برًّا بالوالدين، ثم استغفرت لها في سِري، قبل أن أنصب جثة عزيزة بجانبها واقفة: «لن أوصيكِ يا أمي، كانت لتصبح زوجة ابنكِ يومًا»، وما كان من سِت الحبايب إلا أن لمزتني بذِكرى كم أكره استدعاءها: «ابحث عن البرتقال في سوق الاثنين يا سليمان، رطلين بسُرَّة ورطلين سُكّري، لا تعُد إلى البيت بدونه، حتى وإن قال لك الباعة إن يونيو ليس أوان البرتقال»، تلك كانت كلماتها حين تطلب غيابي لتختلي بشفيق وزة؛ صَاحب السيرك المتنقل. بنت الرفضي! أشعلت غضبًا قديمًا، هزت إصبعها الوسطى في استفزاز وضحكت ضحكة رنانة، فذكرتها بأبي، وما اقترفت في حقه، وكيف انتهى وجود سيرك شفيق وزة المنصوب أمام بيتنا، مع اختفاء العشيق الذي أفسد طفولتي، بعد خمس سنوات من كحت سلالم بيتنا بنعل حذائه الأحمر، ومن أجل ماذا؟ فالحِجر قصريَّة والبِزاز مدليَّة يا ست الحبايب، قِصر نظر، ونجاسة، يستحق عليها أن يجده القواصة بعد الفجر، مُلقى في كومة زبالة، مُصابًا بسبع وثمانين طعنة نافذة، بين رقبته ورُكبه، بعد خروجه مخمورًا من بوظة عربي القط الواقعة خلف مسجد ابن طولون بحي الصليبة. مَن قال إن كيد النساء أقوى من كيد الرجال؟ رمت أمي على مسامعي الحمم، حتى أغلقت فتحة الحائط بالجبس، بعد أن تركت لهما بعض اللِّب والسوداني واللبان الدَّكر، ونسخة مُنقحة من ديوان أبي العلاء المعرِّي، طالما أطربني، لعله يكون ونيسًا لهما، بعد أن يتعلما القراءة والكتابة، ثم غرست بضعة مسامير في الحائط لتتسلق أفرع اللبلاب عليها.

حين انتهيت، جلست وقد أعياني الحفر، وكسر أظافري الردم، ثم اجتاحني البكاء، فيضان جامح في غير أوانه، وما كان من قشطة إلا أن اقتربت، ضمتني إلى صدرها، دعكتني في مسامّها حتى تعطرت بزيتها وغطّت رأسي وعينيَّ بأحراش ضفيرتها، فغرقت في النوم شهرين أو يزيد، وحين استيقظت كانت تجلس أمامي، تتأملني مثل قطة، قبل أن تلتقط الفحمة وترسم على الحائط بأنامل من الشوكولاتة، وجهًا يشبهني، بنفس وسامتي، لِحيتي ونظارتي، ثم أشارت إليّ وهمست: «ماكو»؛ تريد المسكينة أن تُسميني شيئًا؟ أوَلَمْ تجد غير ماكو؟ ثم حكَّت الفحمة بالجدار ثانية فرسمت أفعى صغيرة تخرج من أذني اليمنى، لاإراديًّا وضعت أصابعي على أذني، لم أجد شيئًا، ثم رسمت فوق رأسي ذبابة كبيرة وهمست: «مابوري»، دوّنت ما قالت في مُفكرتي، قبل أن تكمل الرسم، قطة سوداء، أشارت بعدها إلى صورة أختها «تابيوا» المُعلقة على الجدار، تعني أن القطة الصغيرة التي زارتني مرتين، لم تكُن سوى روح فتحية الإفريقية، تجسدت بعينين زرقاوين؛ لأني التقطت لها يومًا صورة فوتوغراف، ولتجعلني أتنبه حين أقابل قشطة، قصص السحر التي تحيط بقبائل «الزاندي» حقيقية، هؤلاء قوم تتجسد أرواح موتاهم في القطط والبجع الأبيض، يأكلون لحم أعدائهم، ويصنعون بالعِظام والجماجم أقراطًا وتمائم وقلادات: «ماذا تريدين يا زرقاء العينين؟»، نظرت لي طويلًا، ثم

أجابتني وكأنها فهمت سؤالي، رسمت على الحائط طفلًا صغيرًا، يحمل ملامحي، له لِحية مثل لحيتي، ويرتدي نظارتي، نصف جسده أبيض والنصف أسود، له شعر خشن، وذيل قصير. نظرت لها مليًّا، فاتسعت عيناها، ولاح الموج الأبيض، دموعًا ساخنة، ثم أشارت إلى صورة أختها على الجدار وسط أولادها في المركب، فاقتربت منها، قبّلت جبينها فسكن الذيل عن الحركة، قلت لها دون تفكير: «أحبكِ يا قشطة»، لم تفهم شيئًا، لكنها قالت:«مي لِيما كيبي نيامورو»، دوّنت ما قالت في مُفكرتي لأفسره لاحقًا، ثم اضطجعنا، تلك المرة اعتليتها بإرادتها، اعتصرتني بعشق، وزأرت بغنج حتى صاح عنتر من غرفته: «حيّ»، سحبتْ سرَّ الحياة مني، ثم نامت على صدري، تشدو بكلمات عذبة، لحن عجيب، كأنه غناء الشجر، حتى غيّبني النوم، وحلمت ليلتها، بأني أضاجع أنثى نمر أسود، بين حشائش غابة، بجانب مَجرى نهر ثائر، ثم نظرت للسماء، وكانت الليلة مُقمرة، فرأيت كوكبًا يقترب من ظهر القمر، وقبل أن ينتابني الفزع، اصطدم بالقمر فدمّره.

بعد أيام من مقتل حافظ باشا، ولقائي بأفنديا، صدرت طبعة جرنال الوقائع المصرية لأول مرة، تحمل صورة أسد خشبي أسود، وصورة أخرى لحفر اسم المشاعلي، وعنوان سُفلي بين قوسين: «مكافأة لَمن يعلم سِر هذا الأسد»، بعدها بساعات، أرسل نسيم باشا قوش، رسالة إلى ديوان القلعة، تفيد أنه قادم بعد ساعة في أمر عاجل، يخص ذلك الأسد، فتم استدعائي لأكون في استقباله. أرسلوا الوباء الماشي على قدمين؛ بوراك الزفت الأرناؤوطي، قرعَ بابي وطلب أن أرافقه، فأجبته دون أن أفتح، أنِ انتظر، ولطعته نصف ساعة حتى أكله الدبّان، قبل أن نتخذ طريقنا للديوان دون كلمة، فوق خيول تبعثر من ورائها البعر والتراب، ونزيف الغل والغيرة من مؤخرة بوراك.

داغر بك كان في انتظاري، يجلس عن يمينه نسيم باشا قوش؛ ابن صالح باشا آق قوش؛ قومندان الألبان زمن الباشا الكبير، ملك الموانئ وصاحب أسطول السفن التجارية التي تعمل بين الإسكندرية وجنوب البحر المتوسط، لطالما تناثرت الأقاويل حول ثروته التي تخطت الألف ألف جنيه، وقصة زواجه السريّ من ابنة أخته الشقراء التي هام بها عشقًا فحاربت العائلة من أجله، حتى أطلقوا عليها لقب «سالومي»، اشترى لها جزيرة صغيرة من صديقه العزيز چورچ الأول؛ ملك بلاد اليونان، شيد عليها فنارًا ذا مرآة ذهبية ـ تشبُّهًا بلون شعرها ـ لتنير الجزيرة ليلًا، وجلب من أجلها خِصيانًا سُودًا وجواري مُدربات، يُقدمن لها كل ما تشتهيه الأنفس وتلذُّ الأعين، جنة بعيدة، وسط بحر يُطفئ نار الانتقادات ودعاوى التحريم والبطلان، ولتستريح نفسُ الخال من لهيب الغيرة، ففارق العمر بينه وبين ابنة أخته يتخطى الخمسة والعشرين عامًا.

نسيم باشا كان يزور جزيرته، يومين كل شهر، يُبحر على متن سفينة من سفنه، ينزل قُرب الجزيرة في مركب فخم صغير، يُقلّه للشاطئ، يتغزل في الخصلات الذهبية، يُضاجع الجسد النضر، يأكل التفاح والعنب، ثم يعود على متن سفينة أخرى، عائدة إلى الإسكندرية. وفي إحدى المرات، وحين رسا المركب وقت الغروب قرب الجزيرة، نظر بعدسة المِنظار المُكبِّر كما اعتاد أن يفعل دائمًا، ليشاهد ابنة الأخت، واقفة فوق الفنار، أمام المرآة، تغازل الرياحُ شعرها الذهبي، وتُشير بالمنديل الأبيض ترحيبًا، وبابتسامة عريضة، كعهدها معه دائمًا، لكن، تنزلق القدم، وتهوي سالومي من فوق الفنار إلى الصخور، أمام عينيه. شيّد لها نسيم باشا ضريحًا من الرخام الأبيض، يراه كل مَن يمر بالجزيرة، شاهدًا على عِشقٍ خالد، هزمته الجاذبية، نهاية حزينة مفجعة عرفها المقربون من الباشا، وشهدوا على انزوائه وانهيار أعصابه لشهور، قبل أن يتسرب الخبر إلى آذان العامة، لينقسم الناس ما بين «هذا جزاءُ الله»، وبين «لا حول ولا قوة إلا بالله»، ليرحمها الله ويُصبر خالها، وتبدل الغضب والرفض مع مرور الأيام، إلى شفقة على حال عاشقين فرَّقتهما الظروف، والمسامح كريم.

كان ذلك قبل أن تظهر سالومي؛ ابنة الأخت الشقراء، بصحبة بحّار إنجليزي وسيم من أسطول الملكة فيكتوريا الحربي، ليعلم الناس أنها لم تسقط على الصخور وهي تُلوح بالمنديل الأبيض، بل هربت مع حبيب قدَّر الشعرَ الذهبي، ثلاثين يومًا في الشهر.

لأول مرة، أتأمل عن قُرب رجلًا تحتوي خزائنه على أكثر من ألف ألف جنيه، لم أرَ لخديعة الشقراء أثرًا في وجهه، ولم أرَ كذلك للعشق كدمات في صوته وروحه، الشعر مَصبوغ والشارب مدهون منصوب، والعينان

تشعّان ذكاءً، إما أن قصة الجزيرة أسطورة شعبية، ليلة جديدة من ليالي ألف ليلة، حكاية اختلقها الناس شغفًا بنجم فاحش الثراء لا تطوله الأعين، أو أنني أجلس أمام صخرة جامدة تشق الأمواج وتصرع الفتيات الشقراوات.

في البداية تحدّث داغر، عرَّف نسيم باشا ـ الذي رمقني باستغراب منذ دخل ـ مَن هو سليمان السيوفي، ولم يتكلم الباشا حتى هز داغر بك رأسه وأغمض عينيه مُطمئنًا، فأشار زكيبة الأموال إلى خادمه الجنوبي فاقترب، وضع على المنضدة علبة نحاسية مُغلقة بمفتاح أخرجه من جيبه، ودسّه في ثقب مُزركش، لتُصدر العلبة طقة، وتنفتح على كِسوة من القطيفة الحمراء، في وسطها استقر رأسُ أسدٍ خشبيٌّ أسود بحجم كف اليد، العينان الغاضبتان المُتحفزتان، والفم المفتوح والأنياب الحادة، «تلك هي النسخة الأصلية»، هكذا قال نسيم باشا، قبل أن يسرد القصة: «ذلك الأسد كان حجر الأساس لكوبانية أُنشئت منذ أكثر من نِصف قرن، بالتحديد عام ١٨١٢، ضمَّت ستة أسماء من الثقات الذين قدموا الخدمات الجليلة للباشا محمد علي، تثبيتًا لحُكمه، ودعمًا لأولاده الأمراء من بعده. الكوبانية كانت تضم اسم أبي، صالح قوش؛ قائد الجند، وإبراهيم أغا؛ والد الفقيد حافظ باشا، أغات باب القلعة عهد الباشا الكبير، كانت تضم أيضًا اسم محمد باشا الدفتردار زوج بنت الباشا، وقائد حملة الانتقام في السودان، حسن باشا، قومندان الأرناؤوط الذين دعموا العرش في بداية حكم الباشا، وكذلك الكتخدا محمد لاظ أوغلي الغني عن التعريف، وسيدة واحدة؛ هِمّت إسحاق، صاحبة فابريكة السلاح».

فكرة الكوبانية كانت غريبة على أذن داغر بك، حتى إنه سأل: «وما كان نشاط تلك الكوبانية؟»، سحب نسيم باشا نفَسًا من سيجار سمين: «قامت فكرة تلك الكوبانية على تشييد سد منيع من الرجال المُخلصين للباشا، وأغلبهم من الرعيل الأول الذي جاء مع الباشا ضمن الجيوش العثمانلية التي وصلت مصر، للإشراف على خروج الحملة الفرنسية سنة ١٨٠١، سد منيع ضد تدخل الكوبانيات الأوروباوية والعثمانلية، فالباشا لم يُرد صدّ التوغل التجاري حفاظًا على توازن العلاقات، لكن الكوبانية، بصلاحيات غير محدودة، تستطيع السيطرة على السوق المالي والتجاري من تحت الموائد، وفرض سيطرة مؤثرة تحجّم التواجد الأوروباوي والعثمانلي قدر الإمكان». سألته عن سبب سِرية الكوبانية فأجاب: «السرية كانت شرطًا من شروط الفكرة، فإذا علمَ الباب العالي في الأستانة بأمر الكوبانية، فسوف يعتبر ذلك تحديًا سافرًا للسيادة، وقد يُعلن الحرب أو يؤلّب الممالك على الباشا، خصوصًا بعد الحرب المصرية العثمانلية التي انتهت بمعاهدة لندن المجحفة سنة أربعين»، أما الأسد «فهو رمز العهد والميثاق بين الأعضاء الستة، استخدمناه لأنه ملك الحيوانات بلا مُنازع، لا شيء يعلوه في السلم الغذائي، ولا يهزمه إلا أسد مثله، وقد أسميناها كوبانية الأسد الشرقي». ولما سألته عن وجود أعداء للكوبانية، أفاد بأن سِرية الفكرة تضمن عدم وجود أعداء، فليس للكوبانية مستخدمون أو مبنى إداري، والتعامل كله، يتم عن طريق شبكات سِرية وعلاقات لا تعرف لغة المقابلات، وختم كلماته بأنه لا يعلم سببًا للقتل أو الانتقام».

في تلك اللحظة لمست اهتزازًا في صوت الباشا، خوفًا، وبوحًا محبوسًا لا يقدر عليه، غلبه التوتر، ثم طلب من مبتور الورك الحماية، فرض الحراسة المضاعفة على سرايته وأولاده، وسرعة القبض على القاتل، وأبدى رغبة في الدفع للقواصة ليُشهِّلوا في البحث. كز الباشا على ضروسه حين استمهلت نسيم باشا في سؤالين إضافيين: «هل أفندينا يعلم بأمر تلك الكوبانية؟»، وكان رده مفاجئًا: «الكوبانية انفضّت من بعد وفاة الباشا

الكبير، وتفرق الشركاء»، ولما سألته عن رأس مال الكوبانية الأصلي، نظرًا لضخامة الهدف من فرض سيطرة شاملة على الأسواق المصرية ضد رءوس أموال العثمانلية والأوروباويين: «لا بد أنه مبلغ هائل!»، رمقني نسيم باشا بازدراء وتحقير، ثم قال: «الفضول صفة الفئران يا أفندي، تلك أرقام لن تُفيدك في معرفة القاتل»، قالها ثم قام، وعند الباب استدركته معتذرًا: «هل مرَّ اسم المشاعلي على أذنيك الكريمتين من قبل؟»، نظر لداغر بك ثم عاد لي: «لم أسمع به من قبل!».

رحل نسيم باشا مصحوبًا بفريق حراسة خصوصي من الجند المدرّبين، سيصاحبه أينما كان ويؤمّن سرايته، حتى يتم القبض على الزاحف الهجين الذي باتت الناس تُسميه جهلًا، بالسفاح، بعد تسرُّب أخبار القتل.

بعدما رحل نسيم باشا أفرغت قفة المخاوف والشكوك في حِجر مبتور الورك: «ذلك الباشا يُخفي أمرًا، كيف لإسماعين ألا يعلم شيئًا عن تلك الكوبانية وذلك الأسد؟»، أمسك داغر برأسي، وكظم غيظه: «اسمه أفندينا، وليس إسماعين، أكمل»، تغاضيت عن جهله بالود والصداقة التي جمعتني بأفندينا، ثم استرسلت: «حين قتل أول الستة، كان على الباقين أن ينتبهوا، ذلك يفسر سبب زيارة القاتل الثانية، استرداد الأسد لتعطيل حدسهم، واستمرار ارتخاء الحراسة من حولهم. ثانيًا، معرفة القاتل بالأسد، واستخدامه كرسالة تحذير قبل وصوله، لم يكن من أجل بث الخوف في النفوس، بل كان إنذار زيارة من شريك سابق بالكوبانية، أمر عاجل وسِريّ يستدعي مقابلة، مما أجبرهم على إخلاء سراياتهم، وذلك أيضًا يعني أن الكوبانية ما زالت قائمة. وأخيرًا، لقد ذكر نسيم باشا أن أعضاء الكوبانية ستة، في حين أن القاتل أعد سبعة تماثيل عند النحّاتين، هناك عضو سابع لم يُرد نسيم باشا ذِكره لغرض ما في نفس يعقوب».

استمع داغر لكلماتي ثم بشّرني بكيس من الذهب في حالة القبض على القاتل، قبل أن يأمر مجموعة من الحُراس بالتوجّه لسراية رشيد باشا ابن محمد باشا لاظ أوغلي، وليتولّى العبد لله استنتاج الضحية السابعة.

على الحمار، وفي طريقي للوكاندة، أحصيت الثقوب التي أغلقتها في حضور عاشق الشقراوات وناكح المحارم نسيم باشا. القبض على الهجين بات قاب قوسين أو أدنى، فقد علمنا مَن هما الضحيتان المُقبلتان، مجموعات الحراسة تحيط السرايات، وما هي إلا ليلتان أو ثلاث قبل أن يأتونا برأس الزاحف العزيز. هذا إذا لم يختَر زيارة الضحية السابعة أولًا، وأحسب ذلك بعيدًا، فهو يسعى للتحدي، وإن علم بوجود الحراسة على السرايات فسيخترق إحداها ليثير الرعب في الباقين، كما أن حدسي يُخبرني بأن الضحية السابعة هي الأسمن، ومن الكمال أن تكون مِسكَ الختام، ويبقى السؤال، لماذا اختار الهجين أعضاء تلك الكوبانية السِّرية للقتل، ما دام نشاطهم قد انفض منذ زمن بعيد؟

ملحوظة حول علاقتي بالجارية السوداء قشطة:

منذ داهمني العشق، تبدلتْ بين جوانحي عواطف، كنت أحسبها جامدة كجبل المقطم، لم أعد أراها جارية زاندية مُتوحشة آكِلة للحم البشر، شريتها بثمن بخس من جلّاب مُحتال، بل ولم أعد أرى في لونها الأبنوسي ـ الذي كنت أحتقره وأُشبهه بهباب البواجير وأسب به مَن أحتقر ـ إلا فتنة طغت على بياض الشركس واليونانيات، فهنَّ البهاق وجير الحيطان، وهي الكحل الأسود في المراود، هن القمر الشرير الأبيض، وهي المسك والحبر والعنبر، ولا يعنيني إن كان ذلك سقمًا أصاب عقلي، أو هي معجزة من معجزات الرسل، إن هو إلا تسجيل أمين من العبد لله لتبدُّل حاد في المزاج، يَصل إلى درجة إيماني، بأني إذا امتلكت جنيهات إضافية، فسأشتري جارية سوداء أخرى تزيد الليل ليلًا، مع احتفاظي بكراهة دعوة كبير الأمريكانية الفاسد

«أبراهام لينكولن» في تحرير العبيد والجواري؛ ففي الامتلاك راحة بال، وحفاظ على الناموس الإنساني من التفكك والانهيار.

مرت أيام طويلة على مقابلتي نسيم باشا، ولم يظهر الهجين، أظنه يتدبر أمره بعدما فُرضت الحراسة على الباشوات الباقين، فقد بُوغت بكشفي قائمة ضحاياه، ولم يعد إرسال تمثال الأسد أو الهجوم بالتسلل والاستفراد بالضحية مُجديًا. ما لي أفتقد ظهوره كأنه إبراهيم ابن خالي بديع؟ كيف أتعلق بقاتل يسفك الدماء ويُهددني؟ ربما لأن ظهوره يُعطيني أهمية في عين رجالات القلعة؟ أو أن استدعاء داغر بك أمام عينَي بشماف وأصحاب المحلات المجاورة للوكاندة، وركوبي الحُمُر والأحصنة ذات السَّرْج الميري المزركش يُضفي الهيبة على كتفيَّ ويثير الغيرة المحببة إلى قلبي؟ أم أني أفتقد وجوده لأنه يحمل رسالة؟ لأنه لا ينتقم بهدف السرقة؟ لأن الحرمة مِسك قالت إني أشبهه؟ أم لأن حياة النعاج دون ضارٍ مُفترس تفقد الإحساس بمتعة الهروب؟ تجعل القطعان ناعسة خاملة وممتلئة بالغباء!

ولما كان عنتر قدوة حسنة ومُعلمًا أكبر لا يقل عن بوذا وكونفوشيوس في حكمتهما، فقد علَّمني أن معشر الذباب باقٍ منذ بدء الخليقة، لأنه لا يسكن، ولا يهدأ له بال حتى ينال ما يريد من طعام أو من حطّ على رءوس البشر لكسر غرورهم، وإقلاق راحتهم وبث الضجر من الحياة في أطرافهم، فقد عزمت على التحقيق في أقوال نسيم باشا قوش، وكذا رشيد باشا ابن محمد باشا لاظ أوغلي، الكتخدا الأشهر في تاريخ مصر، وذلك لاستنتاج الاسم السابع في قائمة الاغتيال.

ولكن ذلك بعد أن أوفي بنذر قديم قطعته على نفسي، بأن أصطحب عنتر في جولة بشوارع المدينة، تمشية تفك أرجله، وتُذهب الرطوبة من أجنحته ومفاصله، وتُسرّي عنه، وجاءت قشطة لتُشجّعني على البر بوعدي، ولتستطلع المدينة التي ستعيش فيها العُمر الباقي، ولترتاح كذلك من رغي عزيزة، ومن خربشة حماتها خلف الجدار. وضعت على عنتر الجلابية الزرقاء الفضفاضة بعد طيّ أجنحته، ثم لففت يديه بالشاش ورأسه بشال حتى بدا كالناجين من الحريق، ووضعت ساقيه السُّفليتين في جزمة بُنية جلد تمساح، أما قشطة فارتدت الفستان الأرجواني الذي فصلته من أجلها عند الست أريانا بالدور الأرضي، بدت فيه باذنجانة لامعة لافتة، حتى إنني سُئلت عن ثَمنها في الشوارع والميادين، وتلقيت عروضًا سخية لشرائها وصلت إلى عشرين جنيهًا، أسوة بالجواري الشركس، واستحلفوني بالشيخ الوقور ذي الجلابية الزرقاء الذي يركب الحمار وراءنا، وتمنعت عن البيع بإباء، فالجُهال لا يعلمون أن ما أملكه بين يدَيّ معجزة من الرب لا تُقدر بمال، وأنها لبؤة لن تتردد في أن تأكل أيًّا منهم إن أرادت، قطة وديعة وفرس جموح في نفس الوقت، لا ترتضي بأي خيَّال يمتطيها.

راقبت وجهها الأبنوسي وهي تجتاز الشوارع، مبهورة لامعة العينين، تنهل من تفاصيل المدينة وأهلها، التقطت لها صورة بجانب عنتر أمام موقع تشييد قصر أفندينا الجديد، في نهاية الشارع المؤدي إلى ميدان الإسماعيلية، وصورة أخرى قُرب النيل، عند إنشاءات الجسر الجديد الذي سيربط الجيزة بالقاهرة، اشتريت لها وقة أبو فروة، وكوز سُكر من أجل عنتر، مزمزه في استمتاع قبل أن نصل إلى مسجد سيدنا الحسين، قرأنا الفاتحة وتمسحنا بحديد الضريح ورفعنا الدعاء طلبًا للقُرب، وأسرَّ لي عنتر بأن الرأس الموضوع بالداخل في طست من ذهب ومُغطى بالحرير الأخضر، ليس رأس الحسين بن علي رضي الله عنه، وغمز بالكثير من أعينه، فيما ركعت قشطة على السجادة، وغمغمت بكلمات مُبهمة، ثم بكت في صمت قبل أن نتخذ طريقنا

إلى شجرة مريم.

في المطرية، وقفنا أمام الشجرة العتيقة في خشوع، شربنا من العين التي تشرفتْ بغسيل ثياب يسوع المسيح، وأكلنا من نشارة خشب الشجرة التي يجمعها رهبان الدير للمصلين، وجلست تحت الفرع الأصلي، مُغمض العينين، مُسبحًا، حتى سمعتُ صوتًا أعرفه: «طوبَى للأنقياء القلبِ لأنهم يُعاينونَ الله»، التفتُّ وكان القمص شاروبيم ورائي.

عدا خصلات بيضاء وبعض أرطال زائدة وصليب جديد، لم يتغير عن آخر مرة رأيته فيها، قبَّلت يده فربت على رأسي، ثم انفردنا جانبًا، سألني أين اختفيت، ولماذا رحلت عن الدير دون تنويه أو وداع، غشيني الصمت دقيقة كاملة، حتى تهيأت للكلام، فأنا مَدين للرجل بالكثير، منذ لجأت إلى الدير أول مرة. يومها كان شاروبيم شابًّا صغيرًا واسع العينين، يتشبه بالمسيح في حركات أصابعه، كلماته، وحتى في قَصّة شعره وطول لحيته، طلبت منه اللجوء للدّير كطالب رهبنة، سأل إن كان لي أب اعتراف، فناولته طلب رهبنة مصحوبًا بتزكية مختومة من أب اعترافي، يشير فيها لانتظامي في ممارسة الأسرار الكنسية، ومعرفتي بوسائط النعمة. سألني إن كنت مُحبًّا للطقوس والتسبيح والألحان، وإن كانت لي دراية بعقائد الكنيسة وتاريخها، فأخرجت كَمَنْجَتي من الحقيبة، وأنشدت له جزءًا من ترنيمة «بشارة الملاك جبرائيل للعذراء مريم»، ثم سردت له تاريخ الكنيسة منذ ولادة يسوع وحتى ولادتي. وما هي إلا أيام حتى انضممت راهبًا «تحت الاختبار» على أن أُرسَّم راهبًا بعد قضائي سنتين ـ على الأقل ـ في الدير، والالتزام بالتعاليم والصلوات وآداب الكنيسة.

ومرت الأيام، بين تبتُّل وخشوع، تسابيح وتعاليم وصلوات، تفوقت في الترانيم، حفظت إنجيل متَّى ونصف إنجيل يوحنا، وتطوعت لرسم جدارية كبيرة ليسوع المسيح خلف أبراج الحمَام، يقف فيها أمام كهف، بردائه الأزرق، باسطًا ذراعيه للشمس. لم أكن سِكّيرًا حين لاحظت الحركة بين أصابع يسوع اليُمنى، ولم أكن مُخرفًا حين رأيته بأم عينيَّ يحك ذقنه، وتسرب الخبر بين الرهبان، حتى وصل إلى أذن القمص شاروبيم، استجوبني برفق، ثم أثنى على ما رأيت من تجلٍّ حين رأى الدموع في عينيَّ وبارك بصيرتي.

كان ذلك قبل أن يتصرف يسوع بطريقة غامضة، فقد لمحت بُندقية بين قميصه وردائه، يُخفيها عن الأعين في توتر، فقلت لنفسي إن ذلك من شأن يسوع، وما كنت لأُفشي سِرَّه لمخلوق. بعدها بيومين، وفي ليلة ملعونة مُقمرة، رأيت الهجين بأم عينيَّ يتسلل إلى الكهف، صرخت بأعلى صوتي ولم يسمعني يسوع، أنهى نشر لوح الخشب ثم دخل الكهف، وما هي إلا دقيقة حتى سمعت مشادّة، تبعتها معركة، قبل أن تُدوّي طلقة رصاص مزّقت سكون الليل، قرعت الجرس في هلع، وأيقظت الرهبان، جمعتهم أمام الرسم وطلبت منهم الانتظار حتى نعرف مَن سيخرج من الكهف حيًّا، ولما أتى القمص شاروبيم، سردت على مسامعه ما حدث، فنظر للرسم في استغراب: «ولكن يسوع ما زال واقفًا أمام الكهف، باسطًا ذراعيه للشمس»، فهمست في أذنه: «مَن قال لك إن ذلك هو يسوع المسيح حقًّا».

في تلك الليلة، أغلقت على نفسي باب القلاية، وأشعلت الشموع، تضرعت ليسوع حتى عميت عيناي من الدموع، ثم غفلت، فأتتني رؤيا بالهرب من الدير، بعد سكب جردل من الدهان على الرسم، وكان هذا ما فعلته، ومنذ ذلك اليوم لم أدخل كنيسة أو ديرًا، ولم أعترف أمام أي أب، بأن العبد لله يتشكك في كل رسم ليسوع المسيح.

أخبرت القمص شاروبيم ما يود أن يسمعه من مسيحي تائه: «خشيت ما فعلت فهربت خجلًا من المسيح ومنك»، رسم الصليب على جبهتي وهمس: «واغفر لنا خطايانا لأننا نحن أيضًا نغفر لكل مَن يُذنب إلينا. ولا تُدخلنا في تجربة لكن نجّنا من الشرير»، ثم أخبرني أن باب الدير مفتوح من أجلي في أي وقت، وقد أعادوا رسم المسيح مكان البُويَة التي سكبتها على الحائط. ابتسمت ثم عرّفته بقشطة، أهداها صليب جميل من الخشب، علّقته في رقبتها فقالت «ماكو» فابتسم القمص، سألته: «هل تعلم ما تقصد؟»، فأفاد بأنه تعلّم لغة أهل الجنوب من قبائل الزاندي، والمقصود بالكلمة «مُبارك»، ولما سألته عن كلمة «مابوري» التي قالتها بعد أن رسمت الذبابة فوق رأسي على حائط الغرفة، أخبرني أنها تعني «الله!» في لُغتها، وفجأة، تذكرت الكلمات التي نقشتها في مُفكرتي من فم قشطة، فعرضتها عليه، ابتسم بخجل ثم قال: ««مي لِيما كيبي ناماورو» تعني «أحبّك» بلُغتها»، قشطة أرادت أن تخبرني أني مبارك، وأن الله فوق رأسي حافظ، وأنها تُحبني. قشطة هي أول مَن آمن برسالتي من النساء، كِدت من الفرح أن أصرخ عاليًا: «لتغرق الأرض وتفنى البشرية ثانيًا، ما دامت الإفريقية تحبني وتؤمن بي، نبيًّا تحت الاختبار». ثم اقترب عنتر، فاضطُررت أن أقدمه للقمص بحذر يكاد يفلت من بين أسناني: «شيخ صوفي جليل لا يكشف وجهه لأحد»، فوضع عنتر إحدى أذرعه على كتف القمص، وابتعدا خطوات، همس في أذنه ببعض الكلمات فبكَى القمص حتى بلّت الدموع لحيته، ثم قبّل يد عنتر في تبجيل ورحل مُبتسمًا، يكاد يركض نحو الدير من الفرح.

ولما سألت عنتر عما قال، أخبرني أن القمص كان تلميذًا له يومًا ما!

في طريقنا للبيت، لم تنزل عيناي عن قشطة. عينان تحويان بحرًا، وضفيرة غليظة تشنق بها العشاق، مع كل خطوة أخوض ميلًا في البحيرة الإفريقية، الباذنجانة الفاتنة تتوغل في شغاف القلب، كم أكلتِ من قلوب العُشاق؟ كم رصصتِ من الجماجم بجانبكِ يا زجاجة الحبر الفاتنة؟ أكلتِ قلب عزيزة، ويا ليتكِ تأكلين كل النسوة، حتى ينقرض الجنس الأبيض والخمري والأحمر، حقًّا «جت تطُل غَلبت الكُل»، حتى قطط الشارع تتبعكِ في خشوع، مَسحورة، في موكب خلف ملكة غير مُتوّجة، تمشي على استحياء وتلفح وجهي، دون أن تدري أني غرقت في إناء اللبن الأسود، ولا يعلم السر إلا عنتر ابن اللئيمة، راقبني من وراء لثامه، وطنَّ بسعادة حتى كاد يقع من فوق الحمار.

في اللوكاندة، وحين وضعت الألواح الزجاجية في محلول المُظهِر، تجلت الصور السلبية ببطء، قشطة بجانبها عنتر، ومن ورائهما، وعلى بُعد يسمح بالظهور تحت العدسة المُكبرة، لاح شبح مُتكرر، لرجل يُراقب. كان على وضع الألواح على ورق مشبع بنترات الفضة، وتعريضه للشمس حتى يعكس كل التفاصيل التي سوّدتها الشمس، فظهر الذي كان يتبعنا، في كل الصور، يقف وراء شجرة مريم، وقُرب سقالات الجسر الجديد، بين أحجار القصر الجديد، وعند باب مسجد الحسين، يستند صندوق النذور: هجين مُلثم، مفتول العضلات، في رداء أسود وحزام عريض، يرمق عدسة الكاميرا، يُريدني أن أراه، يريد أن يُسجل وجوده في دفتر ذكرياتي، ولا شك، يريد للهلع أن يضرب صدري وعقلي، فقد أغضبته، أفسدت عليه مفاجأة ضحيتَيْه المُقبلتين، فأراد أن يخبرني أنه المُسيطر، وأنه كالهواء، لا يردعه حائل. كان عليَّ أن أسبقه بخطوة، فقد تبقّى على دوري بالقائمة، اسمان، ومحاولات هروبي من المواجهة والانشغال بالحب الإفريقي لن تُنجيني من المصير. حشوت المعسِّل، شربت القهوة المحوّجة، فتثاءبت الأفاعي السوداء في دمي، ثم التقطت فحمة ورسمت على الحائط ـ وسط ذهول قشطة ـ سبع دوائر، تحوي أسماء أربع ضحايا سابقين.

ضحيّتان ينتظران ساعتيهما، وعلامة استفهام كبيرة في آخر دائرة، ضحية سابعة لا أخبار عنها.

من كل دائرة خرج خط، كتبت فيه أسماء الآباء، مؤسسي الكوبانية، حاشية الباشا محمد علي الذين آزروه وساندوا ظهره حتى قويت شوكته، وفوق كل منها، كتبت المناصب التي تولّوها، ثم ابتعدت إلى نهاية الغرفة، مضغت ورقة لبلاب، ونظرت للأسماء مُحاولًا إيجاد صِلة فاسدة تجعل أبناءهم عُرضة للانتقام. حتى ضرب جبهتي سهم الألم، في نفس المكان، فوق الجبهة مباشرة، كِدت أسقط لولا قشطة التي فركت أسناني بفص ليمون، ثم بدأت الصورة تتضح، مثل سلبية فوتوغراف زجاجية بداخل محلول مُظهِر: فصالح آق قوش ـ والد نسيم باشا ـ كان كبير ضباط المرتزقة الأرناؤوط، وحسن باشا ـ والد عصمت باشا حفير الخنافس ـ كان قومندان الأرناؤوط الأكبر، ومحمد باشا لاظ أوغلي ـ والد رشيد باشا ـ كان كتخدا الباشا ورئيس الدواوين، وإبراهيم أغا ـ والد حافظ باشا مقطوع الرأس ـ كان الحارس المسئول عن باب العزب بالقلعة، الباب الذي عُلّق فيه رأسه، ومحمد بك الدفتردار ـ والد المحروق عزت باشا ـ كان القائد الأكثر دموية وسفكًا للدماء من قُوّاد محمد علي باشا، أما الحرمة همّت إسحاق، ذات النسب الفقير المعدم، والعمر المتقدم الذي يجعل منها شابة صغيرة في عهد الباشا الكبير، فمصدر ثروتها الذي عدَّه الكثيرون لُغزًا دُفن معها في مقبرتها، وموقع سرايتها التي بُنيت فوق بيتها القديم بسوق السلاح، كانا أول طلقتي مدفع في قلعة الألغاز. نعم، لقد وجدتها! نطقتها بصوت عالٍ، مثل أرخميدس حين اكتشف قانون الطفو، تجرعت بعض الكونياك ولتشتعل الأفاعي في دمي من الغيرة، فالأسماء الستة ـ وكيف يكون للصدفة مكان هنا؟ ـ شاركوا في أكبر مقتلة شهدتها البلاد في المائة عام الماضية، مقتلة سُميت بمذبحة القلعة.

تبدو الحقيقة، والساعي وراءها، نجمين، نظنهما بالمرصد الفلكي مُتجاورَيْن، لكنهما في الحقيقة، بعيدان كل البُعد.

كُل الأيدي التي شاركت في تدشين تلك الكوبانية، كانت مُخضبة بالدماء، أربعة منهم، على رأسهم الكتخدا «لاظ أوغلي» مُدبر المذبحة، كانوا الوحيدين الذين علموا خطة المقتلة التي راح ضحيتها ألف نفس من المماليك، بين حاجب للباب الذي أغلق في وجه المماليك، قائد وضابط لقوات الأرناؤوط التي أطلقت النيران وذبحت الفارّين. أما الاسمان الباقيان، فدفتردار تولى تعقب وقتل فلول المماليك، وكل مَن عارض المذبحة من أهل البلد بعد ذلك، وحُرمة، تُدعى همّت إسحاق، دُفنت سيرتها وسط ركام الحكايات، حتى أفرج عنها منذ يومين عجوز بحي سوق السلاح، تخطى التسعين، حفر في ذاكرته بئرًا غويطة وأدلى دلوًا، فأخبرني بأن الحُرمة همّت إسحاق، دخلت سوق السلاح سنة ١٨١٠، عاهرة صغيرة لا تتمتع بالجمال قدر ما تتمتع بسحر جذب الرجال، وما هي إلا شهور حتى اشترت همّت بيتًا كبيرًا على ناصية، استقبلت فيه عِلية الرجال من كل المِلَل والجنسيات، وحين هلَّ أول مارس من عام ١٨١١، وفي صباح الجمعة المشئوم، حدثت المقتلة الشهيرة، فاستجار ببيتها عَدد من شباب المماليك الذين طالما أضاءوا مصابيحها، وافترشوا العاهرات عندها. خبأتهم في حجرة، وأغلقت الباب بالمفتاح، ثم أبلغت جند الأرناؤوط، ارتقوا السلالم واقتحموا الحجرة، وبدأ قطع الرءوس، وفي غفلة منهم قفز شاب من النافذة إلى الدور الأرضي، حيث كانت الحرمة هِمّت تترقب، حزّ رقبتها قبل أن يتمكنوا منه. نجت، وإن ترك الجرح في رقبتها علامة جعلتها تعتزل كار العاهرات. بالمكافأة التي تلقتها على تسليم المماليك، اشتغلت همَّت بتجارة السلاح، مثل أبيها وجدّها،

وبذكرى الأيام الخوالي مع الضباط الأرناؤوط استأثرت بتوريد السيوف والغدارات المفخمة للخاصة والأمراء، حتى قابلت الشاعر الإيطالي المغمور فرانكو جابريال.

قبل أن تتسرب الأفكار من رأسي كتبت في المُفكرة: «الكوبانية ربما تكون قد هرست رأسًا من رءوس المماليك، وقد عاد ذلك المملوك لينتقم، بعد أربعة وخمسين سنة؟ لا يبدو ذلك معقولًا، إلا مع هجين عُمره ليس مثل أعمارنا، يتنقل بين الأجساد كيفما يشاء، ولكن لماذا ينتقم؟ وما شأن ساكن القمر بالمماليك؟ لماذا يتبعني؟ هل يبغي قتلي؟ لمَ أبقاني؟ هل أنا الضحية الأخيرة؟ ليس لي شأن بالكوبانية، ربما يريد أن يرتدي جسدي ويستولي على قشطة وعنتر؟

علامات الاستفهام تضخمت حتى أزاحت المنضدة وبظَّت من النافذة، وقبل أن يهزمني النوم، تلقيت زيارة غير متوقعة، من أوسخ مَن آوتهم المحروسة منذ عهد السلطان برقوق رحمه الله، بوراك الأرناؤوطي، زعيم قواصة الشرق الفشلة، لم يخبط الباب تلك المرة، فقد أسرّها في نفسه أنْ لطعتُه المرة السابقة، كسر رجالُه الكالون بأكتافهم، أزاحوا قشطة، كمموا فمي ووضعوا رأسي في كيس من الخيش، جرجروني على السلالم، ثم ألقوا بي على وجهي في عربة حبس مُصفحة بالقضبان، داس بوراك على قفاي بنعل حذائه، ووضع فوهة الغدارة على أذني، وشد الزناد، وطوال الطريق إلى سجن القلعة، لم ينطق غير كلمة واحدة: «خائن».

وسأُدوّن المأساة بالتفاصيل الكاملة في اليومية التالية، فعليّ الآن مراعاة قشطة وعنتر، فقد عانيا في غيابي أشد المُعاناة.

أكتب تلك اليومية لتوثيق أخبار ما حدث من بعد مداهمة القواص بوراك الأرناؤوطي لغرفتي، ولتكون شهادة إدانة على إهدار كرامتي، وإذلال شرفي أمام الزعانف والسوقة وأصحاب الدكاكين الحُقراء المحيطين باللوكاندة، وما كنت لأنسى شماتة بشماف الخسيس الذي سأل القواصة بصوت عالٍ ليُسمعني وأنا أتدحرج فوق السلالم بكيس خيش يكتم أنفاسي ويُخفي وجهي: «ماذا سَرق؟ هل أُخلِي غرفته؟ إعدام إن شاء الله».

حين وصلت إلى سِجن القلعة، أُلقيت في زنزانة انفرادية باردة تحت الأرض، فانتابني الفزع من مصير مجهول، وما هي إلا لحظات وتذكرت أخي يوسف عليه السلام، ومِحنته في السجن، وأدركت بوحي من الله أن ما كُتب على العبد لله، هو الامتحان الأكبر، ولن أخرج منه إلا عزيز مصر بعون الله، وستكون العلامة، تفسير حلم لإسماعين. حين يعلم بما حدث، من جلبي وإهانتي كالعبيد السود، ستطير رءوس كثيرة. كَحتُّ بأظافري الحائط، علامة أول يوم في السجن، وجعلت أبتهل وأذكر، قبل أن يداهمني الرعب، وينتصب شعر جسدي، لم أكن بالزنزانة وحدي، خدعتني الظلمة حتى سمعت صوتًا مبحوحًا ينطق: «مجنون»، انتفضت كالفأر، ولما كانت يدي مغلولة إلى الحائط بالجنزير، لم أستطع الحركة، تعالى صريخي: «مَن بالزنزانة؟»، ولما لم أتلقَّ إجابة، التزمت الصمت حتى أسمع، واستطعت أن أتبع صوت جنزير يحتك بالأرض، في الركن الأيسر من الغرفة، ثم وقع حمل ثقيل، وحزق، خطوات تقترب، ثم كُرة حديدية لا يقل وزنها عن ثمانين رطلًا، تسقط على بُعد بوصات من أصابع قدمي، سُعال جاف، خرج من كهف مليء بالوطاويط، تلته بصقة، أظنها لطتني: «لا مؤاخذة»، قالها مَن جلس بجانبي، الظلمة لم تسمح برؤية الملامح، حتى اشتعل عود ثقاب احتك بأرضية الزنزانة، شمس أحرقت عينيّ، رأيت بعدها رجلًا عجوزًا، تخطى الثمانين، منذ ثمانين عامًا، ابتسم لي بلا أسنان، بلا عينين، وبلا أذن يُمنى، تملّكني الفزع، حتى كدت أتقيأ، فقرأت الآية الثامنة عشرة من سورة الكهف، والآية ٤١: ١٣ من سفر إشعياء، ثم انقضى عُمر عود الثقاب، فانتابتني نوبة فزع ثانية: «ما تبقاش عامل زى ابن المعزة، يعيط والبِز في بقه، لن أهدر عليك عود ثقاب آخر، فلم يعد معي الكثير، وإن لم تهدأ فسأحمل تلك الكرة وألقيها فوق رأسك لترتاح وأرتاح من صريخك وتشنجاتك أيها المعتوه»، سألته: «مَن أنت؟»، قال: «محسوبك سمكة». نعم، اسمه كان سمكة، وقبل أن يكون سمكة، كان من القلائل الذين قابلوا نابليون بونابرته وجهًا لوجه حين غزا البلاد منذ ستة وسبعين عامًا، أضف إليهم عمره وقتها والذي قدّره بخمسة وعشرين عامًا، ليبلغ الرجل الماثل أمامي من العمر، مائة سنة وواحدة.

لم تطل الظلمة، فالقمر يضرب بأشعته القاتلة أرض الزنزانة، بعيدًا عن ساقي والحمد لله، فالوقت لم يسعفني لجلب المرهم الواقي. وما هي إلا دقائق وظهر لعم سمكة حدود وملامح، فبدأ يتكلم: «لقد ميزت رائحتك قبل أن أراك، فالمجذوب يملك رائحة مميزة، خليط يفرزه الدماغ يجمع بين البخور الجاوي والعرقسوس والحلبة، ولما راقبتك تأكدت، عيناك ترتعشان، ورأسك يتحرك مثل الحمام، وأيًّا ما سيحدث لك في هذه الزنزانة، فلن يزيدك جنونًا، هذا إن خرجت حيًّا، فسجن القلعة مثل القبر، ما بيرجّعشي ميت»، ولمّا كان أول يوم لي بالزنزانة، أراد عم سمكة أن يُسرِّي عني، فحكى قصته.

حين دخل الفرنسيس البلاد سنة ١٧٩٨، وبعد معركة الأهرامات التي انتهت بهزيمة المماليك، قُتل من قُتل وأُسِر من أُسِر وغرق من غرق في مياه النيل، كان عم سمكة، يَملك محَلًّا يبيع فيه أفضل «بوري مشوي»

في حي السيدة زينب، يسعى إليه الناس من النجوع والقرى، بلَعاب يسيل ومعدة تبتهل، خاصة يوم المولد الذي يردد فيه الناس، إن سمك النيل في ذلك اليوم يَسبح، وتَسبح بجانبه الطحينة والعيش والفجل والجرجير، استعدادًا لازدحام دكان عم سمكة.

أغلق عم سمكة دُكانه شهرًا، حتى سكنت المدافع، واستقرت الشوارع، ودانت الأمور لبونابرته بعد اجتماعه بالمشايخ وخطب فيهم خطبة تداولتها الألسن: «أوَليسَ حقًّا أنه قد جاء في كُتبكم أن كائنًا أرقى سوف يصل من الغرب، مكلفًا بمواصلة عمل النبي؟ أوَليسَ حقًّا أنه جاء فيها أيضًا أن هذا الرجل، هو الوكيل لمحمد؟ إنه أنا!»، ففتح أبواب دكانه على استحياء، وما هي إلا أيام وعادت الناس لتطوف حول البوري المشوي. وفي يوم عجيب، أحاطت جند الفرنسيس بالدكان، ومن فوق الحصان، أشار ضابط أشقر للشواية وقال: «چيه ڤو تو سيه پواسون پور چنرال بوناباغتا» ـ نطقها عم سمكة رغم زوال أسنانه بلكنة فرنسية سليمة ـ ووقع قلب الرجل بين قشور السمك في دكانه، بونابرته بجلالة قدره يريد أن يأكل من دكان سمكة؟ وهل كان سمكة ليرفض العرض؟ حملوه بطاسته وبرميل السمك البوري الحي، ووضعوه بعد دقائق في حديقة بيت محمد بك الألفي، مقر ومسكن بونابرته في القاهرة.

بعد أن زالت رعشة اليد، وذهب الوجل عن عم سمكة، استطاع أن يختلس النظر إلى بونابرته من بين دخان الشّيّ، القائد الفرنسي كان جالسًا على وسادة، يدخِّن الشُّبك ويراقبه، لم يَبد قصيرًا كما قال الناس، ولم يكن يرتدي الزي العسكري، كان يرتدي جلبابًا كُحليًّا فضفاضًا، ويضع على رأسه لبدة. دب الشك في نفس عم سمكة، هل هذا هو نابليون بونابرته حقًّا؟ فجأة قام بونابرته، اقترب من عم سمكة فارتعشت ركبتاه، تفقد السمك على الشواية، غمغم بلغة الفرنسيس، ثم غرس أصابعه في بطن سمكة بوري قاربت الاستواء، التقم واستطعم: «بسم الله ما شاء الله، ديليسيوه»، قالها بالعربي الفصيح فكبر عم سمكة، واسترخت مفاصله، فالشائعة التي راجت لم تكن شائعة، نابليون بونابرته رجل مُسلم وموحّد بالله، وما كان من عم سمكة إلا أن صنع أجمل مائدة سمك للقادة الفرنسيس، ونفحه بونابرته بنفسه جنيهًا نابليونيًّا منقوشًا بصورته، احتفظ به عم سمكة تحت بلاطة أسفل رِجل سريره، ولم يفكر يومًا في صرفه. ومرت الأيام وحال عم سمكة تزداد رغدًا، الخيالة الفرنسيس يأتونه كل أسبوع مرتين، يحملونه وبرميل البوري الحي إلى حديقة بيت بونابرته، ينتقي السمكات بنفسه، يغمسها في الطحينة البلدي، يستطعم، يبلِّع بالنبيذ الأبيض، يصفق ويصيح، ديليسيوه، ويناول عم سمكة الجنيه النابليوني.

خلال أسابيع، صار عم سمكة نارًا على عَلَم، لم يعد الدكان الصغير المزدحم بزبائن يطوفون حوله بعد الصلاة في مسجد السيدة زينب، بل صار مولدًا يوميًّا لا ينتهي، قِبلة للأثرياء والفضوليين، راغبي تذوّق السمك من نفس الشواية التي يأكل منها بونابرته. طالت الطوابير حتى قطعت الطريق، وسدَّت الحمير والعربات مدخل المسجد، واضطُر القواصة أن يُنظموا المرور نظير وجبة من «أسماك بونابرته» ـ اسم الدكان الجديد ـ وأجر شهري يدفعه عم سمكة الذي وسَّع دكانه الصغير بشراء الدكاكين المجاورة، رصّ فيها الموائد والكراسي لاستقبال الزبائن، ملأ الأزيار على طول الطريق بالمياه، استأجر باعة العرقسوس والكركديه للترطيب على أفواه الآكلين، وخصص دكة لرسّامي الحملة الذين رسموا دُكانه ضمن كتاب «وصف مصر» كـمثال للمطبخ الإيچيبسيان. أما عم سمكة، فانزوى في ركن، بسطح بدكانه الجديد، مُرتديًا جلبابًا سُكريًّا من التيل، ولاسة حريرية، يستضيف الشيوخ والتجار حول مائدته، يُدخنون النارجيلة

ويستمعون بشغف لوصف بيت بونابرته، جلبابه الكَحلي، لبدته، جواريه وعبيده، ضحكاته وسكرته، وسهراته الماجنة التي لا يأكل فيها إلا من يد عم سمكة، ثم يقلد طريقته في نُطق كلمة «ديليسيوه»، فتشهق الأفواه وتسيل الريالة على الصدور. حتى قامت ثورة القاهرة الأولى في منتصف أكتوبر، حين فرض الفرنسيس ضرائب باهظة على التجار ـ باستثناء دكان أسماك بونابرته ـ وتم تفتيش بيوتهم والدكاكين بحثًا عن الأموال، وتم تكسير أبواب الحارات لتسهيل القبض على مُثيري الشغب، وهُدمت المباني والمساجد لتحصين المدينة. وما كان من عم سمكة إلا أن أغلق دُكانه الذي تعرض لقذف الطوب، حتى استعاد الفرنسيس السيطرة، دخل جند نابليون الأزهر بخيولهم، وحُكم على ستة من الشيوخ بالإعدام، جرجروهم إلى القلعة، وضُربت أعناقهم، ثم دُفنت الجثث في قبور مجهولة. «لم يعلم الرعاع والغوغاء من أهل البلد أنهم خرجوا على حاكم مُسلم مثلهم، رأيته بأم عينيَّ ينطق: "بسم الله، وصلِّ ألا النبي"»، بعدها عاد الهدوء للشارع، وفتح عم سمكة دكانه مرة أخرى، بتوسع أكبر، وبحراسة عسكر من الفرنسيس، بعد أن طلب من بونابرته على استحياء أن يضمه تحت جناحه ليضمن سلامته، وليعلم السوقة والأثرياء أن «أسماك بونابرته» وُلِدَ ليبقى. واستقر الأمر بعم سمكة، وتضاعفت ثروته حتى اشترى سراية وكارتَّة، ولكن دوام الحال من المُحال، فقد قامت الثورة الثانية بعد رحيل بونابرته. «الله يخرب بيت أبوهم التجار ومساتير الناس على جواسيس السلطان العثماني، ع المماليك الذين تسللوا إلى القاهرة وأثاروا أهلها، بعد أن كانوا خاشعين حامدين وشاكرين، ولاد الأبالسة جلبوا المثقلات التي يزنون بها البضائع من حديد وأحجار من حوانيت العطارين، واستخدموها لضرب مقر القيادة بالأزبكية، وجعلوا من الحارات والأزِقة متاريس وخنادق، وأخذوا يصُبون غضبهم على الجند الفرنسيس يمينًا وشمالًا، حتى عاد الجنرال «كليبر» إلى القاهرة بعد ثمانية أيام، فأمر بضرب الأحياء وإحراقها بمدافعه، ثم أقام صلحًا مع «مراد بك» المملوكي، وأبرم معه معاهدة بموجبها أصبح الأخير حاكمًا على الصعيد، بشرط، أن يقنع زعماء الثورة بالسكينة والتراجع عن الاشتباك، بل وقدم مراد بك للفرنسيين المؤن والذخائر في سفن مُحملة بالحطب والمواد الملتهبة، لإحداث الحرائق بالقاهرة، وسلّمهم العثمانلية الذين لجئوا إليه، حتى تمكنت أيدي الفرنسيس من جديد.

وعاد «أسماك بونابرته» ليفتح أبوابه من جديد، ولكن، الناس هجرت زيارته، والطواف من حوله. غطى التراب الموائد، تعفنت الأسماك فوق الطاولات وكساها الذباب، وانطفأت النار تحت الشواية، قبل أن يكتب مجهول كلمة «خائن» بالبُويَة على أبواب الدكان ليلًا. وما كان من عم سمكة إلا أن أغلق دكانه، وانزوى في سرايته التي تكومت على سلالمها رسائل الاتهام والعار، ليستيقظ في صباح يوم، على خبطات عسكر الفرنسيس فوق بابه، يدعونه لتقديم وليمة سمك من أجل جنرال «كليبر». أخرج عم سمكة الشواية، وأتى ببرميل السمك، واتجه بصحبة العسكر إلى مَسكن القائد الجديد الذي حل محل «بونابرته»، شوى البوري، رصّه في الأطباق، مدّ كليبر يده للسمك والتقم، دون أن ينطق باسم الله. أكل، ولم يُكمل نصف السمكة، ولم يقل حتى «ديليسيوه» بعد أن انتهى أو حمد الله وشكر، اكتفى بأن مسح يده باشمئزاز ثم ابتعد، كليبر ليس بونابرته، كليبر ليس مُسلمًا.

حمل عم سمكة شوّايته وسكاكينه، ومضى في حزن، خارجًا من منزل «كليبر» الذي لمحه يتحدث في ركن بالحديقة مع أحد ضباطه، فاشتعلت الفكرة في رأسه: «سأمحو العار ببطولة تُخرس الأفواه، ويتحاكى بها القريب والبعيد، ولأفتح دكاني ثانية مرفوع الرأس، وباسم آخر؛ «أسماك الطاهرة»، نسبة للسيدة زينب». وضع عم سمكة شوايته على الأرض، استلّ سكينه وراء ظهره، واقترب من كليبر، انحنى ليُقبل يده ولم

يسترِب الفرنصاوي، فجذبه عم سمكة بعنف وطعن قلبه كما يَطعن السمك البوري، أربع طعنات أردته قتيلًا، وحين حاول الضابط المُرافق الدفاع عن كليبر؛ طعنه عم سمكة أيضًا، ثم ركض هاربًا، لم ينظر وراءه من الرعب، حتى مر بحديقة، وجد فيها شابًّا نائمًا مستندًا على جدار، رمقه للحظات، وحين سمع صوت الجند يقتربون، ألقى السكين في حجر الشاب، وأكمل مسيرة الهرب. وما هي إلا ساعة، وألقى جند «كليبر» القبض على الشاب. كان اسمه سليمان، ومن بلدة حلب، وفي يده سكين مخضبة بدماء الچنرال.

«المُحاكمة كانت سريعة، وكنت حاضرًا في ميدان الناصرية، واقفًا على أطراف الأصابع لأشاهد المشاعلية يضعون سليمان الحلبي فوق الخازوق، بعد أن أحرقوا ذراعه التي لم يطعن بها كليبر، وقطعوا رءوس أعوان ذَكرَ أسماءهم من قسوة التعذيب. لم أجرؤ على الصريخ بأن الشاب الحلبي مظلوم، وأنني البطل الحقيقي، ولم يجرؤ سليمان على إنكار الجريمة التي جعلت منه شجاعًا مغوارًا ستتحاكى الرواة بسيرته على دكك المقاهي في السنين التالية. كم أردت أن أكون مكانه! وكم كرهت الفكرة حين رأيت العذاب في وجهه، وسمعت الصريخ الذي لم يتوقف حتى نفذ الخازوق من كتفه، ثم تُركت جثته لتنهشها الطير».

رحل الفرنسيس عن مصر بعد سنة من مقتل «كليبر»، وانقطع كل أمل لعم سمكة في فتح دكانه ثانية. لم يستطع سرد القصة على مسامع المعارف وإلا اتهموه بالخرف، أو ربما قدموه للمحاكمة بتهمة قتل سليمان الحلبي، حتى اعتلى محمد علي باشا العرش، والتقاه عم سمكة في مجلس شعبي سنة ١٨١١، فلوح من بعيد، وقبّل يده، ثم استسمحه في سرد قصته لعلّه يُجزل العطاء أو يُعلنه بطلًا. وأنصت الباشا باهتمام، ثم ابتسم، ربت على كتف عم سمكة وهمس: «إني أعلم أن سليمان الحلبي مظلوم، ويكفيه أن مات فوق الخازوق، أما الخائن، فسيظل خائنًا وإن ساهم في زوال حكم الفرنسيس»، قالها ثم أمر جنده الأرناؤوط بإعدام عم سمكة، ولولا رجل واصل، يُدعى خليل باشا، كان من زبائن الدكان القدماء، توسط للسمّاك عند محمد علي باشا، لنفّذ القتل. استضاف الرجل عم سمكة في بيته بعد العفو، أكرمه ونعَّمه، وما هي إلا أيام، ولسوء بخته، اتضح ضلوع ذلك الباشا في خيانة. اقتحم الأرناؤوط سرايته، اعتقلوه، وتم الزج بعم سمكة في سجن القلعة، بتهمة التآمر، ليصبح أقدم سجين حيٍّ، بدون محاكمة، بدون عفو، أربعة وخمسين عامًا، فقد خلالها أسنانه، أكلت الفئران أذنه وحفرت محاجر عينيه، والآن يضعونني معه، يا مصيبتك يا سليمان! وما كان من عم سمكة إلا أن صكَّ وجهي بصفعة، لا أعلم من أين أتي بتلك القوة، ثم جذب شعري وصاح بأنفاس كالقبر: «ما تبقاش عامل زَي شُخاخ الجِمال، تملِّي لورا، صراخك كالنسوة لن يفيد، والولولة لن تُخرجك من هنا، عليك بأكل جير الحيطان مثلما فعلت، حتى تبقى على قيد الحياة، فإن فيه قوة وعنفوانًا، لا يحتويه اللحم، وحين يأتيك «ضَمضَم» ليضع العصا في مؤخرتك، أظهر الاستمتاع، حتى يزهد فيك».

وقبل أن أسأله مَن هو «ضَمضَم»، سمعت خطوات ثقيلة تسير خارج الزنزانة، رُفع الترباس، ثم انفتح الباب عن عملاق لا يقل طوله عن تسع أقدام، يحمل مصباحًا بيد، وباليد الأخرى يُمسك بعصا من الحديد، في نهايتها أنشوطة جلدية غليظة، رأيت مثلها مع صائدي الكلاب ومُروضي السباع، أفلتت ضحكة من عم سمكة الخسيس، وهمس في أذني بغبطة: «تذكّر، استمتع»، واقترب الأخير مني، تسبقه رائحة حامضة أجبرتني على السعال والعطس، ودون أن يتكلم، ألقى الأنشوطة على رأسي فأحاط رقبتي، وضيَّق العقدة، حتى انقطعت أنفاسي، ثم خرج، يجرجرني وراءه دون مقاومة تُذكر، فالأظافر والأصابع حين تنغرس في شقوق الأرضية ما كانت لتقاوم فيضان نهر ضمضم الجارف، مررنا بزنازين خبّط نزلاؤها على الأبواب،

وأنشدوا في صوت واحد: «ضم ضم ضم ضم»، حتى دخلنا من باب، ونزلنا دركًا، مسح بي سلّمه، كالمعزة بين يديه، ثم دلفنا إلي غرفة ضيقة، فيها عروس حديدية، ربط أطرافي في أطرافها الأربعة، ثم أمال محورها حتى صار رأسي للأسفل، مزق سروالي، ومدّ إصبعًا غليظًا في شرجي، بحث عن شيء ضاع منه، ثم استبدل إصبعه بعَصا غليظة.

قاومت الصريخ عملًا بنصيحة عم سمكة، فزهدني ضمضم ثم خرج، وما لبثت الأعين المضيئة أن ظهرت، فئران تُرحب بالضيف الوارد. ويجب أن أُسجّل هنا، أن فئران سجن القلعة لا تأبه بالصراخ والهش والتشنجات، وتُفضل النسيج اللين في الأجساد. قبل أن يصل الفأر الثالث فوق أيري، ويبدأ في قرض أغلى ما أملك، انفتح الباب، دخل زفت الطين ضمضم بالمصباح، أطاح بالفئران، ثم دخل وراءه بوراك الأرناؤوطي، وداغر بك مبتور الورك ـ إلهي يبتر وركه الأخرى وكتفه اليُسرى ويجدع أنفه ـ وضع المونوكل أمام عينه ثم سألني: «كيف فعلتها؟ كيف أقنعتنا جميعًا بأن هناك قاتلًا يسعى خلف الباشوات؟ مَن أنت حقًّا»، طلبت منه أن يُخرج العصا من مؤخرتي أولًا حتى أفهم، فغرسها ضمضم بوصتين إضافيتين، وعقّب بوراك: «تلك العصا تُمهد للخازوق، اعترف أيها القاتل؟»، قبل أن يشير إليه داغر، ودون أن يفك جسدي من فوق العروس، صحّحوا وضعيتي، بات رأسي في مكانه وهدأ احتقان الدم فيه، فأجبتهم: «إني لا أفقه مما تقولون شيئًا»، فتلقيت لسعة كرباج من ضمضم، على مؤخرتي وظهري، ثم قبض على خصيتَيّ وبدأ يعتصر، وتعاف نفسي أن أسجل في اليوميات أكثر مما جادت به كرامتي المهدرة.

الخلاصة، أن بوراك أعد تقريرًا مُحكمًا ضدي، أكاد من إتقانه أن أقنع به، مفاده:

أنت الوحيد الذي تستطيع قطع رأس حافظ باشا في ظلمة جلسة تحضير الأرواح؛ فقد كنت تملك سكينًا، وتستطيع إخفاء الرأس في حقيبتك. وقد رفضت فتحها وقت التفتيش حين أمرتك، بحجة عدم حرق الفوتوغراف، ثم أخبرتني بعد يومين أن الصور قد فسدت، وقد فتشت الحاضرين كلهم، حتى الوسيط الأمريكاني، وفتشت السراية، ولم أجد أحدًا...

«كيف وصل الرأس إلى باب القلعة يا حذق؟».

سألته، وكانت إجابته: «لقد أخرجت الحقيبة من السراية بحجة الخوف من أن يخبطها القواصة فتسقط، وحين ركبنا الخيل إلى الباب بصحبة داغر بك، لم تكن معك! كيف وصلت إلى اللوكاندة؟ ليس من الصعوبة أن يتولى شريك لك تعليق الرأس في باب القلعة قبل أن تغادر سراية عصمت باشا.

الدليل الثاني كان في بيت عصمت باشا، فقد تعرّفتك الحرمة مِسك القلوب حين دخلت غرفتها، وصرخت بأنك القاتل، هل ذلك دليل يصح إهماله؟ أما الدليل الثالث فكان في بيت الحرمة همّت إسحاق، خدَّرتَ ابنتها لتضع البارود بصنعة ساحر ماكر وتفجر الحُرمة، لتتحول الوفاة الطبيعية لعجوز تخطت العقد السابع إلى قتلة عجيبة تثير الرعب في النفوس، ويسهل ضمها إلى ضحيتيك السابقتين.

الدليل الرابع، كان اقتراحك يا سليمان أفندي نشر صورة الأسد في جورنال الوقائع المصرية، فقد تقدم إلى القرقول خطّاط عجوز من حارة النحاتين، أفاد بأن هناك رجلًا زار دكانه وسدد ثمن الحفر أسفل سبعة تماثيل على شكل الأُسود، باسم المشاعلي، وحين شاهد صورتك، أقر بأنك ذلك الرجل.

وإن كان ذلك كله محض مصادفة؟ فالدليل الخامس، حاسم، فقد أتت إلى القرقول أمس حرمة، تُدعى

نواعم مكرم، أفادت بأنها أمك، وقدمت فيك شكوى بأنك ابنٌ عاق، مجذوب ومناخوليا، استأثرتَ بمِيراث أبيك كله من بعد وفاته، ولا تتورع عن تجاهل خبطها على بابك حين تزورك لتستجدي الأموال، وترفض أن تتكفل بمصاريفها رغم ضيق حالها، مُدعيًا بأنها داعرة، ثم طالبت في الشكوى بالحَجْر عليك لفساد عقلك، وأفادت بأنها تشك في ضلوعك في دس السم لأبيك، وقتلك صاحب سيرك شعبي مُتنقل يُدعى «شفيق وزة»، قبل هروبك إلى دير بالمطرية للاختباء.

حين ذُكر اسم نواعم مكرم، لمحتُ بومة على كتف ضمضم، وأدركت أبعاد المؤامرة، فبوراك الأرناؤوطي ما ينفك يُراقب خطواتي منذ تولى منصبه، يزرع البصاصين من حولي: بشماف؛ السقا صاحب القِربة المسمومة، نعيمة الشركسية، وبائع حَبّ العزيز الربع بقرش الذي يناديها لتنقل أخباري للسلطان عبد العزيز الأول؛ عدوّي اللدود الذي ينبش تاريخي ليَصنع مني كبشَ فداء وعبرة، يريد أن ينتصر للقواصة الكسالى الناهبين لأقوات الناس، يُريد أن يزيح إسماعين من فوق عرشه، ويعلم تمام العلم، أني الحجر الوحيد الذي يتصدى له، يريد أن ينصر الهجين على العبد لله ليستحوذ على جسدي، ويَستغل سيرة نواعم مكرم القذرة ليُشهّر بسُمعتي.

حين أنهى بوراك لائحة الاتهام، برم شاربه ثم اقترب يفحص وجهي: «نظرتي فيك لم تخبْ يومًا يا سليمان يا سيوفي، أشتمُّ المجرمين من مسافة بلاد، وما منعني عنك إلا قدَر له أسباب، فما أنت إلا ثعبان أفاق، استحللت دم أبيك، ثم أصابك السعار، بات القتل عندك، متعة، حتى سئمت السر، وأردت أن تُعرف، كي يَسمع بجرمك الخلقُ ويذكروك في المجالس الخاصة والعامة، فاخترت الباشوات، اغتلت منهم أربعة دون وجه حق، ونحمد الله أن أدركناك قبل أن تُكمل ما انتويت».

نظرت إلى داغر بك الذي سَكت دهرًا، ثم نطق كُفرًا: «اعترف يا سليمان، اعترف وإلا ستكون موتتك حكاية شعبية تُخيف الأطفال».

وما كان مني إلا أن سحبت البلغم من صدري، وبصقت على وجه بوراك ولم أصبه، فعاجلني ضمضم بصفعة كسرت عنقي، تُوفيت على أثرها وقابلت المَلكين، سُئلت، مَن ربي وما ديني؟ تلعثمت، فأرسلوني للجحيم احتياطيًّا، ثم اقترب أحد الزبانية بجردل ماء آسن، أو لعلّه بول، طسَّ وجهي فاستفقت، في الزنزانة، تحتضنني العروس الحديدية، بصقت ضرسًا من فمي، ثم أخبرت مبتور الورك أني أتعرض لمؤامرة، وأن كل ما قيل تدليس وافتراء، الهدف منه إزاحتي من المشهد، حتى يحفظ القواصة ماء وجوههم، ويُداروا فشلهم في تقصي حقيقة قائمة الاغتيال.

طفح الإحباط في ملامح مبتور الورك، فخرج من الزنزانة ينقر الأرض في غضب، تبعه بوراك الأرناؤوطي بعد أن ابتسم لي، ثم همس في أذن ضمضم بكلمات لم أسمع منها ـ بسبب الزنَّة التي أصابت أذني جراء الصفعة ـ غير كلمة «حتى يعترف»، وما لبث ضمضم أن عاد، كما يعود الدب ليأكل ضحيته بعد تعجيزها، أمال العروس الحديدية حتى بات رأسي للأسفل، التقط العصا وغمدها في مؤخرتي، كسيفٍ يعود إلى جرابه، ثم أغلق الباب خلفه، تاركًا الفئران لتتولى رعايتي.

على مدار يومين بزنزانة القلعة، لم يقصِّر ضمضم في زيارتي والعناية بي، كتّر خيره، يفتح الباب كُل بضع

ساعات ليطمئن على صحتي، يقشر جلد ظهري بكرباجه، ليصنع وجبة دسمة للفئران، قبل أن يُدير سيخ الكفتة، عشر مرات، وعملًا بنصيحة «أسماك بونابرته»: «أظهر الاستمتاع، حتى يزهد فيك»، والإِيد اللّي ما تقدر تقطعها، بُوسها. أغمضت عينيَّ، وكتمت صرخاتي، حتى فقدت القدرة على الصراخ، لم يواسِني سوى تذكري لمُعاناة المسيح على الصليب، يونس بداخل فم الحوت، ويوسف في السجن. سبّحت وصلّيت، حتى عفا الله عني، وكما أرسل إلى قابيل غراب يُعلّمه دفن هابيل، أُرسل لي فأر، زهدَ جلدَ ظهري بأمر من الله، وبدأ في قرض رسغي، قبل أن ينهش الحبل الذي يربطني بالعروس الحديدية، وما هي إلا دقائق وتحررت يدي اليمنى، ففككت اليُسرى، ثم رجليّ بعد معاناة استخراج العصا من مؤخرتي ـ بعد يومين إضافيين لن يكون التعود اختيارًا ـ قبعت في الركن، وانتظرت زيارة ضمضم، حتى رفع الترباس وفتح الباب، وقبل أن يستوعب غيابي، غرست العصا الحديدية التي كانت في مؤخرتي، بعزم ما أوتيت، في مؤخرة رأسه، لم يصرخ، لم يلتفت ولم يسقط، ظل على حاله دقيقة كاملة، والدماء تتدفق من رأسه على الأرض، أصابني بالرعب، ثم سقط بغتة على العروس الحديدية وهربت الفئران من الزنزانة.

اتخذ الأمر لحظات حتى تمالكت نفسي، قبل أن أخرج وأسير في ممر الزنازين، أجرّ العصا التي أخرجتها من مؤخرة رأس ضمضم بعد مؤخرتي، ويبدو أنها لم تُقصِّر في زيارة أي مسجون من قبل، فقد هللوا: «الله أكبر»، حين شاهدوها في يدي، وقد أدركوا أن ضمضم قد نفق، حتى وصلت إلى الباب الأخير، وكانت بانتظاري مفاجأة، ثلاثة حُراس ببنادقهم، ومن ورائهم بوراك الأرناؤوطي وداغر بك، أتوا لزيارتي، تحفّزت، ورفعت العصا مُستميتًا، فإن سمّوك حرامي شَرشَر منجلك، ولكن مبتور الورك استدركني ورفع يده صائحًا: «مهلًا يا سليمان، لقد ظهرت براءتُك».

مرت ساعة أو يزيد، بين إطعام، وتطبيب جروح تركت العلامات في ظهري، رُوحي، ومؤخرتي، ومحاولات غير مُجدية لانتزاع العصا من يدي التي تشنّجت عليها. وما كنت لأفعل، حتى استمعت لما أتى به مبتور الورك: «أمس، اختفى نسيم باشا من غرفة نومه، رغم وجود الخدم والجواري وأنجاله، وجدنا فوق سريره تمثالَ الأسد المحفور بكلمة «المشاعلي»، ورسالة»، أخرجها داغر من جيبه، ووضعها بين يديَّ: «سليمان السيوفي بريء، وسيجد الباشا في ٦٢/ ٥». قرأت الرسالة مرتين، ورميت بوراك الأرناؤوطي بكل آيات الاحتقار والوعيد، ثم طلبت مُصحفًا، فتحته على سورة الجمعة، رقم اثنتين وستين في ترتيب السور، الآية الخامسة تقول: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، سألت عن اليوم ـ لأني فقدت الإحساس بالوقت في معيّة ضمضم ـ ولما علَمت أننا في الجمعة المباركة، طلبت أن نتحرك سريعًا.

حُملت أيها الحكيم رغم آلامي، فوُضعت فوق طست فارغة بداخل عربة داغر بك، وتحركت بنا الخيل من القلعة إلى «سوق الجمعة» جوار مسجد السيدة عائشة، خُضنا في زحام الجلابة واليسرجية، يعرضون بضاعتهم من العبيد والجواري، ويتنافسون بلون الجلد وقوة الفكوك والعضلات، عرض وطلب، فيما تابعتْ عيناي الأرقام المعلقة فوق السرادق، ولولا القواصة الذين يشقون الطريق، ما وصلنا إلى سرادق رقم اثنين وستين. الأقمشة كانت مُسدلة على المدخل، ومثبتة بحِبال غليظة، دارت بإحكام حول العوارض الخشبية. نظر لي داغر بك، يسألني النصح، فهززت رأسي تأكيدًا أن تقدّم ولا تقلق، وما هي إلا دقائق وقطع القواصة الحِبال بسكاكينهم، وأماطوا اللثام عن المشهد الأليم. حِمار نافق، مُستلقٍ على ظهره، مُعلق، على ارتفاع ست أقدام من الأرض، قوائمه الأربع، مربوطة في عوارض السرادق الأربع، ومن منتصف كرشه المنتفخة، برز رأس نسيم باشا، مُعلق فيه كيس صغير علمت ما فيه قبل أن أفتحه.

خلال دقائق، انقلب سوق الجمعة رأسًا على عقب، انتهى البيع والشراء وسط استنكار الجلابة واليسرجية، حُملت الجواري على العربات، وسار العبيد بجانبهن، صنع القواصة دائرة من الحبال حول السرادق رقم اثنين وستين، وشدوا زناد البنادق تحطيمًا لفضول الناس، أسدلت القماش، وأرسلت في طلب شكيب عبد الصمد، انتزعوه من المشرحة، دخل يترجرج، تأسّى لحالي كخنزير أصيل، قبل أن يفتح حقيبته ويُخرج مُعدات التشريح. طلبت خروج الجميع فانصاعوا، ثم أشرت لبوراك باحتقار: «أنت أيضًا.. اخرج»، فنفّذ على مضض، واستبقيت مبتور الورك ليكون شاهدًا على فحص الجثمان، وكذلك ليتقيأ ويشمئز ويتزحلق في الدماء ويقع لتنكسر ساقه السليمة، جزاءً بسيطًا لما لحق بي في عهد ضمضم.

قصَّ شكيب الحبال الأربعة، فنزل الحِمار النافق على الأرض، وضعت منديلًا على أنفي وفمي تخفيفًا للرائحة، واقتربت بالعدسة المُكبرة لأفحص رأس الباشا، الكيس المربوط حول رقبته كان يحوي العُملة الذهبية فئة العشرة قروش، تأملت الغُرز العريضة التي خاطتها إبرة خيام، تبدأ من أسفل رقبة الحمار، وتنتهي عند الذيل، رأس الباشا لم يكن مقطوعًا ومثبتًا على بطن الحمار، فجسد نسيم باشا، كاملًا، كان يرقد بداخل الحمار.

الولادة كانت أعجب ما رأيت في حياتي، حِمار ميِّت، يَرقد على جانبه، ومن بطنه يطل رأس بشري لجنين

تخطى العقد السابع. اقترب شكيب، وبمقص دار سرقتُه يومًا من خيَّاط، قص الغَرز، وقبل أن ينتهي، اندفع جسد نسيم باشا من بطن الحمار عاريًا لزجًا، مُغطى بالدم كما ينبغي للجنين أن يكون، ليستقر على أرض السرادق دون حركة. اقتربت منه، خبطته على طيزه فلم يبكِ، كبّرت في أذن، وأقمت الصلاة في الأخرى، ولم يستجب، فحمله شكيب ووضعه على طاولة خشبية، وبعد فحص مبدئي مِلت على أذنه وهمست: «نسيم باشا، اسم جميل مُنعش، رغم عُسر الولادة، وطبيعة الست الوالدة التي لا يشفع لها إلا فائدة لبن الحمير. وها هي ذه الأخبار التي لن تقرأها في الوقائع المصرية، لخَّصتها من أجلك: لقد تم قتلك في سرايتك، فلم يكن الهجين ليصحبك معه مُخدرًا أو مستيقظًا تحت تهديد سلاح، ففي الأولى احتمالية استفاقة، وفي الثانية فضيحة لم يكن الهجين ليُجازف بها. ونظرًا لعلامة الضغط التي تحيط رقبتك، جحوظ عينيك ـ الذي يليق بك بالمناسبة ـ وخروج لسانك من فمك، بالإضافة للترسيب الأزرق الداكن في ظهرك، ذلك كله يشير إلى خنق مستمر بحبل غليظ، حتى الموت، مع الضغط بالركبة على وجهك، حتى تفجَّر نزيف دموي في شعيرات عينيك، من الحزق، ولن أنسى أن أَشِيد بمقاومتك، فأسفل أظافرك آثار خربشة لجلد القاتل.

أما ظهرك، فتمّ كسر فقراته بمطرقة، ضربة لم تترك أثرًا حيويًّا على الجلد ـ حدثت بعد الوفاة بزمن ـ حتى يسهل ثنيك مثل الجواب ويتم دسّك في بطن الحمار بيُسر ـ بعد إفراغ أحشائه ـ لأن جثمانك كان في مرحلة التصلب الرميِّ، تيبس تدريجي يبدأ من الرقبة والصدر، البطن، وينتهي بالرجلين، على مدار اثنتي عشرة ساعة تحولت إلى لوح خشبي، أي شخص مكان القاتل كان ليكسر ظهرك فلا تلُمه. بعد أن اضطجعت بين ضلوع الحمار، خيّط البطن من الخارج، مُبقيًا رأسك ليستنشق الهواء أو يطلب نارجيلة، وليصنع بك لوحة لن ينساها داغر بك، صديقك الذي اشمأز وتقيأ وكاد يتزحلق في الدماء. نسيم باشا، احرص أن تتلقى حمّامك لتتخلص من أثر الولادة، واحرص ألا يلمحك صائدو العجائب؛ فهم لن يتركوا «ابن الحمارة»، كائن نادر مكانُه في فتارين المتاحف العلمية.

حين انتهيت من الفحص، أخبرت مبتور الورك ـ شاحب الوجه النادم على اتهامي ظلمًا ـ أن القاتل تسلل حين انسحبت الحراسة عن السراية، مستغلًّا القبض على الفاعل، الذي هو أنا. اختبأ في غرفة النوم، خلف ستائر أو أثاث، انتظر انفراده بالباشا السمين المطمئن، قبل أن يهاجمه من الخلف، ألقى بحبل غليظ في سُمك حبال الشنق حول رقبته، وأسقطه كالذبيحة أرضًا، ضغط على الوجه برُكبته حتى صعد السر الإلهي، وفي الأغلب ولما انتهى، فتح النافذة وألقى بالجسد منها، ليهبط على الأرض، ففي ضلوع نسيم باشا اليُمنى كسور مُتعددة، تُشير لسقوط من مكان عالٍ، سحبه إلى مخبأ أو سلخانة، وكان الحمار النافق في الانتظار، فرغت أحشاءه استعدادًا لاستقبال الباشا، تم الحشو، وأُغلق بطن الحمار بإبرة غليظة، ثم عُلّق في الرقبة كيسٌ يحوي العملة الذهبية فئة العشرة قروش.

حين انتهت جلسة الحمار، تم لف جثمان نسيم باشا بالقماش، ووضع في تابوت مُغلق بالمسامير، تمهيدًا لإرساله إلى أهله كي يدفنوه، أو ربما يحشون به حيوانًا آخر، وليتبقى بيني وبين الموت اسم واحد؛ رشيد باشا لاظوغلي. حقيقة أيها الحكيم، لقد تمنيت أن يأتي الهجين إلى السرادق وليتلبسني أو يقتلني، حتى يعفيني من الألم الذي انتاب جسدي، لم أعد أقوى على اللهاث وراءه، لم أعد أقوى على المواجهة، لم أعد أقوى حتى على المشي برجلين مضمومتين من بعد ضمضم، حتى الأفاعي السوداء في جسدي، نفقت، وطفت جِيفها في دمائي.

حين ساد السكون، انفضّ الزحام ورحل القواصة، لم يبقَ إلا العبد لله وداغر بك الذي قدم اعتذارًا عما حدث في غرفة الفئران بسجن القلعة، وناولني كيس جُنيهات أعلم جيدًا أنه كفيل بنقلي إلى عالم الأثرياء. أمسكت بالكيس، وزنتُه في راحتي، ثم ألقيته على الأرض بغضب، قبل أن أصرخ في داغر بعلو ما أوتيت: «كرامة سليمان جابر السيوفي لا تساوي كيسًا يا داغر بك»، ولأول مرة أشعر بالرعشة في صوته، اقترب بتردد، ربت على كتفي، ووعدني بنوال الأجر الذي يُرضيني فَورَما يتم القبض على القاتل، فتلك القضية هي شغل أفندينا الشاغل، وسأُشمل بالرعاية والعطف للبقية الباقية من حياتي، أنا وأولادي من بعدي. بدى العرض مُغريًا، لكنني استمسكت بالغضب في ملامحي، وطلبت إبعاد بوراك الأرناؤوطي عن طريقي، حتى أتفرغ لمتابعة التحقيق في المسألة، فوافق دون نِقاش. ثم طلبت أن تُشدد الحراسة على الضحية السادسة، فأخبرني أنه بمجرد اختفاء نسيم باشا، سارع في جلب رشيد باشا لاظ أوغلي، وأودعه صالونًا مغلقًا، مُحاطًا بالحرس، في يخت أفندينا ذات نفسه، وذلك كان اقتراحه. وحين التقط الكيس من الأرض، وشرع في وضعه في حقيبته، أمسكت بيده: «سأقبل ذلك الكيس اليوم فقط؛ لأنك رجل شريف، وإلا أكل التمساح ساقك الأخرى». ابتسم مبتور الورك، قبل أن يأمر حرسه بتوصيلي إلى اللوكاندة.

في اللوكاندة، كانت بانتظاري فاجعة أسوأ من فاجِعة مؤخرتي، يا أيها الإنسان، كم أنت هيّن وهشّ وهزيل! تمشي على الأرض فتتعثر في أحجار الخبث والخيانة والمُعاناة، ثم تنهال عليك الكلاب والقرود والضباع لتنهش ما تبقى من سيرتك العطرة، وتمحو بدونيتها ونجاستها حياة ذكية، بذلت فيها كل التضحيات كي ترتفع إلى سماء المجد، وتتعطر بعطر الخالدين ممن قدموا للإنسانية خدمات جليلة، وسطّروا أسماءهم بحروف من ياقوت ومرجان في سجل التاريخ، وأصبحوا نبراسًا تتحاكى بهم الأمم، حقًّا، ما يبكي على الميّت إلا كفنه، والحمد لله أنني.. أنا.

لقد تحققت أسوأ كوابيسي؛ فخلال يومين، أفرغ ابن الرفضي بشماف غرفتي من العفش الذي قضيت سنينًا في شرائه، علاوة على تجميعه ورصّه، ولم تكن تلك هي الكارثة، فقد كدَّس كل أغراضي، في مَنْور اللوكاندة، المَنْور الذي يمر به القمر هلالًا، ويعود بدرًا، ليُفسد بأشعّته القاتلة تركيب كل الأشياء، بل لم تكن تلك هي الكارثة، أين قشطة؟ وأين عنتر؟ قفزت فوق مكتبه العفن رغم سوء حالة مؤخرتي، أمسكت بتلابيبه ونتفت شوشته ولحيته، وصرخت فيه علانية: «يا بصَّاص العثمانلية، يا سليل العقارب يا خائن»، قبل أن يتدخل الناس بيننا ليُخلصوه. فطلبت أن يحملوني إلى غرفتي، دخلت كثُور أشعل الأطفال ذيله بالنفط، فوجدت باب غرفة عنتر مفتوحًا، الجنزير مفكوك والغرفة خالية، لطمت على خدود بشماف: أين عنتر؟ لم يفهمني، أين قشطة؟ فأفاد بأنها لم تكن بالغرفة حين شرع في تفريغها، أين اللبلاب؟ وما وراء اللبلاب؟ أين منظار القمر؟ أين الكاميرا؟ أين يومياتي يا ابن القحبة؟ وناولته اللكمات في كرشه ورقبته حتى كاد يتقيأ، ثم أقسمت إني سأسمل عينيه وأجدع أنفه وأحرق اللوكاندة بعد أن أشق مصارينه وأجُره منها في الحواري والأزِقة؛ إن لم ترجع أغراضي للغرفة. فتحجج المأبون بالإيجار المتأخر، وما كان مني إلا أن أخرجت الكيس الذي أعطانيه مبتور الورك، وأمام زبائن اللوكاندة، سكبت الجنيهات فوق رأسه، نخَّ وتخاذل، ككل جاموس واجهتْ أسدًا، فأمر الخادم بفتح المَنْور وحمل أغراضي للغرفة ثانية.

أيها العُصاة الخسيسون، أنتم كتنابلة السلطان، لا تقومون من الشمس للظِّل إلا بعلقة ساخنة على

مؤخرتكم، وها هو ذا صاحب العصا قد أتى.

رغم الألم الكامن، لم أغادر اللوكاندة إلا بعد التحقق من سلامة ما تبقى من أغراضي، فالقواصة عادوا بعد خطفي وفتشوا الغرفة، ولم ينسوا الاحتفاظ بما طاب لهم، ولله الحمد، هو قليل: أخذوا الكاميرا، والجنيهات، والملابس. غيرت الكالون والأقفال، دهنت المرهم على جلدي، وغمرتُ مؤخرتي بزيت الزيتون، وفي خروجي لم أنسَ رمي بصَّاص العثمانلية الحقير بنظرة ملؤها الحديد والنار، قبل أن أهيم في الشوارع بحثًا عن أثر لقشطة أو عنتر، سألت أصحاب الدكاكين المجاورة، لم يلاحظهما أحد، فاستأجرتُ حمارًا حجازيًّا مؤخرته عريضة، ووضعت فوق السرج مخدة من الريش، ثم اتخذت الطريق الصاعد حتى وصلت قرقول الرميلة، فرزت سجل المحابيس، وكان خاليًا من أي ذِكر لهما، فعرجت على قرافة الإمام، حيث توقعت أن يستقر عنتر بحوش السيوفي الذي أوصيته بدفني فيه، لكن الحوش كان مَهجورًا. مررت بقرافة المماليك، سجن الحوض المرصود، مسجد السيدة زينب، شارع الخليج المصري، ثم أضاءت الفكرة، فلويت لجام الحمار ورجعت إلى طولون، وقرعت باب تكية الدراويش المكفوفين، الله الله.. الله الله.. الله الله.. حيّ... الذِّكر كان غمغمة مسموعة، ورائحة البخور تسربت من عقب الباب. بعد قرن، فتح درويش كفيف يرتدي جلبابًا أخضر: «مَن الطارق؟»، أخبرته بأني عابر سبيل، أبحث عن رجل يُدعى عنتر، غمغم قليلًا ثم قال: «يا رسول الله مَدد، أنت تقصد شيخنا «المحروق» أبو ست رجلين!»، اتخذ الأمر مني لحظات حتى أستوعب ما قال، ثم أجبته بنعم، عرف اسمي فغاب لقرن آخر، ثم عاد وبيده جردل صغير، طلب مني خلع حذائي والوضوء بالماء والليمون، وقاية من وباء الكوليرا، قبل أن يناولني قبقابًا خشبيًّا. سِرت وراءه في الممرات، دون أن يتعثر أو يتحسس الجدران من حوله، حتى بلغنا صحن التكية، الدراويش المكفوفون في ملابس خضراء فضفاضة، على رءوسهم اللبادات الطويلة، يرفعون أيديهم، ويَدورون بنعومة، كدوامات النيل، دون أن يصطدموا: «يا إمام الرسل يا سندي، أنت باب الله معتمدي، وبدُنيايا وآخرتي، يا إمام الرسل خُذ بيدي»، تأملتهم في خشوع، قبل أن ألحظ الشيخ المُلثّم الجالس في المقصورة في جلباب أزرق، أشار نحوي بيد مربوطة بالشاش، فاتخذت طريقي بين الدراويش، مُتحاشيًا الاصطدام بأيديهم، صعدت السلالم فجلست بجانبه، وحين أردت أن أتكلم رفع إحدى يديه ناهيًا، فالتزمت الصمت، حتى انتهى الدراويش من رقصهم وجلسوا على الأرض في خشوع. «كيف وصلت إلى هنا؟»، ارتشف القهوة من فنجان بجانبه وصب لي فنجانًا محوجًا من كنكة ساخنة، ثم أخبرني بعد صمت: «مِن بعد اقتحام القواصة للوكاندة، تنبأت بمداهمتهم الغرفة وتفتيش كل شِبر فيها، حاولت كسر الجنزير ولم أستطع، حتى اقتحمت قشطة الغرفة، كانت مختبئة وراء الستائر إلى أن اطمأنت بذهاب القواصة، ففكّت الجنازير عن ساقي، وضعت عليّ الجلباب، ثم علّقت الكاميرا على ظهرها ولم تنسَ أخذ صورة أختها من فوق الحائط، وبدلًا من الهروب لأسفل اللوكاندة، صعدنا إلى السطح. حسَّتني قشطة أن أحاول الطيران ولم تتحمل أجنحتي، أخبرتها أني قد كبرت على تلك العادة، وأن الروماتيزم تمكن من مفاصلي منذ زمن، لم تيأس، أمسكتْ بأجنحتي ففردَتها وحرَّكتها، ولم أنجح سوى في الارتفاع شِبرًا عن الأرض، قبل أن أسقط على ساقي. فاقترحت أن نَعبُر إلى الأسطح المجاورة، ثم نزلنا من سلالم بِناية، تبعد عن اللوكاندة مسافة كافية لتخفينا عن أعين القواصة وأصحاب الدكاكين. سِرت مع أميرة الليل، متدثرَيْن بالليل، وجهتُنا حوش السيوفي بقرافة الإمام، حيث قررنا المكوث حتى تعود»، قاطعته: «أكنت تعلم أني عائد؟»، أجابني: «لم يكن لديّ أدنى شك، فأجلُك لم يَحِن بعد»، ثم رفع صوته ليُسمع الدراويش المكفوفين: «هلمو يا مجانين الله، قوموا فارتقوا، حيّ». قام الدراويش

المكفوفون وتراصوا دون عناء، ثم بدءوا الدوران ثانية، فأكمل عنتر قصته: «حين وصلتُ وقشطة إلى قرافة الإمام، وتوغلنا بين شوارع الموتى بحثًا عن الحوش، شعرت بخطوات تتبعنا من بعيد، ثم فوجئت بعدوّك وعدوّي، هجين قمري، يقف بوسط الطريق، وفي يده مصباح. خافتْ قشطة، وتوارت خلفي، فاقترب، بأعين تحمل كل أحزان البشر، حاولت إقناعه، بأن ريّ الدم لن يُخرج إلا زرع الدم، وأن تحطيمك لصنم ما، تشييد لصنم أعظم، فاستخرج من جيبه سيفًا، وأبلغني رسالة من أجلك: «جاريتك السوداء في حوزتي، ساعدني في الانتهاء من قائمتي، بالابتعاد عن مُراقبتي والكف عن تعقّب خطواتي، وتذكر يا سليمان؛ لقد أنقذتك مرة، ولن أنقذك ثانية»، قالها ثم انقضّ على قشطة، قاومَته مثل لبؤة سوداء، تدخلتُ بعزم ما أوتيت، حتى كِدت أمزّق الجلباب وأطير، لكنه ضرب رأسي ببطن سيفه فاصطدمت بشجرة، وتكومت في ألم، قبل أن يتمكن منها ويلكمها بعنف لتفقد وعيها، حملها فوق كتفه مثل الذبيحة ثم رحل»، وتوقف عنتر عن الكلام حين رأى الحزن يكسو ملامحي، فنادى لدرويش عجوز يقف بالركن: «آتني بالصندوق يا مصطفى»، فتحرك الرجل دون أن يتحسس خطواته، غاب لحظات ثم عاد بالكاميرا، ولما استقرت أمامي ربت على كتفي: «تلك هي اللحظة الحاسمة يا سليمان، عليك أن تختار مصيرك، واعلم، نوح عليه السلام لم ينتصر على شيطانه، إلا بعد ركوب الفُلك، ونسيان الابن الذي هزمته أمواج الطوفان»، سألته ما يعني، فأجاب: «قشطة، حبلى منك، في ذَكر»، ألقاها ثم صاح في دوّامات الراقصين: «حيّ»، فارتفعت الأيدي عاليًا وصاح المنشدون: «يا إمام الرسل يا سندي، أنت باب الله معتمدي، وبدُنيايا وآخرتي، يا إمام الرسل خُذ بيدي».

خرجت من تكية المكفوفين، كفيفًا أتخبط، أحمل بين ضلوعي أفاعي سوداء صغيرة تقود ثورة، ترفع النبابيت والعصي بذيولها، لتُحطم أعضائي وتُشعل النار في رئتيَّ وقلبي، فالهجين، اختطف قشطة؛ قمري الأسود، بُقعة الحبر الوحيدة في ورقتي البيضاء، بعد أن بذرت في أحشائها نبتتي، فمِن بعد عزيزة التي خانت العهد، فقدتُ الرجاء في ولي عهد يرث سليمان جابر السيوفي، والآن يأتي الهجين ليقضي على آخر أمل، ويضعني في اختيار يُشبه حلم إبراهيم بذبح ابنه الوحيد، فإما أن أُمكّن الهجين من آخر أُضحيّاته بالكف عن تعقبه والتخلي عن القضية، ولينتهي الأمر بقتلي بعد انتصاره على ضحايا القائمة، أو أكشف غطاءه، وأفضح اسم الضحية السابعة، فيرسل قشطتي بسليمان الصغير إلى القبر، قطار بلا سائق ومكابح بلا كابح. إما القفز فأتحطم، وإما البقاء فأتحطم.

ولما كان لزامًا عليّ التدبير الحكيم ونبذ اليأس، ولأني لم أعد أملك شيئًا أخسره، فقد صلّيت ركعتين، ورسمت الصليب على رأسي وصدري، ثم دهنت المرهم على جلدي وعلّقت الكاميرا على ظهري، وطلبت من داغر بك زرعي في يخت أفندينا، كي أستجوب الضحية السادسة، رشيد باشا لاظ أوغلي، لعلّي أستكشف بين كلماته سرًّا يقودنا لوقف نزيف الدم. وافق بعد تفكير، ثم أرسلني في مركب خشبي مُغمض العينين، أبحر من مرسَى بولاق الدكرور إلى جهة غير معلومة، يقف فيها يخت أفندينا، حرصًا منه على سِرية المخبأ في حالة خطفي واستجوابي.

ونسيت تمامًا، أنني أعاني من دوار البحر.

حين وصلت، حُملت من المركب مثل القفة، ووُضِعت على ظهر اليخت المفخَّم، قاومت الدوار قدر المستطاع، ثم سمعت صوت بوراك الأرناؤوطي، يأمر الجند بإدخالي إلى الباشا، قبل أن يهمس في أذني: «لا

تُثِر غضب رشيد باشا؛ فهو مُسلَح»، تجاهلته بشموخ، حتى رُفع الغطاء عن عينيَّ في صالون فخم يليق بأفندينا: لوحات المستشرقين، شمعدانات مُذهبة، تمثال نصفيّ لمحمد علي باشا وإسماعين باشا، أثاث طراز لويز السادس عشر، وشبابيك منحوتة ومغلقة بإحكام، الحرس الكثيف خلف الباب، خطوات بوراك الأرناؤوطي تتمشي فوقنا، وتتنصت، وعلى الكنبة، في نهاية الصالون المُظلم، جلس رشيد باشا لاظ أوغلي يُدخن.

رغم الثراء، ورغم العيشة الرغدة التي وُلِد فيها ذلك الباشا دونًا عن بقية الباشوات، فالملامح والكتفان كانت تحمل جبالًا من اليأس والخوف، فهو سادس المُبشّرين بالجحيم، عَلِم بخبر نسيم باشا «خِلفة الحمار» ومَن قبله، شركاء الكوبانية الملعونة، عبَدة الأسد، الصنم الذي جر عليهم القتل والتنكيل، علمَ أيضًا أن لا شيء يُوقف ذلك الوحش، فقواصة المحروسة، وداغر بك من ورائهم، وأفندينا إسماعين، والعبد لله ذات نفسه، لم يستطيعوا كبح جِماح ذلك الهجين.

ابن لاظ أوغلي كان يرتدي قميصًا من الحرير الأخضر، تحته سِروال أسود، يحزِّمه زنار عريض فيه غدارة ذهبية وسَيف منقوش ـ ولو استطاع لوضع على حجره بندقية جاتلينج سريعة الطلقات ـ فوق ذلك كله جبّة مشغولة بخيوط الذهب، لم أجتهد لأعلم أن تلك الملابس كانت لوالده الكتخدا المُرعب لاظ أوغلي، الصديق الأقرب ورفيق كفاح الباشا محمد علي.

قمت، حاولت حفظ الاتزان، ثم ألقيت سلامًا لم يرده، فسَحبت كُرسيًّا، واقتربت منه، رمقني بتحفز، واستمسك بمقبض الغدارة الذهبية المحشورة في زناره، رفعت يديَّ في استسلام، ثم أخبرته بأني مُكلّف من داغر بك بالتحقيق في الوقائع الجارية والتحدث معه للتوصل إلى القاتل. أبدى فتورًا، وحين اقتربت شِبرًا إضافيًّا شممتُ رائحة النبيذ فأدركت أن الكحول قد سبقني وولج عقله، جلست، فسحب من الشُّبك نفَسًا فيه عبق الأفيون، ورماني بنظرة حادة: «لا تبدو قواصًا»، كانت تلك بداية جيدة. «هذا صحيح، فلستُ بقواص، أنا مُصور، ولم آتِ هنا إلا من أجل التقاط صورة بالكاميرا، لابن رجل يُعدّه التاريخ أسطورة مشت على تلك الأرض يومًا، ساكن الجنان، محمد باشا لاظ أوغلي، اسمح لي أن أسأل، تلك كانت ملابسه؟»، رمى رشيد باشا رأسه إلى الوراء، لحظات طالت، ثم فرك عينيه وأجابني: «نعم»، طلبت منه التقاط صورة تذكارية، لم يُبدِ رفضًا أو موافقة، نصبت الكاميرا ووضعت لوح الزجاج الخلفي، وضغطت الزناد مع تزامن احتراق لمبة مغنسيوم، تفاجأ الباشا بالضوء المبهر فرفع الغدارة في وجهي وشد الزناد، فأخبرته أن ذلك ضوء للتصوير حتى هدأ، وما هي لحظات حتى استدرجته فبدأ يحكي، وقد أيده في ذلك القرار الأفيون والنبيذ.

«أبي، كان صديق طفولة محمد علي الباشا، وُلدا في نفس الشهر من عام ١٧٦٩، كانا إخوة رضاعة، التحقا بالجُندية في تركيا قبل أن يُسافرا معًا إلى مصر سنة ١٨٠١، للإشراف على خروج الحملة الفرنسية. وما لبث محمد علي باشا بدعم من أبي أن سَلك طريقه وسط الفوضى التي تلت خروج الفرنسيس وتخبُّط مشايخ المصريين، ليتولى الباشا عرش البلاد سنة ١٨٠٥، ويصبح أبي، ذراعه اليمنى، ناظر ماليته، الكتخدا، ورئيس الدواوين. لم تكن نملة لتمر أسفل العرش، دون علم لاظ أوغلي باشا، كان يكلف البصاصين بالتنكر ليجوبوا المقاهي والسكك ويتنصتوا على البيوت لمعرفة أخبار الناس، يملئون رسائلهم بالأسرار، ويُودِعونها في بيت حُرمة تُدعى «حُسنة العِتر» تسكن في السيدة زينب، لتوصلها بدورها عبر مرسال خصوصي إلي أبي

في كل يوم اثنين.

في كل حي، من المحروسة وحتى الأستانة، كان هناك «حُسنة العِتر».

تجرع من النبيذ كأسًا وناولني أخرى، وقد انفتحت شهيته على سَرد الأمجاد، نفخ الأنفاس إلى السقف وأردف: «لا أذكر أن هناك وفاءً بين رجال القلعة، مثل الذي كان بين أبي ومحمد علي باشا، واجها المصاعب والأهوال حتى استقر بهم الحال، ولم يعد هناك غير شوكة وحيدة، بحجم حوت أحدب، تغز ظهر العرش، وتؤرق أبي: المماليك. فبحلول عام ١٨١١ كان الرعاع قد بلغوا من الغرور والتمرد مبلغًا عظيمًا، فإما استعادة المجد البائد قبل دخول الفرنسيس، وإما إحداث الفوضى الشاملة وتقسيم البلاد مديريات منفصلة، وقد حاولوا أكثر من مرة اغتيال الباشا، في طريق السويس، وأمام باب القلعة، وكذلك تعرض أبي لمحاولة اغتيال كادت تُودي بحياته في الإسكندرية. لم تنفع معهم محاولات الصلح والإرضاء، وحتى حين عرض أبي على زعيمهم حُكم الوجه القبلي مقابل المال، واشترط عليه عدم التحالف مع الإنجليز المتربصين. تخاذل وتمايع، كر وفر، عنتريات وكسكسة، المهم، الأغبياء، لَم يدركوا أن الزمن لم يعد زمنهم، أجبروا أبي أن يُدبّر خطة، جهنمية، سِرية، لا يعلمها إلا أصابع اليد الواحدة».

فجأة قام رشيد باشا فاعتلى الكنبة بغتة ورفع يده بحماس مُبالغ فيه: «ندعوكم، سادة المماليك، لحفل بمناسبة تولي أحمد باشا طوسون بن محمد علي باشا قيادة الجيش الخارج إلى الحجاز للقضاء على الوهابيين. يا لها من فكرة عبقرية!».

قالها ثم قفز من فوق الكنبة وكاد يقع، تماسك ثم أشار لثيابه: «أذكر يومها، كان أبي يرتدي تلك الملابس، ويضع نفس ذلك السيف، وتلك الغدارة، محشوة بالبارود، كان عمري عشرين عامًا، أمرني أن أصحبه، وأن ألتزم بكل ما يقول بالحرف الواحد. اتخذنا طريقنا إلى قاعة العرش، وقفنا بالباب واستقبلنا المماليك مع الباشا الكبير، شربنا القهوة، تبادلنا الأحاديث التافهة وضحكنا، ثم تقرر الرحيل، ودّعنا طوسون باشا، والمماليك، واتخذ الجيش أهبة الاستعداد، تحرك منحدرًا تجاه باب العزب، يتبعه أربعمائة وسبعون من خيرة رؤساء المماليك، في أبهى حلل فوق أثمن السروج، يليهم الوجاقلية والألدشات، والجند الأرناؤوط، بقيادة «صالح قوش». أمرني أبي أن أدخل الشرفة، فدلفت على استحياء، الباشا الكبير كان ممتقع الوجه يُدخن في عصبية وبجانبه أبي، يتأملان المشهد المهيب، خرج آخر جندي بالجيش إلى ميدان الرميلة، وإذا بباب العزب يرتج ثم يُغلق من الخارج، بأمر من إبراهيم أغا، وما كنت لأنسى الصيحة، خرجت من فم صالح قوش، فارتج المكان بوقع شد زناد البنادق، ثم بدأ الضرب من قوات الأرناؤوط بالقِرَب والبنادق، تجاه المماليك، حتى ظن أكثرهم أن تلك هي الساعة، صراخ وعويل، سقوط من فوق الخيول، الفراوي والثياب الفخمة الثقيلة تُعيقهم. تناثرت الدماء، وتفجرت الرءوس، الاستعطاف فات أوانه، ومحاولات تسلق الصخور هربًا انتهت بالفشل، وجز العنق حتى لمَن استغاث بالحريم. لم يتحرك الصديقان، راقبا ما يحدث بأعين جاحظة، وإذا بأبي يخرج ويأمرني ألا أتبعه، تابعت القتل ساعة كاملة دون أن أنبس بكلمة، بجانب الباشا الكبير الذي تابع باهتمام، قبل أن يظهر أبي، وسط الجند الأرناؤوط، يأتون له بالمماليك الذين نجحوا في تسلق الصخور، مُساقين كالخِراف يوم العيد، فيفصل أبي رءوسهم بضربة سيف واحدة ـ كان عفيًّا رحمه الله ـ ثم يُلقي المشاعلية بالرءوس إلي حوش الديوان، لتتراصّ بعد ذلك في هرم، يشهد على أسطورة لاظ أوغلي باشا، اسم مهيب، لا يذكره الناس في غُرف نومهم إلا همسًا. والآن يأتي مَن يهدد ابنه!». قالها بأسى، ثم أطاح بزجاجة

النبيذ إلى الحائط فتكسرت: «وماذا حدث بعد المذبحة؟ هل تظنه انتقامًا من أحد أبناء المماليك؟»، ضحك بثمالة: «يا غبي، لقد أبَدناهم عن بَكرة أبيهم، وسحقنا أبناءهم، وطاردنا فلولهم حتى الحبشة، وقطعنا لسان كل مَن سولت لهم أنفسهم ذِكرهم. المماليك، جنس مُنقرض، لا وجود له». «وماذا بشأن الكوبانية؟ هل هي أموال المماليك؟»، ضحك ثم سكت بغتة، وتحجرت عيناه: «أموال المماليك صُودرت لخزانة الباشا، أما الكوبانية، فقد رُويت بذرتها بدماء ملعونة.. دماء رجل عارضنا يوم المذبحة». كان ذلك حين سمعنا على سطح اليخت وَقْع سُقوط، وزن جَسد رجل، وبندقية، تدحرجت حتى سقطت في الماء، تبعه إطلاق نار مُكثف، في كل اتجاه، صرخات مبتورة من حلوق تُذبح، ارتعد رشيد باشا ورفع سيفه، وما كان مني إلا أن جاهدت في حمل شمعدان ولم أستطع، فألقى رشيد باشا لي بخنجر صغير، ثم ساد السكون بغتة، وتحفّزت الأعين، أشرت إليه ألا يُحدث صوتًا، فبدأ في إطلاق البارود والسباب على السطح في نوبة هلع: «أيها الخنزير، واجِهني رجلًا لرجل»، لحظات وانفتح كالون الباب، توارب في ترقب، فانهال عليه ابن لاظ أوغلي بالبارود، حتى سقط الجسد على العتب، اقتربنا في حِرص، وفي ضوء القمر، شاهدنا بوراك الأرناؤوطي، مطعونًا في رقبته، وقبل أن تصدر عنا ردة فعل، سمعنا من خلفنا، من جهة الشبّاك الذي انفتح فكشف النيل، صوت خطوات سريعة، تركض نحونا، وفجأة، سقطت الغدارة من يد الباشا، بذراع الباشا من بعد الكوع، على الأرض. فتح فمه بصرخة لم تخرج من شدة الألم، وتراجعت حتى تعثرت في المنضدة فوقعت، وحين تمالكت نفسي، واعتدلت، شاهدت الهجين يجثم على صدر الباشا، جرّده من سيفه، كتم صريخه بقماشة حشرها في فمه، ثم جرّه من رقبته وخرج من الباب في هدوء، بعد أن رمقني بحدّة: «لا تتحرك». قبعت، ولو استطعت أن أدخل في جلدي مثل الشراب المقلوب لفعلت. مرت الدقائق، كأنها سنين، كسرت ضرسًا، وتصبب العرق على الأرض، ثم تعالت صرخات الباشا. حشرجة، عويل طويل، فنادتني نفسي، أنِ اقفز في النيل يا سليمان، جرّب حظك مع نور القمر والتماسيح، فهي على الأقل أوسع رحمة من الهجين. زحفت حتى الشبّاك المفتوح، وقبل أن أقفز، إذا بالهجين ينقض من ورائي، سَحَب سَاقي حتى كاد يخلعها، ألقاني على وجهي، وأطاح بالخنجر الذي أقبض عليه بين أصابعي: «إن كنت ستقتلني فلا تُعذبني، اجعل موتي سريعًا كالبرق، فأنا أعلم كل شيء عنك، أعلم أنك من أحفاد المماليك، وأعلم أنك تنتقم لأب أو جد قُطعت رأساهما يوم المذبحة الكبرى»، مَسح الهجين دماء الباشا من فوق سيفه، ثم جلس القرفصاء على بُعد شبر مني وعقّب: «أو لعلها أُم».

لم أستوعب ما يعني؛ فالمماليك لم يكن بينهم حُرمة حين قُتلوا يوم المذبحة! التقط الهجين ذراع الباشا المقطوعة، تأملها، ثم أخرج العُملة الذهبية من جيبه، دسَّها بين الأصابع الباردة وأغلقها، بقشيش مُتواضع لابن لاظ أوغلي باشا، ثم وضع الذراع في حجري وهمس: «مَن الذي ادَّعى أني من المماليك الأوساخ؟»، سَاد صمت طويل، فيضان في نهر الغباء، وتوقف عقلي عن التنفس، قبل أن يعقّب: «جاريتك السوداء في قارب على الضفة الأخرى، مربوطة بالحِبال، وحيّة، كانت نِعم طُعم اضطرك إلى زيارة الضحية السادسة التي لم أكن أعلم مكانها». وقبل أن يختفي، ضغطتُ زر التصوير، فاشتعلت لمبة المغنسيوم، برق بعينيه في غضب، ثم تبخر مثل دخان في مهب الرياح. نظرت للذراع، فتقيأت، وضعتها بجانبي ثم قمت، أو هكذا ظننت، ضربني الدوار فترنحت، جلست، ثم زحفت، فوق جسد بوراك الأرناؤوطي، وفوق جثث الجند القتلى، خُضت في دمائهم، حتى بلغت السطح. القمر كان كاملًا، والنهر ساكنًا كالمرآة رغم قرب الفيضان، أما رشيد ابن لاظ أوغلي باشا، فقد كان جالسًا في هدوء، في ثياب والده المُبهرة، فوق خازوق ـ ساري

اليخت سابقًا ـ اخترق مؤخرته، فأمعاءه، فرئتيه، ليخرج من فمه الناظر للسماء، تاركًا من تحته بِركة دماء باردة، وأمجادًا بائدة.

وقفزت إلى المياه رغم الرعب ورغم نور القمر، رغم التماسيح ورغم ضعف البصر، سبحت إلى الضفة الأخرى، وبصقت ورد النيل حتى أدركت القارب المربوط بجذع الشجرة، الباذنجانة كانت مُتكومة على جانبها، موثوقة اليَدين في الرجلين، فزعتْ حين رأتني، قبل أن تتنفس، صعدتُ للقارب، وحللت عُقدتها، قبل أن أُجدّف، حتى بحيرة فيكتوريا، حتى المحيط الأطلسي، حتى كوكب المُشتري.

يوميات / نمرة ٥٢

أنباء ما حدث من وقائع بعد حادث يخت أفندينا.

مقتل ابن لاظ أوغلي باشا على متن يخت أفندينا، كان له وقع مُهين مؤلم، خاصة بعد مقتل نسيم باشا، والعثور على جُثته في سوق الجمعة بعد لجوئه للقلعة، عار اضطر الديوان أن يتستر عليه ويُخفي أخباره عن الفضوليين والصحافجية، وبالطبع عن السلطان عبد العزيز الأول الذي يُسعده كثيرًا كل ما يَحل بالديار المصرية من خراب. رُفع جثمان الباشا عن الخازوق، كُفِّن في السر، ودُفن دون أن يُفتح التابوت، وتم غسل اليخت من دماء الموتى، قبل أن يُبحر على متنه قبطان بطاقمه إلى ميناء إيطالي ليتم إصلاحه وتبديل الأخشاب التي اخترقها البارود.

الشك والالتباس والارتياب لم يغادروا وجه داغر بك بعد أن قصصت على مسامعه وقائع مذبحة اليخت، ولولا الصورة التي التقطتها للهجين بلمبة المغنسيوم؛ لألقاني في غياهب سجن القلعة. دار في غرفته كالنحلة، ثم سألني: «لِمَ كنتَ الوحيد الذي نجا؟ لِمَ أبقى عليك؟»، وبغض النظر أني شعرت من صيغة السؤال وكأنه لوم موجه للهجين بسبب تركي حيًّا أكثر منه استفسارًا، إلا أني أجبته: «الهجين تعهّد بقتلي بعد انتهاء القائمة، وقد تركني حيًّا بعد كل اغتيال حتى أصير شاهدًا مُوثقًا لانتقامه، وإلا صار القتل عنده، حفرًا في الماء. استمع لتفسيري من أُذن، وتقيأه من الأخرى، ثم أخبرني أن أفندينا أمر باستئجار رجل بوليس إيطالي يُدعى «كارليس مو»، سيصل القاهرة غدًا على متن سفينة، وهو مَدعوّ لحفل الاستقبال المُقام بسراي قصر القبة بمناسبة تولّي «توفيق» نجل أفندينا البكري، منصب وليّ عهد، وليتولى الإيطالي رئاسة إدارة القواصة ـ كنت يومًا أطمع في ذلك المنصب ـ ويتسلم التحقيق في قضية الباشوات.

وضع في يدي كيسًا إضافيًّا: «هذا كيس أخير، ثمرة مُشاركتك في القضية، وضمانة ألا تتفوه بشيء مما حدث، بشرط، أن تختفي عن المشهد تمامًا». سألته، كيف أختفي والضحية الأخيرة لم تظهر؟ فأجابني بأن الذين ماتوا كانوا أعضاء الكوبانية، ستة أشخاص، وليس هناك ضحية سابعة إلا في مُخيلتي، وقبل أن أغادر، استدركني: «سليمان أفندي، زمن القواصة انتهى، وكذلك زمنك؛ فالبوليس الطليان سيحكمون تلك البلاد بالعِلم والحديد والنار».

أما قشطة المسكينة، فحين عُدنا إلى اللوكاندة بعد ذلك اليوم الشاق، كانت تمر بنوبة ذُعر لا مثيل لها، علاوة على رجفة لم تغادرها حتى سقيتُها اللبن الدافئ، نامت على ذراعي فتأملتها حتى كِدت أفقد ذراعي، من التنميل، وحين استيقظت، وضعت يدي على بطنها فابتسمت، وأشارت لرسم أختها بالفحم على الجدار، بين الأطفال الكثيرين. سألتها بيأس: «احكي لي، ماذا حدث؟ هل آذاكِ الهجين؟ أين احتفظ بكِ؟»، وكأنها ستفهم يا سليمان؟! «الهجين ليس من المماليك»، رمقتني باستغراب، ولسان حالها يكاد ينطق: «لا أفقه لُغتك أيها المعتوه»، «الهجين ينتقم لأم وليس لأب أو جد»، تكومت بجانب الحائط، فقمت إلى أغراضي المبعثرة، أُرتبها في غرفة عنتر الذي رفض العودة للوكاندة، مُتحجّجًا بأن تكية المكفوفين تحتاج إليه، كما يحتاج إليها، فقد بدأ وزنه يتناقص، وبدأت أجنحته تقوى وتشتد منذ واظب على رقصات المولوية، ثم أخبرني بأن غرفته الآن تليق بطِفل جديد، سيقول له يومًا عمي عنتر.

عزمت أن أشتري بكيس النقود الذي ربحته ـ مُكافأة لصمتي ـ سريرًا لطفل نصفه أبيض، والنصف الثاني ليل حالِك، مخدة من ريش النعام، ناموسية، ستارة لا تنفذ نور القمر، وسجادة ناعمة، حتى يتعلم المشي عليها، هل سيكون له ذيل؟ هل ستكون عيناه زرقاوين مثل أمه؟ هل سأسميه صالح؟ هل ماتت الأفاعي بداخلي؟ أم أن عودة قشطة أعادت لي أنفاسي وأرغمت الأفاعي بالسحر الإفريقي على الرحيل؟ هل سيظهر الهجين في حياتي ثانيًا؟

لقمتُ الكنكة بالقهوة المُحوّجة، وأشعلت سيجارة، وشرعت في ترتيب الغرفة، وضعت مرتبتي في غرفة عنتر، ونصبت المنظار الفلكي خلف النافذة، وما هي إلا لحظات، وبدأت قشطة تُشاركني في إعداد بيتها الجديد، وضعت أحواض الزرع بجانب الحائط، سَقتِ اللبلاب، فرشَتِ الملاءة، ثم بدأتْ في إفراغ الصناديق من البرطمانات، الأجنّة العجيبة لم تُثِر اشمئزازها، ولعلها ستُخرجهم في يوم من الأيام لتلتهمها بعد التتبيل، رصَّتها فوق الرفوف كأنها ترص المزهريات، حتى سقط من يدها برطمان فتكسّر، أو هكذا ظننت، خرجت إليها، فوجدتها تنظر في فزع لم أفهمه إلى خنافس الكركدن السوداء الكبيرة، غنيمة رأس عِصمت باشا؛ ثاني ضحايا الهجين، ترعى بين زجاج البرطمان المُحطم قُرب ساقيها، وتُشير قشطة إليها قائلة: «إيمو، إيمو». أفلتت مني ضحكة، حبيبتي تأكل لحمَ البشر، وتشمئز من الخنافس! «إيمو، إيمو»، دعيني أحملها بعيدًا، إنها قاتلة رقيقة مثلكِ، «إيمو، إيمو»، وقبل أن أمد يدي لألتقطها، صرخت، وأبعدتني، ثم التقطت الفحمة ورسمت على الحائط، خنافس كثيرة، ثم وضعتهم في حوض. سبحان الله، قشطة تفكر في مشروع تجاري؛ مزرعة خنافس. احتضنتها، وقد أدركت أن حياتنا لن تكون سهلة، فعاودت الصراخ، ثم استأنفت الرسم، باب؟ وجه مُلثم يشبه الهجين؟ هل ترسمين المخبأ الذي اختُطفتِ فيه؟ المكان الذي تربت فيه الخنافس؟ فجأة اهتممت بالخطوط، حتى رسمت سيدة، وكرسيًّا مُميزًا، رأيته من قبل. فتشت الصناديق حتى عثرت على ملف صور الجرائم، مررتها أمام عينَي قشطة حتى صرخت، حين كان بين أصابعي، صورة من صالون سراية عصمت باشا، صورة للكرسي ذي الظهر العالي، المكسو بالقطيفة المشغولة.

ضرب جبهتي سهم الألم، كِدت أسقط لكني تمالكت نفسي، بحثت عن مُفكرتي مثل فأر حفّار، حتى عثرت عليها، فرزت أسماء الباشوات التي نقلتُها من الدفترخانة يومًا، ثم توقفت أمام اسم، معلومات ضئيلة، وبيانات شحيحة عن زوجة وابنة، سألت عنه الموظف يومها، فأخبرني أنه باشا غضب عليه أفندينا سنة ١٨١١.

لم يكذب عنتر حين قال عن قشطة.. إنها الخلاص.

بعد نصف ساعة، عَبرت جزيرة الروضة، وتمشيت تحت أشجار الجميز، حتى وصلت إلى سراية «عصمت باشا» المُطلة على النيل. «نمرة سبعة سكة المقياس في حالة أردت الزيارة يومًا أيها الحكيم»، قرعت البوابة حتى ظهر الخادم، نظر في وجهي بانزعاج، فذكرته نفسي، وطلبت مقابلة «مِسك هانم». في الصالون انتظرت دقائق، لاحظت خلالها رسمة، لامرأة جميلة، قبل أن يدق الكعب فوق السلالم، دخلت الحرمة مِسك في ثوب أسود بدت فيه فاتنة، رغم الحزن البادي، رحبت بي، طلبت لنا شايًا، ثم جلسنا، سألتني عن سبب الزيارة، فسألتها عن جرح كتفها، حمدَتِ الله على ما قدّر، فأخرجت من جيبي ظرفًا فيه خمسة جُنيهات، واعتذرت لها عن فشلي في العثور على القاتل، وكذا فساد صور جلسة تحضير الأرواح: «يبدو أن الحضور

الميتافيزيقي كان أقوى من أن تتحمله عدسة الفوتوغراف». رفضت بإباء: «ما حدث يوم الجلسة يستوجب تعويضًا يليق بك»، فسألتها عن السيدة الجميلة في الرسم، ابتسمت: «إنها زوجة المرحوم الأولى»، أبديت استغرابًا كوني لم ألاحظها حين زُرت السراية، مرتين، وكان ردها: «الباشا رحمه الله كان يغار عليها حتى آخر يوم في حياتها، مِسكينة، لم ترَ النور يومًا»، ترحّمنا عليها: «متى تُوفيت؟»، نظرت للسقف تستدعي ذاكرة: «منذ عشرين عامًا»، «ولم تُنجب للباشا أطفالًا؟»، ابتسمت في أسى: «الباشا كان عقيمًا»، قمت فأغلقت الباب وسط دهشتها، وأودعت المفتاح جيبي: «ماذا تفعل؟»، ابتسمتُ مُطمئِنًا: «لا أريد للخدم أن يسمعوا ما أقول»، هزت رأسها في اهتمام فأردفتُ: «لقد وضعتِ ثقتكِ فيَّ يومًا، وناولتِني العربون في وقت عوَز، ولن أخذلكِ، سأحكي لكِ قصة.. قصة ذلك الشمعدان»، وأشرت لشمعدان يطابق الذي ألقته يومًا على الهجين، أثناء مقاومته، استغربَتْ ما قلت، وأفلتت منها ضحكة، فأردفت: «حين تحدثنا أول مرة، في العربة، قلتِ بالحرف، إنك التقطتِ الشمعدان حين هاجمكِ القاتل، قذفتِه ناحيته فأخطأه، ثم تعثرت خُطاكِ فسقطتِ وزحفتِ، فأطبق عليكِ وخنقكِ، حتى غِبتِ عن الوعي، أليس كذلك؟»، هزت رأسها إيجابًا، فطلبت منها حمْل الشمعدان وإعادة تكوين المشهد. ابتسمتْ في استغراب، كررتُ طلبي، فاستجابت، توجّهت للشمعدان، أمسكت بجذعه، وحاولت رفعه، فلم يرتفع عن رخامة المنضدة نصف بوصة، ثم حاولتْ ثانيًا ففشلت، وضربت العصبية ملامحها، فعاجلتُها: «مسك هانم، أنتِ لم تُلقِ الشمعدان، لأنه ثقيل، جدًّا، بل لقد نسيتِ وحاولتِ رفعه بذراعكِ المصابة»، تنبهت فابتسمت ابتسامة صفراء: «لا أعتقد أني فهمت مقصدك!»، سألتها الصبر: «دعيني أكمل القصة يا هانم، لقد اختلقتِ الحادث، اختلقتِ مقاومة القاتل الذي أصابكِ إصابة محسوبة، تُوحي بالقسوة، وفي نفس الوقت، لا تترك فيكِ أثرًا دائمًا، ولكي تبدو الأمور طبيعية، ادعيتِ إلقاء الشمعدان أثناء مقاومته، مُتناسية وزنه، أو ربما لأن القاتل، مفتول العضلات، هو مَن اقترح إلقاءه، سيدتي، ذلك الشمعدان النحاسي يستعصي على الرجال حملُه، ما بالكِ بقذفه في وجه قاتل زوجكِ وأنتِ مفزوعة!». ساد صمت طويل، لم تقاطعني، رمقتني بتوتر فأردفتُ: «ثم مرت الأيام، ودعوتِني لجلسة تحضير الأرواح، تولى الدجال الأمريكاني استعراض ألاعيبه، قبل أن يتسلل القاتل إلى الصالون، من باب سِري، مثل كل سرايات الوجهاء أمثالكم، ويقتطف رأس حافظ باشا من بيننا، وفي قلب الفوضى، يدس الرأس في المخبأ الوحيد الذي يناسب أبعاده، بل هو مَخبأ لا يجوز تفتيشه، كاميرتي الخشبية، قبل أن يعود من نفس الباب، الذي أظنه هنا»، وأشرت للمكان الوحيد في الحائط الذي عُلقت فوقه لوحة زيتية جديدة، تحمل منظرًا طبيعيًّا، بحيرة وشجرة وفتيات بفساتين بيضاء وملائكة، وما إن ضغطت الحائط أسفل اللوحة بكفّي، حتى انفتح باب سِري يُفضي إلى غرفة صغيرة، بحجم إنسان. راقبت أصابعها التي تعانقت وتشنجت: «لا شيء يختفي بلا أثر، فالقاتل وخلال اللحظات التي أغلق فيها بوراك الأرناؤوطي الصالون، خرج من مخبئه بالرأس الذي جزّه قبل دقائق، دسّه بداخل الكاميرا، وعاد إلى مخبئه، ليمر أمام كل الأعين، قبل أن يُعثر عليه مُعلقًا في باب العزب؛ الباب الذي شهد مذبحة القلعة، وحين طبعت الفوتوغراف، مُتحفزًا لرؤية شبح زوجكِ العزيز، اتضح أن الزجاج الحساس تعرض للضوء فاحترق، لتظهر الصور بيضاء، ثم اكتشفت أن الكاميرا، مُلطخة من الداخل بالدماء، ليزداد يقيني بحضور روح القتيل».

قامت الحرمة، واتجهت للباب في عصبية، فعارضتها: «لم تنتهِ القصة بعد يا هانم، تلك السيدة التي تُشبهكِ بشكل كبير، لم تكن زوجة عصمت باشا فقط، بل كانت أمكِ، وقد أخبرني القاتل في اليخت، أنه ينتقم لأم»،

انعقد لسانها عن الكلام فعاجلتها: «لقد صرّح رشيد باشا لاظ أوغلي، قبل لحظات من موته، بأن الكوبانية، رُويَت بذرتها بدماء ملعونة: «دماء رجل عارضنا يوم المذبحة»، وبالإضافة لقصة عجيبة، سمعتها من فم سجين بالقلعة، يُدعى عم سمكة، حكى عن باشا نبيل، كان السبب في إنقاذه من الإعدام، ولسوء البخت، تم اتهامه بالتآمر. مما طابق بيانات عثرتُ عليها في الدفترخانة، ذُكر فيها اسم باشا مغضوب عليه، اتُّهم بالتآمر، وتم إعدامه سنة ١٨١١، ذلك الباشا كان يملك زوجة وابنة، في مثل عُمركِ؛ ذلك الباشا كان يُدعى، خليل المصري.

لم تنبس الحرمة بكلمة، فأدركتُ أني أصبت الهدف، نظرتْ في عينيَّ، ثم نظرتْ ورائي، مثلما نظرتْ عزيزة يومًا لسيد عجوة، فالتفتُّ، وكان الهجين حاضرًا. زحفت الأفاعي السوداء فوق السجادة، تتجه نحوي، وقد اشتمّت العرَق الذي غمرني والبول الذي أوشك أن يُبلل سروالي. جلست على الكنبة، أو وقعت، الهجين بدون لِثامه، والحرق في جبينه، كان في منتصف الخمسين، يملك عينَي مِسك هانم وأنفها الحاد، ويرتدي بدلة ألافرانكا قمة في الأناقة: «لم أظنك بذلك الذكاء يا سليمان أفندي»، اقترب، فقدتُ صوتي، سحب الكرسي ذا الظهر المكسو بالقطيفة، وجلس، فتضاعف الألم في جبهتي، أشعل سيجارة ثم تحدث: «دعني أُكمِل القصة، فأنت رجل يشتاق للحقيقة. خليل باشا المصري، كان من الأثرياء، يملك آلاف الأفدنة، وعددًا من المصانع، لكنه لم يكن محبوبًا من رجال الباشا، لأنه لم يصادقهم، ولم يُهادنهم، كان يتحاشاهم لعلمه بخبثهم، حتى وصفوه بالغرور، ولعلّك مثل العامّة، لا تعلم إلا نصف القصة، دعني أحكِ لك ما حدث يوم واحد مارس سنة إحدى عشرة، حين انغلق باب العزب على المماليك، واختلط دويّ الرصاصات بالصرخات، وقعت بالناس كرشة، وهرب مَن حضر ليشهد خروج الموكب المَهيب، أُغلقت الحوانيت، وبدأت رءوس المماليك تُلقَى في حوش الديوان، تتكوم وتنزف، كالبطيخ الفاسد، وعندما تحقق الجند من قتل أمراء المماليك، انبثوا كالجراد طالبين النهب والغنيمة، عاثوا فسادًا وولجوا البيوت، وهتكوا الحريم وسحبوا الجواري والخوندات وسلبوا ما عليهن من جواهر، وكل أمير ملك دارًا كبيرة، تم الاستيلاء عليها. نُهِب في تلك الواقعة ما لا يقدر حصره، ولا يُحصيه إلا الله، ولم يتوقف النهب حتى نزل الباشا بنفسه في الضحى، راكبًا في موكب، وحوله الأمراء والجُند مُشاة، والفرح والسرور بقتل المماليك طافح في الوجوه، أمر بقتل بعض رءوس النهابين، ثم أصدر لاظ أوغلي أمرًا بتعقب فلول المماليك الذين لم يحضروا المأدبة الدامية، فانطلق الجند كالضباع الجائعة، تشتمّ ذِكر المغضوب عليهم، وكان تلك فرصة لن تتكرر، للتخلص من خصم عنيد مغرور لا ينحني. فاجتمع خمسة رجال وامرأة، على شهادة واحدة: «خليل باشا المصري يأوي أمراء المماليك في بيته»، لتتجه قوة من الأرناؤوط إلى سرايتنا، ويتم خطف خليل باشا؛ أبي، أمام أعيننا، بعد تبادُل إطلاق رصاص لم يحدث، وتُحمل بعض رءوس المماليك الفارّين لتُلقَى في حوش الديوان، بينهم رأس أبي، الخائن»، هنا بكت مِسك القلوب، انحدرت دموعها ممزوجة بالكُحل على وجنتها قبل أن تتكلم: «كنتُ أبلغ من العمر خمس سنوات، وكانت أمي حبلى في علي» ـ الهجين اسمُه علي ـ «وبسبب جمال وجهها، لم يقتلها عصمت باشا، كانت نصيبَه في التركة، اتخذها جارية، أراد الاستمتاع بها، وإذلالها، أنجبتْ علي بأعجوبة، وعاشت حبيسة في طابق علوي مُغلق بمفتاح، ضُربت بالكرباج لأنها تنظر في عينيه بعد انتهائه منها، ضُربت بالكرباج لأنها تتنفس، ضُربت بالكرباج لأنها نجحت في تهريب علي وهو طفل صغير، إلى الصعيد، بصحبة خادمة مُخلصة، بعد أن ألقى عصمت باشا المصباح على وجهه فأحرق جلده، وضُربت أمه بالكرباج لعدم إنجابها، الباشا لم يكن يعلم أنه العقيم، حتى أصاب أمي المرض، ولما ماتت، اتخذني زوجة،

دون أن أختار أو أعترض، حتى استطعت العثورَ على علي، ببحث اتخذ سنينًا؛ لأن الخادمة التي ربّته، ماتت في شوطة الكوليرا، دون أن تُخبر زوجها عن حقيقة الطفل الذي يعيش بينهم».

سكتتْ، فتأملتُ الأفاعي السوداء، كانت تُصغي معي، مشدوهة تهز ذيولها في توتر. سحب علي نفَسًا من سيجارته ثم استطرد: «بقية التركة التي تركها والدي من فدادين خصبة ومصانع، تم تقسيمها بين الجُناة وأبنائهم، الذين اقترحوا عمل كوبانية يحفظون بها سر الأموال ويُنمّونها، ولتكون غطاءً للسيطرة على الأسواق. جميعهم، كانوا يعلمون مصدر الأموال الدامي، وجميعهم اتفقوا على الصمت، واتفقوا أيضًا ألا يتحدثوا في أمر الكوبانية إلا إذا أرسل أحدهم للآخر بالرمز؛ رأس الأسد». سألته: «أنت هو المشاعلي؟»، فأجابني: «ذلك هو لقب الأسرة التي تربيت بين أفرادها في الصعيد، وتلك كانت المهنة التي امتهنتها بينهم، حتى أكسبتني اسمي، ثم تواصلت مع مِسك؛ أختي التي بحثتْ عني سنينًا طويلة، وكانت قد اطلعت على أوراق الباشا الخاصة، وآنَ وقت حصاد الرءوس».

«لقد استغللتَ وجودي كل ذلك الوقت، حتى يتخبط القواصة بين الأدلة، ويتم اتهامي، فأساهم دون أن أدري في استكمال مخططكَ الجهنمي للاستيلاء على الحكم أيها الهجين القمري الزاحف».

لم أجرؤ من هول الموقف أن أنطق بتلك الكلمات، لكني سألت: «هل ستُرسل ورائي العقرب الأحمر؟»، رمقني في استغراب شديد. «عقرب أحمر؟!»، الخبيث، يُنكر تهديدي بالعقرب أمام أخته، فاستطردت: «مَن هي الضحية السابعة؟».

نظر لساعة الحائط التي دقّت ثماني دقات وأردف: «ستقرأ الخبر في الوقائع المصرية»، ثم أخرج طبنجة صغيرة وصوّبها لرأسي: «أخرِج المفتاح»، وضعته في راحته فقبض على تلابيبي، ودفعني أمامه، صعدنا السلالم حتى حجيرة تخزين صغيرة بالدور العلوي، وضعني فيها وأغلق الباب.

أضأت قداحتي، تأملت الكراكيب المحيطة، ثم راقبت النار، واتخذ الأمر مني دقائق حتى أهضم وأستوعب ما ألقاه على مسامعي الهجينُ الصعيدي المشاعلي الأخُ الأصغر لمسك هانم والمُسمى بعلي، الصورة أصبحت واضحة، الأسود والأبيض والرماديات بينهم، لا يبقى إلا معرفة الشخص الذي يُعطيني ظهره، الضحية السابعة، ولم تأتني الفكرة إلا حين انطفأت نار القداحة، عيد ميلاد توفيق؛ الابن الأكبر لأفندينا، الهجين يرتدي بدلة فخمة، وبابيونًا، الهجين يحمل لأفندينا هدية، طبنجة صغيرة.

بحثت بين الكراكيب عن شيء يصلح أداة لفتح الباب ولم أجد، فلم يكن هناك سوى كتب قديمة، علاوة على أن المفتاح والج في الباب من الخارج، ولأن للنبوة كرامات سأُفرغ لها يومًا مساحة في يومياتي أو أجمعها في مجلد، فقد ألهمني الوحي أن أقطع صفحة من كتاب كبير، وأدسها تحت عقب الباب، أسفل الكالون، وأن أقطع جلدة كتاب وأبرمها حتى تصير مُتماسكة، وأدسها بداخل ثقب الباب، وبعد عناء، سقط المفتاح من الثقب على الورقة، فسحبتها بحرص حتى مرت أسفل الباب، فالتقطتُ المفتاح، وفتحتُ الباب بحرص.

السراية بدت خالية، أخرجت سكّيني ونزلت السلالم، فلم أصادف أحدًا، وقبل أن أفتح الباب الكبير، التقطتْ أذني صوتًا، كان الخادم العجوز، نظر للسكين بين أصابعي فامتلأ وجهه بالهلع، سألته أين الحرمة، فأخبرني بوجَل أنها رحلت منذ قليل، فخرجت راكضًا، ركبت النيل حتى الضفاف المقابلة، واستأجرت كارتة بحصانين ولم أبخل، أوصلتني حتى قصر القبة.

أمام القصر، طلب الحراس إبراز الدعوة، فكتبت اسم داغر بك على ظرف مُغلق بداخله رسالة قصيرة: «المشاعلي في الحفل. سليمان السويفي»، انتظرت ربع الساعة حتى أقلّتني عربة صغيرة إلى مدخل، وقف أمامه مبتور الورك يفرك ويفور توترًا: «لقد حذرتكَ الاقتراب»، أخبرته أن الوقت الآن من ذهب؛ فالقاتل بالداخل، وينوي اقتناص الضحية السابعة. «مَن هي؟»، سألني فأخبرته أن اسم أفندينا يليق بالحدث، فهو يسعى لأن يُنهي الانتقام برصاصة توضع في متحف، وانفجرت الألعاب النارية فوقنا فارتعد داغر بك وأمسك عضدي ودفعني للداخل.

الحفل كان فاخرًا، فأفندينا يعشق البذخ، زَي مرزوق يحب العُلو ولو على خازوق، الطعام من كل صنف، والضيوف من كل جنس: فرنصاوية، جِريج وطاليان وأمريكاوية ونمساوية وعثمانلية، فساتين مرصَّعة، نهود عامرة بالجواهر، بدلات ألافرانكا، وشنبات مُتغطرسة، ضحكات صاخبة ونبيذ وموسيقى تخت «ساكنة بك» بجلالة قدرها، تشدو بصوت ساحر في فستان أبرز رشاقة فرس خمريّ، رغم سِنها الكبيرة، وقُبح ملامح وارته بنصف خمار حريري. في نهاية القاعة وقف ولي العهد توفيق، تحسبه فتاةً جميلة في الثالثة عشرة، لولا الزيّ الذكوري والشنب الناعم، يرحب بالضيوف، ومن ورائه أفندينا، مندمجًا في حديث مع «كارليس مو»؛ رئيس القواصة الإيطالي المرتقب. إسماعين المسكين، لا يكاد يدري أن بين زحام الأبهة، وجلال قدْر الضيوف، يتربص قاتلٌ.

خُضت القاعة المزدحمة، يتقدمني داغر بك، بعدما أصدرَ أمرًا للحرس بالتأهب دون إحداث بلبلة، حتى لاح إسماعين، أشرت إليه من بين الرءوس فتجاهلني. ابن اللذين! هانت عليه العشرة في حضرة الخواجات! كان ذلك حين لمحت الفستان الأسود؛ مِسك هانم، كانت تنظر لي بوجَل من بين السيدات، فصرخت عاليًا: «ها هي ذي»، الصيحة كانت عالية، فتوقف التخت عن العزف، التفت الرءوس ناحيتي، ورمقتني المُطربة «ساكنة بك» بغضب واشمئزاز. قبض مبتور الورك على ذراعي بأصابع من حديد: «ماذا تفعل يا مجنون؟»، جذبته بعزم ما أوتيت تجاه «مِسك هانم» وصرخت: «تلك الحرمة، أتت بصحبة أخيها ليقتلا أفندينا»، سَرت الهمهمة، وانتبه أفندينا، فاضطرب وجه الحرمة، تراجعتْ خطوة، فاقتربتُ، وقبضتُ على رسغها فصرختْ: «ماذا تريد؟»، أجبتها: «أين أخوكِ؟»، فجذبتْ رسغها: «ليس لي إخوة.. ابتعد عني»، وجالت ببصرها في القاعة، ثم رمقت الساعة الكبيرة التي أشارت للتاسعة مساءً، فأدركتُ أن الوقت قد حان، وما هي إلا لحظة، وانطلقتِ الرصاصات من جهة غير معلومة. ثلاث طلقات، أخفضتِ الرءوس، وساد بعدها الهرجُ والمرج، وهاجتِ الصرخات.

وسقط أفندينا.. مُضرجًا في دمائه.

يوميات / نمرة ٥٣

أنباء ما كان من وقائع بعد حادثة قصر القبة.

كانت ليلةً عصيبة، لم تشهد البلاد مثلها منذ مقتل الوالي عباس حلمي في قصره ببنها على يد غُلامين من حُراسه، استُنفر الجند، ونزلت الخيالة في الشوارع لتدور حول قصر القبة، تم حبس كل المدعوين بالقاعة بعد استخراج أفندينا إسماعين وولي عهده منها. وُضع المسكين على سريره غائبًا عن الوعي، ينزف من ثلاثة ثقوب، ومن حوله الطبيب الألماني «دي ليو» بك، والطبيب المصري «محمد علي باشا البقلي»، ولفيف من المساعدين. أُجريت عملية جراحية، فاستُخرجتْ رصاصتان، واستقرت الأخيرة بجانب القلب، تُهدده من مَكمن حسّاس يصعب الوصول إليه.

في القاعة المكتظة بالمدعوين، بكت النساء، وعَلا الهم والخوفُ على المصيرِ وجوهَ الرجال، قبل أن يُصدر القواص الإيطالي أوامره بتفتيش الحضور، أكثر من ألف نفس، علاوة على فحص الحدائق والشرفات.

كيف اختفى قاتل أفندينا؟

ولماذا وُجدت الطبنجة الساقية التي أطلقت الرصاصات، في جيب وليّ العهد المُراهق توفيق؟

تم التحفظ على العبد لله، والحرمة مِسك القلوب التي أنكرت أقوالي، استمر الاستجواب بمعرفة القواص الإيطالي، حتى تمام الواحدة وخمس وثلاثين دقيقة من ظُهر اليوم التالي، حين انتشرت الأنباء الحزينة، فقد صعد السِّر الإلهي. مات إسماعين، مات الأخ الذي لم تُنجبه أم، مات قبل أن يُنهي حفر ترعة السويس، قبل أن يفرح بالانتقال إلى قصره الجديد بضاحية عابدين، مات قبل أن نستكمل جلسات السمر مع النارجيلة والأفيون في حوش الديوان بالقلعة.

بعد أسبوع، أعلن القواص الإيطالي فشله في العثور على القاتل، فقدّم استقالته وتنحّى، عاد لبلاده مخذولًا مدحورًا نادمًا على التواجد بالمحروسة في عهد سليمان السيوفي، أما العبد لله فتم الإفراج عنه بعد كتابة تقرير كامل لملابسات الحادثة، وسبيل معرفتي بالمؤامرة، مما أدى لسَجن الحُرمة مِسك القلوب، تمهيدًا لمعرفة مدى تورطها من عدمه.

خرجت من القرقول، إلى لوكاندة بير الوطاويط، صعدت إلى غُرفتي فاحتضنت قشطة التي مضغها القلق، نظرت إلى بحر عينيها وقلت لها: «مي لِيا كيبي نيامورو»، فبرقت عيناها بالحب والعشق، وقررتُ لحظتها، أن الوقت قد حان ليُكمل سليمان السيوفي نصفَ دينه، فأغلب إخوتي من الأنبياء ـ عدا المسيح ـ مُتزوجون، ولعل ذلك يُعجِّل بنزول الرسالة، دعواتك أيها الحكيم العزيز.

في اليوم التالي توجهت لتكية المكفوفين، استقبلني عنتر، وكم تغيَّر رفيق الدَّرب، فقدَ نِصف وزنه أو أكثر، أصبح رشيقًا كفرس النبي، قبَّل جبهتي ومَسح على رأس قشطة بالزيت، قبل أن يعقد قراننا وسط فرحة الدراويش، ولأول مرة، قرر أن يحملني على ظهره، ومن أمامي وضعت قشطة، رفرف بأجنحته فارتفعنا، وسط التهليل والتكبير، في زفة ملوكية، تضاهي زفة السلطان عبد العزيز الأول على عروسه. دار بنا عنتر فوق القاهرة، وكاد يرتطم بمئذنة مسجد الباشا الكبير حين مررنا بالقلعة. طوال الرحلة، لم يكف ذيل قشطة عن الحركة، سعادة افتقدتها منذ غادرت قبيلتها، حتى أُنهك عنتر، ونال التعب منه، فهبط بسلام فوق سطح

اللوكاندة، وهمس في أذني، بأن قشطة بنت حلال، وسأرزق منها بمعجزة فريدة، تتحاكى بها الأمم، ثم احتضنني، ودس في كفي خلسة، سِن أفيون، غمز بآلاف الأعين، ثم ودّعني إلى لقاء قريب. فحملت قشطة، ودخلت بها الغرفة، استلقينا، ونهلت من أنهار العسل الأسود، ووعدتها بيني وبين نفسي، أن نزور قبيلتها بعد إنجاب «عنتر» الصغير، لنلتقي أباها وأمها.

في فجر اليوم التالي، وفي ميقات الأرق المزمن، استيقظت، جلست على السرير، مُحاولًا التمسك بمنام عجيب تتطاير تفاصيله، رأيت فيه أفندينا إسماعين، حيًّا يُرزق، بدرًا مُنورًا، يُكمل بناء قصره الجديد، ويُخطط لحفل افتتاح ترعة السويس. تفاءلت، رغم أنه كان ينثر الذهب من حوله، وذلك فأل سيئ في المنام.

رأيت كذلك عزيزة الشبكشي، وكأنها حيَّة، تقف بشبّاك المارستان، لمحتني فلاعبت إصبعها الوسطى، وبصقتْ على الأرض بالقرب مني: «سفوخس»، فصِحت فيها بملء صوتي: «سلام على اللي راحت تنتقم من أبوها ورِجعِت حبلة».

ورأيت في المنام أمي، وقد أكلتها الشيخوخة، تقف وراء باب غرفتي رغم تشديدي على الشبشب الشركسي بمنعها من الصعود، تسب وتصيح من بين الأسنان المتهالكة، بعبارات لا أذكر منها إلا: «طالع لجدك، آخر عُمره، كان يكلم الحيطان ويطارد قطط الشارع».

ورأيت في المنام أيضًا، أني أفض رسالة من الهجين، كتب فيها أنه مُعتقل في زنزانة تحت الأرض بسجن القلعة، ينتظر تنفيذ حكم الإعدام شنقًا، بعدما تم القبض عليه قبل ثوانٍ من إطلاق الرصاص على أفندينا، وأنه لن ينسى التجربة التي مررنا بها، رغم قسوتها، وسيَفِي بوعده، فقد ذكر اسمي للتو، أمام العقرب الأحمر، وسيأتي في أثري.

انتفضت مُنزعجًا، مع أذان الفجر، نظرت في فروع اللبلاب التي رسمتْ كلمة «نبي»، ثم اتجهت إلى النافذة لأتأكد من غَلْقها، فوجدت على الإطار جرادة، حكَّت جناحيها في أدب، باركتْ زواجي بتمنّيات طيبة، قبل أن تسألني على استحياء: «ألا تظن أن الهجين ربما قد استولى على جسد وليّ العهد توفيق تمهيدًا لغزو مُرتقب؟».

قالتها، واعتذرتْ عن زيارتي في يوم صباحيتي على قشطة، ثم طارت.

أيها الحكيم العزيز، أتمنى أن أجد لديك تفسيرًا مقبولًا للحلم العجيب الذي راودني، وسأطلعك في اليومية التالية على خطتي في مواجهة العقرب الأحمر.

النهاية